القافلة

مجلة ثقافية تصدر كل شهرين • نوفمبر-ديسمبر 2003

ملف العدد

الشجرة الطيبة

- قراءات في "رمضان الفضائي"
- أسعار النفط.. بين مد وجزر
- مدّخرات العمر.. كيف نحفظها؟

العدد 5
المجلد 52

معطيات العدد

نوفمبر - ديسمبر 2003
رمضان - شوال 1424

توزع مجاناً للمشتركين
للاستفسار عن الاشتراكات - هاتف: 6948 874 3 966

العنوان: أرامكو السعودية
ص . ب 1389، الظهران 31311 المملكة العربية السعودية
فاكس: 3336 873 3 966 - البريد الإلكتروني:
alqafilah@aramco.com.sa

القافلة



ردمد ISSN 1319-0547

معارض ومؤتمرات

نوفمبر 2003

معرض رمضان العالمي لمستلزمات المستهلك
دبي: 1 - 23
معرض أسواق رمضان الثالث عشر
جدة: 3 - 8
معرض أسواق رمضان
الجبيل: 4 - 9
معرض الطاقة المستقلة والجديدة
طوكيو: 11 - 13
معرض رمضان والعيد
الدمام: 11 - 15
معرض الأيام التجارية
الأحساء: 11 - 17
معرض الشتاء الأول
المدينة المنورة: 12 - 17
معرض الخمسة الكبار
دبي: 29 - 3 ديسمبر

ديسمبر 2003

المؤتمر الثاني لمؤسسة الفكر العربي
بيروت: 4
معرض الطيران
دبي: 7 - 11
معرض ومؤتمر التجارب الآمنة
الجبيل: 8 - 10
معرض المرور الخليجي
دبي: 8 - 11
اللقاء الثاني للمؤتمر الدولي حول النفط
قطر: 8 - 11
معرض الكتاب العربي
الرياض: 9 - 14
معرض الأحساء الدولي
الأحساء: 13 - 18
معرض المعدات والمنتجات البترولية
جدة: 14 - 29

في العدد القادم

- نجيب محفوظ يكتب عن حال الرواية العربية
- كيف نفهم التربية؟
- تغيَّر صورة البطل الرياضي

رسالة المحرر

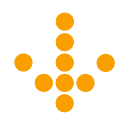
لوحات فنية للصغار والكبار وأشعار للعيد والنخيل ومقالات عن رمضان الفضائي. هذا ما يغلب على عدد القافلة الخامس، الذي نأمل أن يلبي ضمن خصوصية هذا الشهر الفضيل، ما يرجوه القارئ من المتعة والفائدة.

1

المقال الأول في مناخ الطاقة كُرس في هذا العدد لمسابقة رسوم الأطفال، النشاط التربوي الذي تنظمه أرامكو السعودية منذ ربع قرن. ويحاول هذا المقال أن ينقل إلى القراء أحاسيس الأطفال البريئة عن حياتهم وبيئتهم وبلدهم خلال هذه الحقبة الطويلة من عمر المملكة. وفي موضوع آخر، في ذات المناخ، يحاول ياسر مفتي أن يفسر أسباب التقلبات الدائمة في سوق النفط التي تثير حيرة الكثيرين من غير المطلعين على دهاليز هذه السوق.

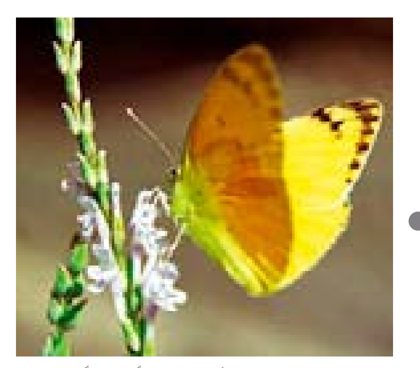
2

سباق المسلسلات والبرامج والمسابقات التي تتهافت على مشاهدي التلفزيون في رمضان يأخذ الحيز الأكبر من مناخ القضايا في ثلاث مقالات، تمتدح وتنتقد، وتحذر وتقترح. المقال الأول للكاتب رجاء النقّاش والثاني للصحافي إبراهيم العريس، والثالث يكتبه الزميل رئيس التحرير. ثم نعود مع الذاكرة إلى الشيخ علي الطنطاوي - يرحمه الله - الذي بقي لسنوات طويلة وجهاً رمضانياً حاضراً في تلفزيون المملكة.



3

مناخ البيئة الذي استحوذ على باب " قول في مقال" يناقش الإيجابيات التي تعود على الشركات من التقيد بضوابط البيئة، بينما يلقي موضوع آخر الضوء على مصير إطارات السيارات، في محاولة للإجابة عن سؤال مهم هو: أين تذهب إطارات ما يقرب من نصف بليون سيارة في العالم وكيف تتعامل بيئتنا معها؟
وفي مناخ العلوم والتقنية يستوقفنا موضوعان يعكسان بعض الغرابة التي تبدو على كثير من مستجدات الاكتشافات العلمية اليوم، يتناول الأول تقنية "النانو" في بداياتها، بينما يتناول الثاني ظاهرة فيزيولوجية نادرة تختلط لدى أصحابها الانطباعات الحسية فيرون الأرقام بالألوان والأشكال بالمذاقات.



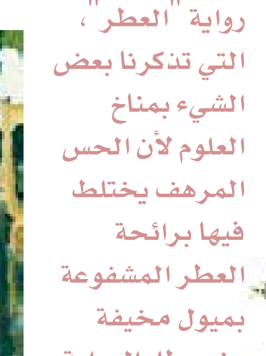
الملف المصور يستضيف مصوراً سعودياً شاباً هو عبدالعزيز عياش الغامدي، الذي يمثل مجموعة من الشباب السعوديين الذين جذبتهم هواية التصوير. وتخطط القافلة لاستضافة أكبر عدد من هؤلاء الشباب في أعدادها القادمة.

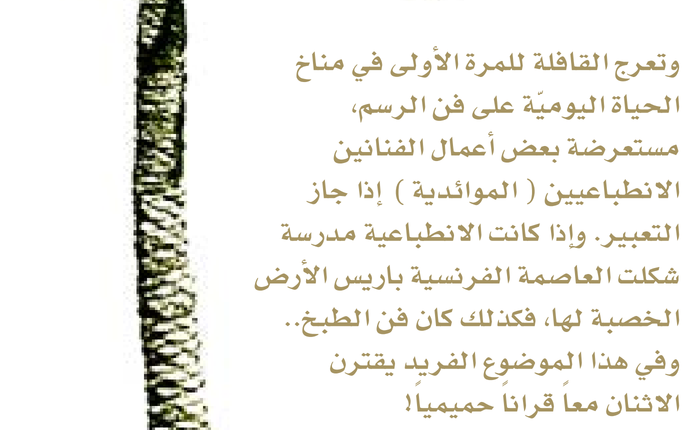
4

وتعرج القافلة للمرة الأولى في مناخ الحياة اليوميّة على فن الرسم، مستعرضة بعض أعمال الفنانين الانطباعيين (الموائدية) إذا جاز التعبير. وإذا كانت الانطباعية مدرسة شكلت العاصمة الفرنسية باريس الأرض الخصبة لها، فكذلك كان فن الطبخ.. وفي هذا الموضوع الفريد يقترن الاثنان معاً قراناً حميمياً!

5

وإذا كان للرسم حصة كبيرة في هذا العدد فإن للشعر حصة مماثلة. وقبل ديوان الأمس واليوم المكرس برمته لأبيات منتقاة للعيد، يكتب الناقد جهاد فاضل تقييماً معمقاً لأزمة الشعر العربي الحديث، وهي أزمة تستحوذ على المزيد من الاهتمام في هذه الأيام التي يشكل فيها الالتفات إلى حال الثقافة العربية أحد مشاغل عدد من المنقبين في هذه الثقافة وتطوراتها.
وينتهي مناخ الثقافة بـ "بيت الرواية" الذي يستعرض فيها الروائي السعودي عبده خال رواية فريدة في موضوعها ومعالجتها هي رواية "العطر"، التي تذكرنا بعض الشيء بمناخ العلوم لأن الحس المرهف يختلط فيها برائحة العطر المشفوعة بميول مخيفة عند بطل الرواية.





6

وتحط القافلة في رحلتها مع مواضيع ملفها عند موضوع أثير، هو شجرة النخيل، تلك الشجرة الأقرب إلى وجدان العربي وقلبه. ومن حسن الصدف أن ينعقد في القصيم، ونحن نعدّ هذا الملف، مؤتمر نظمته كليّة الزراعة والطب البيطري في جامعة الملك سعود، لتحضره القافلة وتفيد منه لملفها.

المحرر

الرحلة معاً

ثقافة الانتخاب

ماذا يعني صدور قرار إشراك المواطن في الانتخاب الجزئي في مجالس البلديات؟ القراءات لهذه الخطوة تناولت أبعاداً متعددة، واعتبر أغلبها القرار صائباً في طبيعته وتوقيته، وحمّل المواطن المسؤولية في التفاعل الواعي مع نتائجه.

كنت أشرت في العدد السابق من القافلة إلى ما ذكره مثقف عربي التقيته الصيف الماضي، من أن هناك حضوراً سعودياً متصاعداً، بات، إذا ما قورن بغيره، أكثر وضوحاً ونضجاً في السنوات الأخيرة، خاصة في مجال النظر إلى بعض الأمور من أجل أن تستقيم وتأخذ طريقاً أكثر اطمئناناً إلى المستقبل.

ومصداقاً لرؤية هذا المراقب وغيره من المراقبين، يأتي قرار الانتخابات البلدية ليشعل ضوءاً جديداً على طريق المستقبل السعودي، الآخذ في التبلور من خلال جملة خطوات إصلاحية في المجالين السياسي والإداري، تستجيب من جهة لآمال المواطن، وتتفاعل، من جهة أخرى، مع دور هذا المواطن وشراكته في بناء وطنه والتخطيط لمستقبل أجياله.

وإذا كان المحللون شرّقوا وغرّبوا في تفسير قرار الانتخابات البلدية، فإن أكثر هذه التفسيرات منطقية والتصاقاً بالواقع هو ذلك الذي اعتبر القرار فاتحة موفقة للمشاركة الشعبية، باعتبار أن هذه المشاركة ستتم من خلال أجهزة البلديات، التي تعد من أكثر الأجهزة التصاقاً بحياة الناس ومعيشتهم اليومية. وهو ما يعني أن الناس سيتعرضون لثقافة الانتخاب على شكل جرعات بدلاً من أن نقفز، في بدايات مشاركة المواطن، إلى جرعات أكبر قد تفوّت علينا فرصة بناء وتأصيل الوعي بأهمية المشاركة في القرار الوطني.

ناحية أخرى تدل على صواب هذا القرار ودقة توقيته، هي أن الناس الذين سينتخبون ممثليهم في مجالس البلديات، سيتمكنون من بناء خبراتهم الشخصية في كيفية اختيار مرشحيهم تحت وطأة المسؤولية الملقاة على عواتقهم، وبالتالي ستنشأ لديهم الرغبة في الاختيار الموضوعي، المبني على مصالحهم كمواطنين، تلك المصالح التي تنسحب بالضرورة على مصلحة الوطن ومغانمه ككل، الأمر الذي يشكّل الهدف النهائي لأية عملية إصلاح تقرُّها الدولة.

الناس أيضاً، من خلال هذه الخطوة (الفاتحة) في المشاركة الشعبية في القرار، سيتعلمون الكثير عن مبدأ الانتخاب ويستأنسون مصطلحاته ومفاهيمه، أي أنهم سيتعرضون لتمرين جيد حيال إشاعة مفهوم الانتخاب وتعميق المسؤولية تجاه روح المشاركة، التي تعود بفائدتها على الجميع. وفي هذا الجانب لا شك في أن الجهات المعنية تلتف وتسعى لبناء الوعي بثقافة الانتخاب، لا سيما وأن هذه الجهات ستلقى حماسة ودعماً من المواطنين، الذين سيشاركون في قرارات تتعلق بمدنهم وقراهم، الأمر الذي يوفر عليها الكثير من الجهد في سعيها لبناء أسس الوعي المنتظر.

إن هذه الخطوة المهمة، وبقية الخطوات التي سبقتها، ستتميز وتنمو بمرافقتها للوعي الحقيقي بقيمتها، فالعلاقة بين الدولة والمواطن لا تنبني على علاقات متناقضة كما يريد البعض أن يصوّر لنا، بل على أساس من الشفافية والحوار والمشاركة ضمن الدائرة الوطنية الشاملة وإيمان الطرفين بأن أهم ما يمكن استثماره هو إمكانات الإنسان، المخلص لنفسه ووطنه.

وبالجملة يبقى مما يبعث على التفاؤل في الطريق إلى تطبيق هذا القرار، شجاعتنا في تقويم تجاربنا وثقتنا في قدرتنا كمواطنين، نتمتع بالمعرفة والمكتسبات الحضارية، ما يساعدنا على التعامل مع الإصلاحات باعتبارها اختيار، يتطور برقي الممارسة.

رئيس التحرير





ترحب القافلة برسائل قرائها وتعقيباتهم على موضوعاتها، وتحتفظ بحق اختصار الرسائل أو إعادة تحريرها إذا تطلب الأمر ذلك.

إلى.. رئيس التحرير

تنوّع المواضيع

سعدت بالاطلاع على العدد الجديد من مجلة القافلة (سبتمبر - أكتوبر 2003م). وسرني ما تضمنه من مادة جيدة ومواضيع متنوعة. وإذ أهنئكم وزملاءكم في التحرير على هذا الإنجاز الصحفي المميز أرجو لكم المزيد من التوفيق والنجاح. كما لا يفوتني أن أشكركم على هذا الإهداء مقدرة لكم سلفاً استمرار وصولها لنا.

لبنى سليمان العليّان
الرياض

الأداء الصحفي

تابعنا بإمعان الأعداد الجديدة من القافلة المباركة، ووقفنا مليّاً عند افتتاحيتكم (ع1 مج52) وكادت تبعث فينا حيرةً مردّها ذلك الضربُ من القلق التأملي: فالذي تساءلنا عنه هو البروز المتضخّم لمفهوم "الأداء الصحفي" والذي نخشاه هو أن يكون ذلك على حساب "الرسالة الثقافية الفكرية". فكل القرائن اليوم تدلّ على أن إثبات وجود الذات العربية الإسلامية أمام "الآخر" لن يتحقق إلا بخوض غمار الملحمة الثقافية الكبرى ذات الطابع الإنساني الشامل.
وفقكم الله في مسعاكم النبيل.

د. عبدالسلام المسدّي
تونس

الأرقام العربية

تهنئة صادقة بالمستوى المتميز لمجلتكم العريقة، وآمل أن يوفقكم الله إلى السير بها إلى الأحسن بشكل دائم، وألفت انتباه أخي الكريم إلى أن استخدام الأرقام الإفرنجية في القافلة يحتاج إلى إعادة نظر، فهذا الرقم لا يتلاءم مع الحرف العربي والأمل كبير في عودة القافلة إلى الرقم العربي الصحيح (١، ٢، ٣)، وأرفق لكم نسخة من عدد عالم الكتب الذي خصص لمناقشة مسألة الرقم العربي والذي ثبت فيه من خلال الدراسات أن الرقم (3، 2، 1) لا علاقة له بالعربية وأنه دخيل، حتى أن استخدامه في المغرب كان متأخراً.

يحيى محمود بن جنيد
رئيس تحرير مجلة الفيصل - الرياض

الحقيبة المدرسية

استوقفني في العدد الأخير (العدد 4 - المجلد 52) النشرة المرفقة مع العدد التي تتحدث عن الحقيبة المدرسية، والتي سُلّط الضوء من خلالها على موضوع مهم جداً يغيب عن بال الكثير من الأهالي والمدرسين. فقد أثبتت الدراسات الحديثة التأثير السيء للحقيبة المدرسية على صحة الطالب وتكوينه الجسماني.
أشكر لكم التنبيه إلى هذا الموضوع، وأتمنى الاستمرار في تغطية الموضوعات التي تتناول صحة طلابنا الأعزّاء علماً بأنني مستعد للمساهمة في ذلك.
بارك الله بكم وأسبغ عليكم وافر الصحة والعافية وإلى مزيد من التقدم والازدهار.

د. عماد محمد زوكار
الرياض

الغراس الخضراء

استلمت العدد الجديد من مجلة القافلة، وقد بدا فيه الجهد الواضح الذي يتجه نحو تقديم خدمة ثقافية وفكرية متميزة، لا سيّما وأن موضوعات المجلة تتجاوز الكثير من التقليدي والسائد في هذا النطاق وتتجه إلى تأصيل غراس خضراء في التصحّر الثقافي الذي يحاصرنا. فلكم وافر الشكر والتقدير.

أميمة الخميس
الرياض

لا عطر بعد عروس

سرني ما طرأ على هذه المجلة العريقة من تطور شمل الشكل والإخراج، والمحتوى التحريري العام.. بدأ منذ فترة وجيزة، وظهر بوضوح على هذا العدد المتميز بالمقالات العلمية الهادفة والمتابعات الصحفية الجيدة.
ويأتي ملف "القمر.. علم وأخبار وأشعار وسمر" ليضفي على العدد حلّة أدبية جذّابة.
أشكركم على اهتمامكم وحرصكم على وصول المجلة بانتظام. أمّا عن الاقتراحات والملاحظات التي يطلبها فريق تحرير المجلة، فليس لدي الآن سوى القول: (لا عطر بعد عروس).. متطلعاً إلى المزيد من التقدم والازدهار للمجلة.

عبدالمقصود خوجه
جدة

النشر العربي.. على هامش هاري بوتر

استوقفني في العدد الأخير من مجلتكم موضوع «هاري بوتر، الكتاب والظاهرة». وبعد التحية للأساتذة الذين أعدوا هذا البحث أود أن أبدي الملاحظة التالية:

إن العبر والدلالات التي يمكن استخراجها من الرواج غير المسبوق الذي شهده الإصدار الأخير من هذه الرواية، قد تكون أكبر من أن يحاط بها في الصفحات الست التي خصصتموها للموضوع. فعلى الرغم من بعض الإسقاطات الخجولة لبعض هذه العبر على واقع النشر العربي، فأنا أعتقد أنه كان من الممكن - أو قل من الأفضل - أن تقدموا لنا قراءة عميقة ومفصلة لواقع النشر العربي (للكبار كما للأطفال) على ضوء الحقائق التي كشفتها ظاهرة هاري بوتر والمفاهيم التي قلبتها رأساً على عقب.

إنكم تعرفون ولا شك ما آلت إليه حركة النشر في البلاد العربية، وما آل إليه وضع الكتاب العربي عموماً. فأين المشكلة؟ هل هي في الإعلام؟ أم في نقص عدد القراء؟ أم في مستوى التأليف؟ أم في تدهور الثلاثة معاً؟

الكتاب الوحيد الذي طلبه ابني مني كان «هاري بوتر». واستجبت لطلبه، بحزن. هل تعرفون سبب هذا الحزن؟

مصباح نور الدين
المعرّة، سوريا

هويتنا الثقافية

أشكركم على هديتكم القيّمة (الأعداد الثلاثة الأخيرة من مجلة القافلة الغرّاء) وعلى وضع اسمي في قائمة توزيع المجلة.
وبعد الاطلاع على هذه الأعداد، سرّني مستواها الرفيع، سواءً من حيث العناية بالتحرير، والإخراج، والتبويب، والشكل الفني، أو من حيث جودة البحوث المنشورة فيها.
إني أرحب بكل نشاط ثقافي، يهدف إلى الحفاظ على هويتنا الثقافية، ويعمل على تعزيز ثقتنا بذواتنا، ويستنهض هممنا، لنؤدي دورنا اللائق بنا بين أمم الأرض. أشكر لكم جهودكم الطيبة والسلام عليكم.

د. موفق دعبول
مجمع اللغة العربية - دمشق

ثقافة عربية جادة

تلقيت ببالغ السعادة والامتنان إهداءكم لنا مجلة القافلة بأعدادها الثلاثة الجديدة، وبموضوعاتها المتجددة والمتنوعة التي أصبحت إضافة جديدة وجادة في مسيرة القافلة الثقافية العربية، وهي تخترق هذا الخضم الثقافي العالمي المتنوع، فكم نحن بحاجة إلى ثقافة عربية جادة ومتجددة تعبّر عن الأصالة، ولا تتوانى عن التجديد والابتكار والإبداع.

أ.د. محمد عبدالرحيم كافود
قطر

المواد العلمية

اسمحوا لي، بدءاً، أن أشكركم أنتم وفريق التحرير الكرام أجزل الشكر وأصدقه على تفضلكم الكريم بإهدائي أعداد القافلة، ووضع اسمي على قائمة توزيع المجلة التي يسرني أن أقرأها وأقتنيها، والتي كنت قد اطلّعت على بعض أعدادها حين كانت تصدر باسم "قافلة الزيت".
أما وقد صارت تصدر الآن باسم "القافلة"، فأرجو أن تتقبلوا أصدق التبريكات وأخلصها على إخراجها بحلّتها الجديدة القشيبة، وموضوعاتها المتنوعة القيّمة المفيدة لا سيما ما يتّصل منها بالمواد العلمية المهمة التي تهم الناس في حياتهم العامة، وترفدهم بالمعلومات التي تهمهم، ناهيك عن المقالات الأدبية والثقافية العامة، كل ذلك يضفي على المجلة طابعاً فكرياً وثقافياً لا غنى عنه.
أكرر التحيات والتبريكات والشكر، متمنياً لكم جميعاً مزيداً من التوفيق والنجاح في إصدار "القافلة" ورعايتها والعمل على تطويرها وازدهارها، وأرجو أن نظلّ على اتصال مستمر لما فيه نفعنا جميعاً ونفع "القافلة" الغرّاء.

أ.د. يوسف بكار
جامعة اليرموك - الأردن

أين العدد الثالث؟

تلقيت ببالغ الغبطة والسرور العددين الأول والثاني من مجلتكم المشوقة بحلتها الجديدة الزاهية، وموضوعاتها الغنية في مختلف الآداب والعلوم. لكن مع الأسف، لم تدم سعادتي طويلاً لأنني إلى الآن لم أستلم سوى هذين العددين. فقد انقضى الشهر السابع والثامن من هذا العام دون أن يصلني العدد الجديد.
لذا كتبت إلى سعادتكم هذه الرسالة راجياً منكم التأكيد على الجهة المسؤولة عن التوزيع بتدارك هذا الأمر وإرسال أعداد المجلة إلى عنواني المذكور لديكم بشكل متواصل ودون انقطاع. مع تقديم جزيل شكري وامتناني لكم.

خليل نعسان الجرّاش
حمص - سوريا

القافلة: أحلنا رسالتك إلى قسم الاشتراكات، والتأخير في وصول العدد الثالث قد يكون عائداً إلى البريد. أما إذا تكرر الأمر للعددين الرابع والخامس، فنرجو إشعارنا بذلك.

قافلة القرّاء

القافلة تغيّرت

اسمحي لي أن أقول لك أنك تغيّرت كثيراً، من ناحية الشكل على الأقل. أما المضمون فلست أدري.
في الماضي القريب قبل أن تلبسي حلّتك الجديدة كما يدّعون، كنت أشتاق أشدّ الاشتياق إلى قراءة كل عدد شهري يصدر منك، وأحتفظ به في مكتبتي وأهدي بعض النسخ منه للأهل والأصدقاء.
أما اليوم.. في الحقيقة لا أزال أشتاق وأنتظر صدورك الجديد. ولكن ما إن أراك وأتصفحّك حتى أُصاب بالنفور منك بسبب إخراجكِ الجديد! صورٌ مبعثرة على الصفحات في شكل سيء جداً وعناوين هامشية متداخلة تشتت أفكاري، فألقي بك جانباً ولا أعود إليك للأسف الشديد.
لقد تغيّرتِ، وما عدتِ جذابة كما كنت جذابة في الشكل والمضمون، على الأقل من وجهة نظري المتواضعة. عزيزتي، ليس كل تغيير مناسب للزمان والمكان والإنسان.

جاسم حسن عبدرب النبي
الظهران

المواد الجادّة

اليوم وأنا أقلّب كتبي وبعض المجلات التي وصلت، أطلّ اسم القافلة (العدد الثالث) في ثوبها الجديد. فكم كان العدد حافلاً بالمواد العلمية والأدبية الجادّة التي يعود إليها الباحث لمزيد من المعلومات.
وهنا أقدم التقدير والتهنئة لأسرة تحرير المجلة ومزيداً من النور على طريق المعرفة.

محمد المنصور الشقحاء
الرياض

مساحة للمرأة

يسعدني أن أبث إليكم شيئاً من مشاعري الصادقة تجاه هذه القيمة الفكرية الثقافية التي تزيد فكرنا وعقولنا، ألا وهي القافلة.
يبزغ العدد الرابع، وقد انتهيت الآن فقط من ملف العدد السابق "القهوة والشاي" الطريف الظريف الغني بالمعلومة الجميلة. وعليه فإن الكتابة ستكون بمثل ذلك وأكثر في كل الأعداد اللاحقة من القافلة.
وأود أن أهمس في مسامع الأحبّة من خلالكم. تمنياتنا في أن تخصصوا بعض الصفحات عن أدب الرحلات وما فيه من ثراء فكري واستطلاعي. كما نتمنى في سياق طلب الكثير من الأخوة القرّاء، تخصيص صفحة أو صفحتين لإبداع المرأة السعودية والخليجية شعراً ونثراً، وذلك لأن الرجل يجد ما يكفيه من القنوات لنشر تجاربه وإبداعاته، على عكس المرأة التي قد لا تجد من ذلك ما يكفيها من مجال.
ونريد للقافلة أن تكون رئة تتنفس من خلالها المرأة.

محمد الجلواح
الأحساء

القافلة: شكراً على عاطفتك التي نعتز بها، وملاحظاتك ستكون موضع اهتمام بإذن الله.

شجرة التعليم الجامعي

لقد وجدت مجلتكم الغرّاء القافلة في إحدى المدارس العربية. فوجدت في كل مقالة بحثاً عميقاً قائماً على التوجيه والتوعية. فقرأتها واستفدت منها. وقد كانت "شجرة التعليم الجامعي" أجمل زينة بالنسبة إلي، ولكني للأسف فقدت هذه المجلة.
فأنا أرغب في مواصلة الدراسات العليا في إحدى جامعات المملكة، وليس عندي عناوين هذه الجامعات. فهل يمكنكم نشر عناوين هذه الجامعات وشروط الانتساب إليها في العدد المقبل. كما نرجو أن ترسلوا أعداد مجلتكم إلى "المكتبة العربية" عندنا لما لها من دور مهم في خدمة الإسلام والمسلمين، خاصة هنا في سريلانكا.

عارف بن عبّاس مريكار
بوتالام - سريلانكا

القافلة: تعتز القافلة بنظرتكم إلى دورها في خدمة الثقافة الإسلامية في أي مكان، وستصلكم أعدادها تباعاً إن شاء الله. أما بخصوص عناوين الجامعات وشروط الانتساب إليها فالأمر يتوقف بكل اختصاص على حدة، ولا يمكن لصفحات المجلة أن تتسع لها. نعتقد أن ممثلية المملكة في بلادكم هي أفضل جهة تقصدونها للاستفسار عن ما تريدون.

العولمة

قد تتفقون معي على أهمية منع انتشار المفاهيم السيئة التي راحت تنتشر في عصر العولمة، غير أن هناك ميزات لهذا العصر يجب استثمارها، وهذا من المواضيع الحيوية التي يجب أن تتدفق عبر القافلة. لقد لخّصت لكم موضوع العولمة في شكل ميسّر أرفقه مع هذه الرسالة، أتمنى أن ينال إعجابكم وألا يتم الاعتذار كما هي عادة القافلة معي منذ فترة.

د. إسماعيل عبدالفتاح عبدالكافي

اللغة العربية

للغة العربية مكانة عالية في نفوس أبنائها. فهي كما تعلمون لغة قديمة تضرب جذورها في أعماق التاريخ، ويكفيها فخراً أنها لغة القرآن الكريم. ونظراً لما لمجلتكم من سمعة طيبة، فإني أتمنى منكم تمكيني من المشاركة المستمرة في صفحة اللغة، كما أرجو إرسال المجلة بانتظام إلى صندوق بريدي. ويصاحب هذا الخطاب أحد مؤلفاتي بعنوان "إعراب وبيان لكلمات من القرآن" أرجو التلطّف بقبوله.

عبدالرحمن بن عبدالله أبو دجين
الأفلاج

القافلة: شكراً لتفضلكم بهذه الهدية القيّمة. أعداد المجلة ستصل إلى عنوانك إن شاء الله. كما أننا سنحتفظ بعنوانك للتعاون في مواضيع اللغة العربية عندما تسنح الفرصة.

تعليم الفتاة

تعيش بلادنا الحبيبة هذه الأيام نقلة نوعية وتطبيقية متنوعة في مختلف المجالات، ومنها مجال التعليم وذلك بفضل الله سبحانه وتعالى، ثم بفضل ما تقدمه حكومة خادم الحرمين الشريفين لأبناء هذا الشعب الغالي في كل خطواته. لذلك يسرني إهداءكم نسخة من المؤلف الجديد الذي يتكلم عن جزء من مجهودات خادم الحرمين الشريفين في تعليم الفتاة السعودية خلال عشرين عاماً.

د. زكريا بن يحيى لال
مكة المكرمة

القافلة: شكراً لإهدائكم القيّم الذي سنحتفظ به مرجعاً ثميناً، وبارك الله في جهودكم.

نفحات رمضانية

رمضانُ أقبلَ فلنَكُنْ مـن أهلِـهِ
بصفـاءِ نفسٍ تُبعِـدُ الهفَـواتِ
ونُطِيلُ نَجوى من يُجيبُ دُعاءَنا
بقِيامِ ليلٍ نُحسِنُ السَّجَداتِ
يـا موسِمَ العُبَّادِ فيـكَ تَضَرُّعي
رمضانُ أنتَ مَنارةُ النَّفَحاتِ
أدعوكَ يـا مَـنْ لا يُخَيِّبُ سائـلاً
ألا تُضِلَّ الخَلقَ بالشَّهواتِ
أنْ تُنقِذَ الإخوانَ مـن أهوائِهم
كـي لا تـدومَ مـرارةُ الحسَراتِ
أنْ نهجُرَ الأضغانَ فيما بيننا
أنْ نستحي من موقِفِ الشُّبُهاتِ
أنْ نجعَلَ القُرآنَ دُستوراً لنا
كـي لا نُعانيَ مُجْمَلَ النَّقَماتِ
ربِّي دعوتُكَ أنْ تكونَ مقالتي
قدْ وافَقَتْ عَمَلي وفي الخَلواتِ
ربِّي تجاوزْ عن ذُنوبِ مُقَصِّرٍ
يَرجُوكَ أنْ تَعفو عنِ الزَّلاتِ
أَمَلٌ بِفَضْلِ الله سوفَ يَقُودنا
للخيرِ حيثُ نَصِيرُ في الجَنَّاتِ

محمد عبدالسلام الباشا
أدلب - سوريا

إلى أصدقائنا الجدد..

السادة: الدكتور سليمان بن حمّاد الخويطر، الرياض - محمد مكاوي، مكة المكرمة - حسن عبدالله الأحمد، الهفوف - الدكتور محمد بن عتيق الدوسري، الرياض - الدكتور محمد يحيى الخرّاط، كندا - ناصر بن سالم الحسين، سلطنة عُمان - علي جواد عبدالله الرمضان، الدمام - عامر الحاج جاسم، سوريا - المهندس خالد عناترة، الأردن - خليل نعسان الجرّاش، سوريا.

تعتز القافلة برسائلكم وبما حوته من عواطف نبيلة، وقد أحيلت عناوينكم أو التعديلات التي طرأت عليها إلى قسم الاشتراكات، وستصلكم أعداد القافلة بانتظام إن شاء الله.

نعمل لغدنا

الابتكار.. مرآتنا

لم يكن ابتكار المرآة على يد الإنسان القديم مجرد صدفة، بل كان نتيجة بحث طويل عن وسيلة أخرى غير الماء؛ لرؤية صورته من خلالها. مثل الماء والمرآة نستطيع أن نعتبر الابتكار انعكاس لنا، وبالتالي يمكن التعامل معه على أنه وسيلة تعبّر عن صورتنا الحقيقية في عالم اليوم. الإنسان إذن يمكن أن يرى صورته من خلال «ابتكار» يحققه، ومن الممكن تعميم هذا المفهوم ليستقر في أذهاننا.

إن هذه المرآة الخاصة تعكس بصدق واقع تقدمنا العلمي والحضاري، وتقدم صورة الثمار الحقيقية للاستثمار في العنصر البشري وطاقاته الفكرية والمادية، وتحدد مدى صلابة الأرض التي نقف عليها في كافة المجالات - ومن ضمنها الصناعة - التي تشهد تنافساً حاداً يكون السبق فيه للمبتكرين فقط.

ومهما تحقق من الابتكارات عدداً ونوعاً، فإن الطريق أمام المبتكرين يزداد طولاً والمجال رحابة بسبب ما يشهده الاقتصاد العالمي من تغيرات مترابطة ومعقدة، وتوسع آفاق العلوم في كافة المجالات.

ليس الابتكار غاية بحد ذاته، بل وسيلة تسمح لنا بالمشاركة الفاعلة في تقدم البشرية جمعاء، إضافة إلى تحقيق التفوق في المنافسة التي صارت شرطاً من شروط التقدم.

الابتكار والمبتكرون مرآة بحاجة ماسة إلى صيانة دائمة حتى لا يصيبها خدش أو يعتريها غبار قد يحجب الصورة الواضحة. وهذه المرآة يجب أن تبقى دائماً في الموقع المناسب في قراراتنا ومكاتبنا، لأنها وسيلتنا إلى التغيير نحو الأفضل والتميز والمنافسة.

وفي الوقت نفسه يجب الحذر من التوقف طويلاً عند رؤية الإنجازات. فعندما يكون الابتكار غاية بحد ذاته ويضع لنفسه حدوداً سيكتفي الإنسان بالنظر إلى الماء الآسن ليرى صورته.

مصطفى محمد المهدي

25 سنة على مسابقة رسوم الأطفال

حكاية كنز.. للكبار

من الطاقة تولد الطاقات.. وهذا هو بالضبط ما عنيت به أرامكو السعودية في نشاطاتها ذات الاتصال المباشر وغير المباشر بالمجتمع. مسابقة رسوم الأطفال التي تنظمها الشركة، والتي بلغت هذا العام 25 سنة من عمرها، أفرزت الكثير من المواهب الفنية التشكيلية، وما زالت تسير بنفس القدر من الاهتمام والحماس. الزميل عبود عطية ينقل في هذا الموضوع حكاية كنوز الصغار الفنية القابعة تحت مظلة أرامكو السعودية.



لا نعرف مدى التفاؤل الذي تطلّع به المعنيون إلى مسابقة رسوم الأطفال عندما أطلقتها أرامكو السعودية قبل ربع قرن. ولا نعرف ما الذي دار في أذهانهم آنذاك من توقعات حول النتائج المحتملة لهذه المسابقة واحتمالات استمراريتها وإلى متى؟ أما اليوم فصرنا نعرف الحصيلة المباشرة لجهود آلاف الأطفال على مدى خمس وعشرين سنة والمتمثلة في عشرات الآلاف من اللوحات الجميلة المحفوظة في الشركة.

إنها ليست مسابقة لرسوم الأطفال فحسب، بل محطة مهمة لا بدّ من التوقف أمامها في مسيرة الفن التشكيلي في المملكة، كما أنها أيضاً "حكاية كنز" يتساءل من يكتشفه عن طريقة التصرف فيه.

فأول ما يستوقف المرء في هذه المسابقة هو استمراريتها. إذ أن النشاطات الثقافية العربية عموماً تعاني من قصر أعمارها. وفي الفن التشكيلي تصبح مشاريع النشاطات الدورية في مهب الرياح الموسمية. فتقام المعارض والمسابقات هنا وهناك ترافقها الوعود بأنها ستكون سنوية أو كل سنتين.. ثم، وفجأة بعد بضع محاولات، ينتهي كل شيء ببيان اعتذار حيناً، ومن دون بيان في معظم الأحيان. وعندما تتعلق هذه النشاطات الفنية بالأطفال يصل الأمر ببعضها إلى حدود عدم المبالاة، طالما أن هؤلاء لا صوت لهم. وهذا ما يجعل من استمرارية مسابقة أرامكو السعودية لرسوم الأطفال على مدى ربع قرن، وسعيها في السنوات الأخيرة إلى تجديد شبابها أمراً نادراً، ليس فقط على صعيد النشاطات الخاصة بالأطفال في المملكة، بل أيضاً ضمن خريطة النشاطات الفنية في الوطن العربي عموماً.

فكيف قامت هذه المسابقة؟ ولماذا؟ وما الذي أمّن لها هذا العمر المديد؟ وما هي حصيلتها؟

البداية والنضوج

كانت أرامكو السعودية أول شركة في المملكة تقيم مثل هذا النشاط الخاص بالأطفال، وتتحمل تكلفته ومتابعته والسهر عليه. وأهدافه ثلاثة متداخلة ببعضها كما يقول بعض المسؤولين الذين أشرفوا على المسابقة:

أولاً: تحقيق إضافة قيّمة على الدور التربوي الذي تقوم به الشركة، وما بناء المدارس مثلاً إلا حلقة من حلقاته.

ثانياً: تأصيل اتصال الشركة بالمجتمع من خلال شريحة الأطفال وأسرهم.

ثالثاً: تشجيع المواهب الفنية عند الأطفال في المملكة سواء أكانوا سعوديين أم مقيمين.

وفي حين لا يرى الكثيرون في ممارسة الأطفال للرسم أكثر من ملء وقت الفراغ بنشاط "غير ضار".. رفع المسؤولون عن هذه المسابقة سقف الجدية في التعامل معها حتى أقصى حد ممكن.

الفنانة التشكيلية المعروفة منيرة الموصلي التي رافقت هذه المسابقة منذ بداياتها، وكانت ضمن لجنة الفرز التحكيمية لمدة خمس سنوات، ومن ثم ترأست هذه اللجنة لمدة ست سنوات تروي الكثير مما يؤكد هذه الجدية في التعامل مع المسابقة. فتقول إن الأسس التي قامت عليها هذه المسابقة هي نفسها التي تقوم عليها المسابقات العالمية مثل تلك التي تنظمها اليونيسكو مثلاً. وفي كل عام تتألف لجنة تحكيمية من الفنانين، يجب أن يكون عدد أعضائها مفرداً لاعتماد التصويت في حال حصول خلاف (كان هذا العدد في السنوات الأولى ثلاثة ثم رفع إلى خمسة) ويرأس اللجنة شخص تكمن مهمته في إطلاع الأعضاء على الشروط الواجب اتباعها في الفرز ويراقب سير العمل من دون تدخل في التحكيم.

ولتلافي تأثر أعضاء لجنة التحكيم بعلاقاتهم الشخصية، تتم تغطية أسماء الأطفال أصحاب الرسوم. كما يتم استبعاد كل رسم يبدو عليه أنه ليس فعلاً من رسم الأطفال بل من ذويهم أو أساتذتهم. وتوضح موصلي أنه في إحدى السنوات ألغيت عملية الفرز برمتها،

وأعيدت من أولها مرة ثانية لأن بعض الرسوم لم يكن فعلاً من صنع الأطفال.

والواقع أن الجدية في التعامل مع هذه المسابقة أشبه بكرة يتقاذفها المشرفون على المسابقة من جهة والمدارس وذوي الأطفال من جهة أخرى فيرتفع مستوى أداء الطرفين لترتفع بذلك قيمة المسابقة ككل.

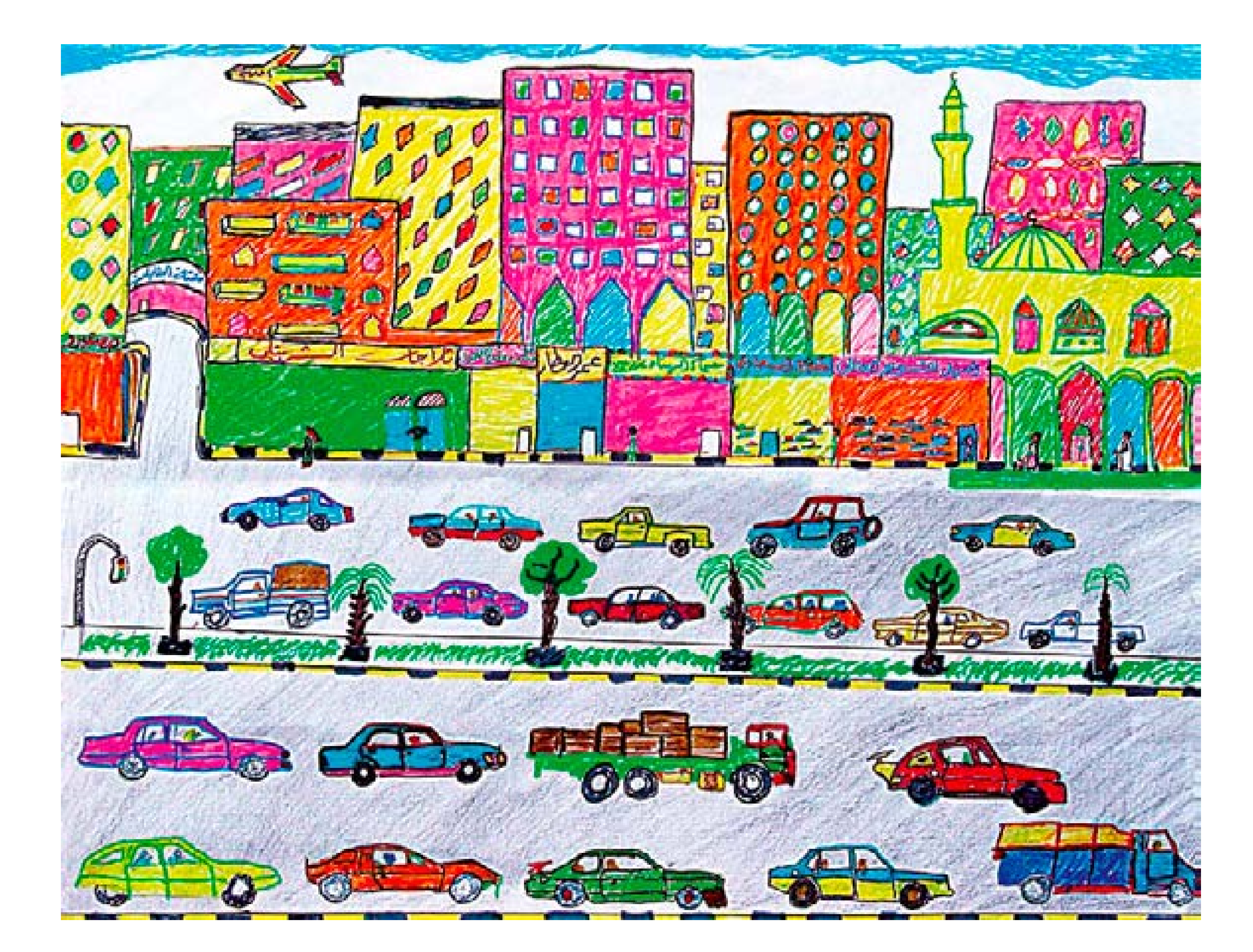
وتفيد مراجع المسابقة أن المدارس صارت تنتظر الإعلان عنها وتتهيأ لها سلفاً. وتتصل بالشركة للاستفسار عن سبب التأخير عندما يحصل. وبعضها يرسل رسوم الأطفال المشاركين موضبة بعناية في صناديق خشبية وكأنها لوحات لكبار الفنانين. كما أن الكثير من الأطفال الذين لم يحالفهم الحظ في سنة معينة، يعاودون الاشتراك في المسابقة في السنة التالية، وما بعدها.. فقد صار هناك اعتراف واضح بأهمية هذه المسابقة، وسعي حثيث إلى الفوز بها.

وهكذا، بعدما تراوح عدد الأطفال المشاركين في المسابقة خلال سنواتها الأولى بين الألف والألف وخمسمائة، راح هذا العدد يرتفع بسرعة حتى وصل في بعض السنوات إلى ما يزيد على السبعة آلاف..!! وفي المقابل، بعد ما كان عدد الجوائز خمساً وثلاثين جائزة في السنوات الأولى، راح يرتفع بدوره حتى وصل حالياً إلى مائتين وخمسين جائزة إضافة إلى خمسين جائزة خاصة بالأطفال ذوي الاحتياجات الخاصة، بعدما كبرت مشاركتهم في الآونة الأخيرة، وبعد تَنَبُّه لجنة التحكيم إلى وجوب أخذ أوضاعهم الخاصة بعين الاعتبار.

إلى ذلك، لا بدّ من الإشارة أيضاً إلى أن الأعمال المشاركة في المسابقة تقسّم إلى ثلاث فئات عمرية هي: من 5 إلى 8 سنوات، من 9 إلى 11 سنة، ومن 12 إلى 14 سنة، ويراعي أيضاً التوزّع ضمن كل شريحة عمرية إلى المناطق الخمس: الشرقية، الغربية، الوسطى، الجنوبية، الشمالية، بحيث تتوزع الجوائز على كافة أرجاء المملكة. والغاية من ذلك الحث على أكبر قدر من المشاركة في المناطق البعيدة عن موقع الشركة فلا تكون المسافات عامل فتور أو إحباط.

شهادة شاهد

لا يمكن لمسابقة أو أي نشاط تشجيعي آخر أن يدفع بالأطفال إلى احتراف الرسم لاحقاً، فللأمر شروطه الكثيرة التي يعرفها الجميع، وأهمها امتلاك الموهبة والشخصية الضرورية لذلك. ولكن الدور الذي لعبته



المسابقة في التأثير الإيجابي على الموهوبين منهم يبدو واضحاً في حديث الفنانة التشكيلية حميدة سنان التي تقول: "بفضل تشجيع والدتي ومدرستي بدأت رحلتي مع اللون والريشة عندما أرسلت لوحتين للاشتراك في مسابقة أرامكو السعودية لرسوم الأطفال في سنتها الأولى أي سنة 1399هـ. فحصلت على الجائزة. وكان للأمر وقعاً كبيراً على الطفلة التي كنتها آنذاك، وهذا ما دفعني إلى المتابعة والانطلاق بثقة إلى ممارسة الرسم والحضور كفنانة مشاركة في النشاطات المحلية. ثم تطورت الأمور إلى مستوى المعارض الشخصية، ثم المعارض الخليجية والعربية عموماً.. كما كان للجائزة التي حصلت عليها آنذاك أثر واضح على علاقتي بأهلي وأقاربي ومعارفي، إذ بدا عليهم جميعاً الاعتزاز بموهبتي وأدى ذلك إلى مزيد من تشجيعي للمضي قدماً".

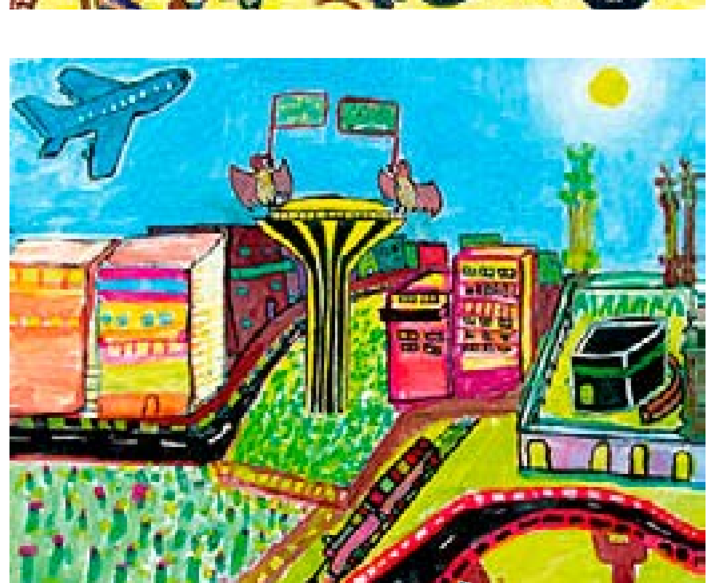
وتضيف الفنانة سنان التي حازت لاحقاً على عدة جوائز وطنية وعربية: "على الرغم من كثرة الجوائز التي أعتز بها، تبقى جائزة مسابقة الأطفال تلك مفخرتي لأنها أول الفرح". واللافت أنه بمرور السنوات، ونضوج الموهبة واستمرارية المسابقة، تحولت حميدة سنان من طفلة فائزة إلى واحدة من أعضاء لجنة التحكيم.



النهضة والعمران

رسم الأطفال أوجه النهضة العمرانية ومعالمها بدءاً بشوارع الرياض وأبراجها من دون إغفال الطائرات المحلقة في سمائها وصولاً إلى جسر البحرين. وإذا ارتأى بعضهم دمج مدينتي الرياض ومكة المكرمة في لوحة واحدة، فهو حر..







رسوم فائزة وأخرى.. فائزة

تصبح الرسوم الفائزة في المسابقة ملكاً للشركة، أو قل من أغلى مقتنياتها، بدليل تعاملها مع هذه الرسوم وكأنها تحف فنية حقيقية. يراها المرء تزيّن أروقة بعض أهم المباني. وبعضها تحوّل إلى بطاقات معايدة اعتمدها كبار المسؤولين في الشركة. كما أن صور هذه الرسوم معروضة على شبكة "الإنترانت" لمن يشاء من الموظفين استخدامها كبطاقة معايدة أو ما شابه.. ولا تخرج هذه اللوحات من مقرها الدائم إلا للمشاركة المؤقتة في معارض لرسوم الأطفال هنا أو هناك وبعض هذه المعارض عالمي الطابع..

ليس في الأمر ما يدعو إلى الاستغراب، كما أنه ليس مستغرباً أن تحتفظ الشركة، وبالإصرار والعناية نفسيهما تقريباً، بالرسوم غير الفائزة.

الفارق الوحيد بين الفئتين هو أن بعض الأعمال غير الفائزة يمكنه أن يخرج من المستودع إلى جهة أخرى شرط أن يكون هناك تأكيد على أنه سيعامل باحترام. ولهذا خرجت بعض الرسوم فعلاً من هذه الفئة لتزين جدران بعض المؤسسات والمباني الحكومية أو العامة ومن ضمنها سفارتي المملكة في لندن وواشنطن وأجنحة الأطفال في بعض المستشفيات.

ولكن، ألا يعني هذا أن من بين الرسوم غير الفائزة ما يمكن اعتباره في حكم الفائز؟

توافق الفنانة موصلي على الملاحظة القائلة إن هناك رسوماً جميلة جداً لم تفز بجوائز.. وربما كان بعضها لا يقلّ جمالاً وأهمية عن الأعمال الفائزة. وتفسر الأمر قائلة: "إن محدودية عدد الجوائز (حتى ولو كان مرتفعاً كرقم مطلق) مقارنة بأعداد الرسوم المشتركة في المسابقة يحتم حصر الفائزين بعدد معين. كما أن أعضاء لجنة التحكيم قد يميلون إلى موضوع أو أسلوب معين أكثر من غيره.. ولكن هذا لا يعني أبداً أن هناك ظلماً متعمداً أو استهتاراً في اختيار الأعمال الفائزة". وتضيف: "أعتقد أن الجوائز في الماضي كانت منصفة أكثر من اليوم، لأن عدد الأعمال المشاركة كان أقل، والفروقات ما بين الرسوم المختلفة كانت أكبر وأوضح. أما مع ازدياد عدد المشاركين، وارتفاع المستوى عموماً فقد أصبحت مهمة التحكيم أصعب من السابق".

حكاية كنز

عندما طلبنا من المسؤول عن أحد مستودعات الشركة أن يدلنا على موضع الرسوم القديمة المشاركة في المسابقة، توجه بنا إلى مستودع كبير رُصّت فيه عشرات وعشرات الحقائب البلاستيكية الكبيرة. وعلى كل حقيبة ملصق يُشير إلى تاريخ المسابقة وعبارة "فائزة" أو "غير فائزة".. الكم وحده مثير. والعد بدقة شبه مستحيل. علينا أن نقدّر الكمية تقديراً. فإذا كان متوسط عدد الأطفال المشاركين في كل سنة حوالي الأربعة آلاف.. يصبح مجموع المتراكم أمامنا من رسوم – وهو حصيلة 25 عاماً – حوالي المئة ألف رسمة!!

نفتح بعض هذه الحقائب عشوائياً. نتفحص بعض الرسوم بسرعة، فتزداد الدهشة.. لم يعد يهمنا إن كانت هذه الرسوم فائزة أم لا.. فالكثير منها يستحق فعلاً أن يوضع في إطار ليزين جداراً مضاءً ويمتّع العين..

نختار عينة عشوائية من مختلف السنوات، فائزة أم غير فائزة لا فرق ونقلب المئات منها بشيء من التأني والتأمل..

ماذا يرسم الأطفال؟

قبل الدخول في تفاصيل العيّنة التي أمامنا لا بدّ من الإشارة العامة إلى ما هية فن الأطفال وخصوصيته.

فن الأطفال هو فن مرحلي يبدأ ببداية إدراك الطفل للعالم المحيط به، وينتهي ببداية نضوج عقله. أي ما بين سن الخامسة والرابعة عشرة تقريباً. في هذه الفترة يرسم الطفل المواضيع المختلفة بما يعرفه عنها، لا كما تبدو للعين أو لآلة التصوير. فهو عندما يرسم البحر مثلاً نراه يرسم الأسماك التي في أعماقه أيضاً، ولا يكتفي برسم صفحة الماء.. وفن الأطفال يتحلى بجرأة لا حدّ لها، وبصدق في التعبير؛ طالما أنه لا يشعر بوجوب مراعاة أي مؤثر أو عامل ضغط خارجي.. وبالتالي فإنه فائق الأهمية في الكشف عن إدراك الطفل لعالمه وما يحبه فيه.

الرياضة حتماً..

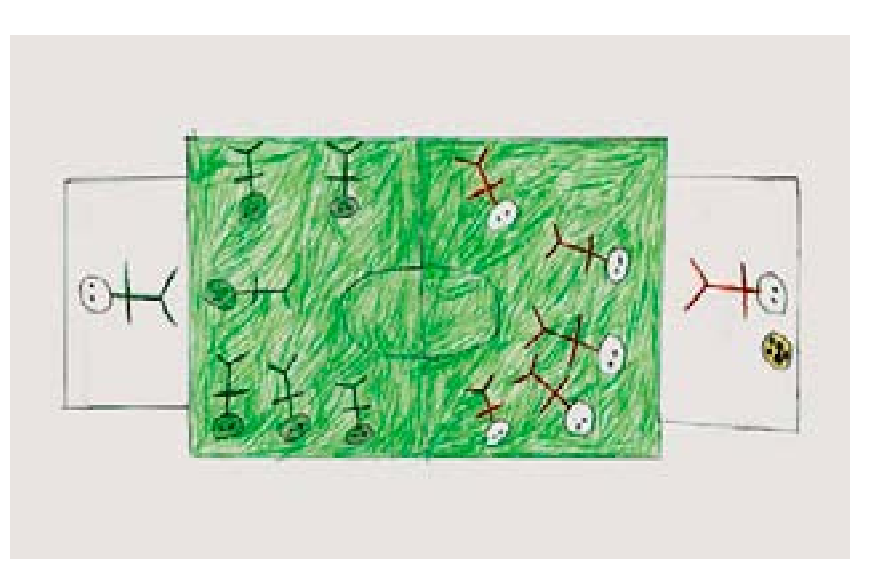
في رسوم سباقات الدراجات والركض يتجلى التركيز العفوي على الحركة.. أما في كرة القدم وهي الأغلى على قلوب الأطفال، فتختلف اللغة الجمالية. إذ يصبح هدف الطفل إبراز أكبر قدر ممكن من المشهد. يرسم اللاعب وجهاً لوجه، أما الملاعب فتبدو وكأنّ التطلع إليها يتم من الطائرة

حتى سنوات قليلة خلت، كانت المسابقة من دون موضوع محدد، فالأطفال كانوا أحراراً في رسم ما يشاءون مما يعتقدونه يستحق الرسم. وللوهلة الأولى، يبدو أنه لا يمكن حصر المواضيع التي رسمها هؤلاء. فهي تشمل كل شيء يتشكّل منه محيطهم الذي يعرفونه أو يرونه أو يحبونه أو حتى سمعوا عنه وترك في نفوسهم انطباعاً قوياً. ولكن بتقليب المئات والمئات من هذه الرسوم يبدو واضحاً أن بعض المواضيع يطغى على غيره، تارة في فترة معينة، وتارة على امتداد عدة سنوات..

هناك تفسير صحيح لهذا التشابه في المواضيع يقول أن بعض أساتذة الرسم في المدارس كانوا يوحدّون الموضوع لتلاميذهم فيدعونهم إلى رسم كذا أو كذا والتركيز عليه؛ كي يتمكنوا هم من المقارنة والاختيار الأولي. ولكن هذا التفسير يبقى جزئياً. إذ أن واحدة من أكثر المسابقات التي حملت بشكل عفوي شبه توحيد للموضوع كانت تلك العائدة إلى سنة 1991م، إذ اصطبغت وللأسف الشديد، بطغيان موضوع الحرب والعنف والحزن بسبب حرب الخليج الثانية التي دارت رحاها آنذاك. ومثل هذا الموضوع هو حتماً اختيار غير مدرسي، بل من اختيار الأطفال أنفسهم الذين عرفوا ما هو "الأهم" وما يجب أن يرسموه آنذاك، وعلى الأرجح ليقولوا ما عندهم من خلال الرسم الذي جاء عموماً غاضباً، حزيناً، ومباشراً جداً.

هذه الومضة المحزنة هي لحسن الحظ الوحيدة من نوعها في تاريخ المسابقة. ولكنها تؤكد وجود وعي مشترك عند الأطفال في المملكة، وتؤكد صدقيته في اختيار الموضوع وقيمة هذا الموضوع بالنسبة إليه، وما يمكن أن يكشف عنه.

رسم الأطفال أنفسهم، ورسموا أيضاً ذويهم، ومحيطهم المباشر، والمدن والحدائق، والحياة الاجتماعية، والبيئة والتراث.. ومهما كان المستوى الجمالي للرسم فإن التمعن فيه يسمح لخيال المشاهد أن يلتحم بخيال الطفل ويدفعه إلى التكهن في ما كان







يدور في ذهن هذا الأخير عندما أمسك بأقلام التلوين وراح يرسم هذا الشيء المهم في حياته.

المؤرخون الصغار

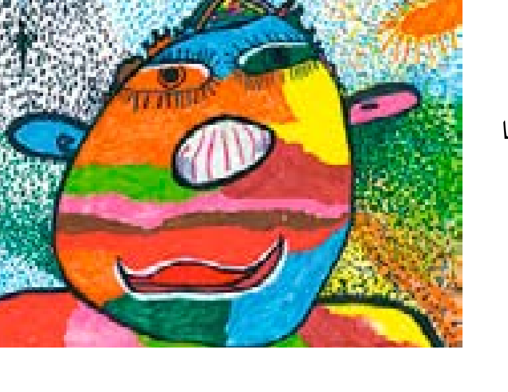
قد يكون الشيء المهم عند هذا غيره عند ذاك. ولكن تحالف الصدق في التعبير والمجال الرحب الذي يفسحه تكرار المسابقة سنوياً أدى إلى تراكم مجموعة عملاقة من الأعمال الفنية التي سجلت ما تشكل منه الحياة الاجتماعية في المملكة خلال ربع قرن، بما فيها من قيم وتقاليد ومعالم مادية ملموسة ومتغيرات ومنجزات نهضوية.

فقد رسم الأطفال تراثهم الثقافي والروحي، من خلال ما يرونه منه. ويتراوح ما بين المساجد القديمة في القرى، والمبخرة التي تزيّن منازلهم، مروراً بالحياة في البادية وخيامها.. عبّروا بصدق عن هويتهم الروحية فرسموا المصلّين في المساجد، وأصرّ الكثيرون منهم على كتابة اسم الجلالة حتى في لوحات من ذوات المواضيع غير الدينية. رسموا الكثير من ملاعب كرة القدم التي يحبونها. كما رسموا الاحتفالات الاجتماعية، والمدارس، وباقات الورد ومناظر البيئة الطبيعية، وخاصة البحرية منها والتي تجذب خيالهم أكثر من غيرها..

ولأن الأمور من حولهم في عالم الكبار كانت تتغير وتتطور وتصل هذه المتغيرات إلى مسامعهم نراهم يسجلون هذه المتغيرات بالألوان.

توسعة الحرمين الشريفين، بناء جسر البحرين، المصانع، ناطحات السحاب في المدن.. أصبحت كلها مواضيع رسوم.

معظم هذه المواضيع رسم من قبل أطفال شاهدوا الموضوع بالعين المجردة. وهذا أمر يمكن للناقد أن يتأكد منه أمام كل رسم على حدة. ولكن هناك رسوماً كثيرة أنجزها الأطفال بناءً على السمع



وللأهمية فقط، مثل الرحلة الفضائية التي قام بها الأمير سلطان بن سلمان إلى الفضاء. وصولاً إلى القضايا القومية كقضية فلسطين وانتفاضة أهلها، فنرى المسجد الأقصى موضوعاً في العشرات منها.

ولعل أكبر مجموعتين تقدمان "جردة" شبه شاملة لتاريخ المملكة المعاصر كما "يرسمه" الصغار هما المجموعتان اللتان رسمتا لمناسبتي ذكرى مرور

مئة سنة على تأسيس المملكة، وذكرى مرور عشرين عاماً على تولي خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبدالعزيز مقاليد الحكم، والمجموعة الثانية كانت قد صدرت في كتاب أنيق ضمّ مجموعة الرسوم الفائزة، والتي تكشف مختلف الزوايا التي يتطلع منها الأطفال إلى بلدهم، ولكنها تشكل في النهاية سجلاً واحداً لموضوع واحد.

وماذا بعد؟

التحديات الجديدة

على مدى ربع قرن، سارت أمور المسابقة على ما يرام. ولكن مسيرة أي نشاط ثقافي لربع قرن تحمل في طياتها مخاطر الترهّل وفقدان البريق. القيّمون على المسابقة يبدون واعين إلى هذه المسألة. فظهرت في السنوات الأخيرة بعض محاولات تطوير معطيات المسابقة ونظامها.

فقد انفتحت المسابقة في سنتها الخامسة والعشرين على الرسم الإلكتروني المنفذ على شاشة الكومبيوتر. الأمر الذي سيأتي لاحقاً بأعداد متزايدة من رسوم مختلفة، ويفتح المجال أمام الأطفال لاستخدام أدوات تعبير جديدة.

كما أن الذكرى المئوية لتأسيس المملكة كانت المناسبة الأولى التي تحدد فيها موضوع المسابقة. ومنذ ذلك الحين اعتمد القيّمون على المسابقة مواضيع توعوية مثل ترشيد استهلاك المياه والطاقة، والعشرينية، أما شعار المسابقة الخامسة والعشرين فقد كان "إملأوا مملكتنا بالألوان"، ولكن ماذا عن مستقبل المسابقة؟

في شهر يوليو من هذا العام اجتمع أعضاء لجنة التحكيم في ندوة أعقبت انتهاء أعمالهم لإبداء مجموعة ملاحظات تتعلق ببعض جوانب المسابقة وآفاق تطويرها. فقد عبّر بعض أعضاء اللجنة عن اعتراضهم على فكرة تحديد موضوع للمسابقة بالقول إن الغاية منها هي تنمية الروح الإبداعية عند الطفل، وهذا لا يتم إلا بترك حرية الاختيار

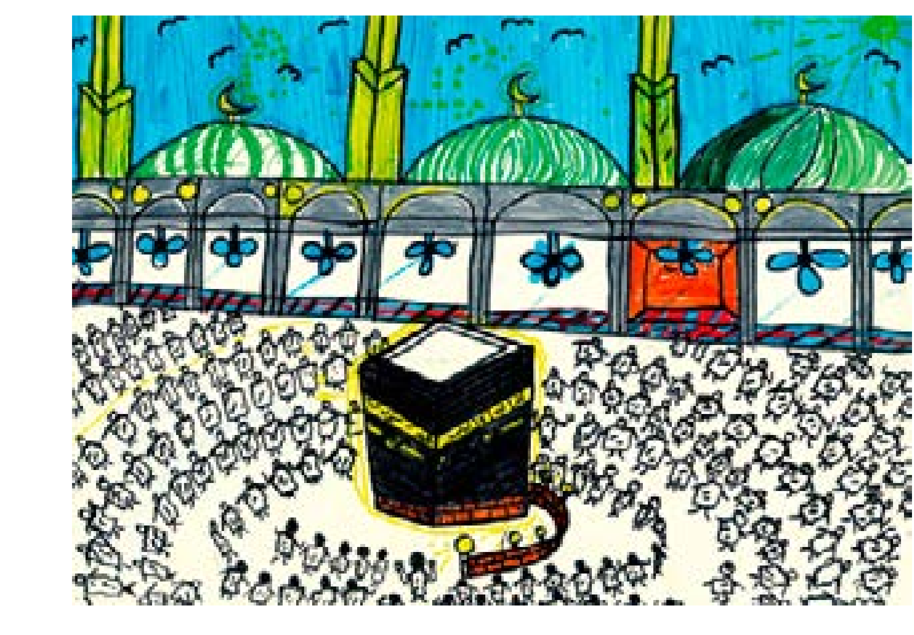






أولاد وبنات

تختلف رسوم الأولاد عن رسوم البنات موضوعاً وشكلاً كما هو الحال مثلاً في رسم يمثل مجموعة طائرات لُوّن معظمها بألوان فرق كرة القدم في بلدانها ويكشف عن صخب صبياني، مقارنة برقة إنثوية واضحة في رسم مجموعة فتيات يرقصن









ختاماً.. البدء في البادية

المشاريع العمرانية الكبرى مثل توسعة الحرمين الشريفين، القضايا القومية مثل قضية فلسطين ممثلة في المسجد الأقصى، الأحداث العلمية مثل رحلة الأمير سلطان بن سلمان، وغير ذلك الكثير مع تركيز على المواضيع التراثية المستوحاة من الحياة في البادية

أمامه ليرسم ما يشاء وكيفما يشاء. وإذا كان من الجيد أن تكون المناسبات الوطنية الكبرى موضوعات لمسابقات في فن الرسم، فإن ذلك يجب أن يتم من خلال مسابقة مستقلة عن المسابقة السنوية.

إلى ذلك نبّه بعض أعضاء لجنة التحكيم إلى أن الموضوع المحدد للمسابقة يجب أن يكون واضحاً ولا يترك مجالاً للتفسيرات المختلفة. وضرب بعضهم مثلاً بشعار المسابقة الأخيرة "إملأوا مملكتنا بالألوان" قائلاً إن بعض الأساتذة في المدارس فهمه على أنه رسم لخريطة المملكة وتلوينها..!!

أما المدافعون عن تحديد الموضوع فيقولون إن هناك مجالاً رحباً أمام الأطفال للتعبير عن الموضوع الواحد. كما أن الغاية من المسابقة تنمية الوعي عند الطفل. وتحديد الموضوع يدفعه إلى التفكير والبحث المفيد والمركز في مجال محدد.

ومن النقاط التي أثيرت في الندوة أيضاً عدم التكافؤ في تجاوب المدارس مع بعضها البعض. فبعض المدارس يرسل عشرات الرسوم، وبعضها يغيب عن المسابقة غياباً تاماً. كما لفت بعضهم إلى تدخل الأساتذة في رسوم الأطفال والذي يبدو أنه وصل إلى مستويات تدق جرس الإنذار على الرغم من الاستبعاد الصارم لكل عمل يظهر عليه تدخل الأساتذة أو ذوي الأطفال.

ومن الاقتراحات أيضاً ما يتعلق بنوعية الجوائز، التي تكون أحياناً موفقة وأحياناً لا تكون كذلك، غير أن شبه إجماع بوجوب تقديم جائزة تذكارية تحمل اسم الشركة وتاريخ المسابقة بحيث تبقى عند المشارك الفائز تذكاراً لمدى العمر. وعبّرت الفنانة سنان عن الأمر بشكل مؤثر عندما قالت إنها تتمنى لو أعطيت آنذاك أي مجسّم صغير عليه اسم المسابقة والتاريخ ليبقى عندها تذكاراً معبراً عن نجاحها الأول..

على صعيد آخر، وبعيداً عن تنظيم المسابقة، يكمن التحدي الأكبر في التعامل مع حصيلتها. هذا التحدي لم يكن على بال أحد قبل 25 سنة ولا حتى في السنوات الأولى، ويتلخص بالسؤال البسيط: "ما العمل بهذا الكم المتراكم من عشرات آلاف اللوحات؟".

عددياً لا تشكل اللوحات الفائزة المؤطرة التي تزيّن هذا المبنى أو ذاك أية نسبة مئوية مهمة من مجموع اللوحات التي لا تزال تقبع في المستودع، وتتضخم سنة بعد سنة. ويكفي المرء أن يطلّع على بعضها ليدرك كم من الآلاف يستحق أن يخرج إلى النور. ولكن كيف؟ وإلى أين؟

– هل يقام لها معرض خاص ودائم في مبنى مستقل؟

– هل يمكن بيع بعضها على أن يذهب ريعه لتغذية نشاط اجتماعي يستفيد منه الأطفال؟

– هل يمكن أن تزوّد بها المؤسسات الراغبة لتزيين مبانيها بها؟

لا نعرف، ولسنا هنا في موقع يسمح لنا بإعطاء الجواب أو التقدم باقتراح محدد. ما نعرفه، هو أن جيل الرسوم هذا يشكّل كنزاً فنياً حقيقياً. ويمكن أن يشكل مادة ثمينة للدراسة يستفيد منها علماء التربية والنفس والاجتماع وكل المعنيين بثقافة الطفل في المملكة.

جميع الرسوم المختارة لهذا المقال هي من الرسوم المشاركة في مسابقة أرامكو السعودية لرسوم الأطفال





بدءاً بإعلان السنة الأولى للمسابقة وحتى إعلان عيدها الخامس والعشرين، آلاف اللوحات يملأ بها أطفال المملكة دنيانا بالألوان

تسعير الزيت الخام.. لماذا لا يستقر على حال؟

من يتمعن في البرامج الاقتصادية على شاشات التلفزيون، يلاحظ أن أسعار الزيت الخام لا تستقر على حال، فهي دائمة التقلّب صعوداً وهبوطاً، مثل مؤشرات أسواق الأسهم والأوراق المالية والمعادن الثمينة. وأحياناً تكون هذه التقلّبات كبيرة فتحتل أخبارها مساحات بارزة في صحف اليوم التالي، ويسعى الاختصاصيون إلى تحليل أسبابها.
فما الذي يحدد سعر الزيت الخام؟ ولماذا يتبدل خلال دقائق أو لحظات، فيرتفع قليلاً، ثم يرتفع أكثر أو يهبط..؟ أحد العاملين في الشؤون النفطية في إدارة التخطيط العام في أرامكو السعودية، ياسر مفتي، يسلّط الضوء هنا على جوانب مختلفة تلعب مجتمعة دورها في تحديد سعر النفط الخام صعوداً وهبوطاً، ويشرح لنا معاني مفردات تتعلق بسوق الزيت نسمعها يومياً من دون أن نعرف ما تعنيه بالضبط.

الزيت سلعة استراتيجية مهمة للغاية، يدخل في صميم النشاط الاقتصادي أينما كان في العالم، وعليه تقوم حياة الإنسان في العصر الحديث. وما بين إنتاج الزيت واستهلاكه، تحتل تجارته مكانة بالغة الأهمية بالنسبة إلى منتجيه ومستهلكيه معاً. ورغم أن أسعار الزيت مرتبطة أساساً بالعرض والطلب، إلا أن هناك نظم مرنة للأسعار تستجيب لمتطلبات السوق وترتبط بأنواعه المختلفة ومناطق إنتاجه.

مؤثرات مهمة

لمعرفة طبيعة صناعة الزيت بطريقة أفضل، علينا أن نتطرق أولاً إلى بعض السمات الخاصة بها، ولنبدأ هنا بتكاليف الاستثمارفي التنقيب عنه وإنتاجه، فلا شك أن لهذه التكاليف دوراً في تحديد سعر الزيت في نفس الوقت الذي يلعب فيه هذا السعر دوراً مهماً في الاتجاه للاستثمار في التنقيب عنه وإنتاجه. ولمعرفة الحجم الهائل لهذه الاستثمارات بإمكاننا النظر إلى تقرير التنقيب والإنتاج السنوي لسالمون سميث بارني، والذي تناول 243 شركة زيت وغاز، أن ميزانية التنقيب والإنتاج معاً بلغت 112 بليون دولار في عام 2002م فقط. وهذا الرقم الضخم يتعلق بقطاع واحد في صناعة الزيت، ولا يشمل المبالغ الطائلة التي تصرف في قطاعات أخرى أساسية في هذه الصناعة مثل التكرير والتوزيع. وتزداد ضخامة هذه المبالغ وضوحاً عندما نعرف أنها تصرف قبل بضعة أعوام من بدء إنتاج الزيت وبيعه.

> التجارة الاسمية رفعت مجموع الصفقات اليومية في الأسواق إلى مستويات أعلى بكثير من إجمالي كمية الزيت الخام المنتج في جميع أنحاء العالم

وهناك استثمارات ضخمة في مجال الأنابيب والنقل، فليس لكل مدينة في العالم بئر زيت خاصة بها، بل أن أكبر المناطق المنتجة للزيت في العالم تقع بعيداً عن مراكز الطلب الرئيسة في أميركا الشمالية وأوروبا وآسيا. مما يستدعي بناء ناقلات وخطوط أنابيب، ويحتاج بالتالي إلى استثمارات ضخمة إضافية واحتساب المدة التي يستغرقها النقل في برامج الإنتاج والاستيراد. ويوضح الجدول المرفق التوزع الجغرافي للزيت تصديراً واستيراداً.

وإضافة إلى المؤثرات الجغرافية هناك العوامل السياسية، نظراً للدور الذي يلعبه الزيت في تحريك الاقتصاد العالمي، إذ يعلّق المصدرون والمستوردون على حدٍ سواء أهمية سياسية بالغة على الزيت. وقد يتدخلون في حركة الأسواق لأسباب استراتيجية. وتتمثل هذه التدخلات في الأنظمة الضريبية والقوانين، وأحياناً في الحروب والاضطرابات السياسية، وهناك أيضاً فروقات في الاسعار تتعلق بالأنواع المختلفة للزيت الخام ترتبط بكل ما ذكرنا أعلاه وبعوامل أخرى سيرد ذكرها لاحقاً.

يتضح مما سبق أن أسعار أنواع الزيت الخام تتحرك وسط دائرة واسعة وبالغة التعقيد، تتشابك فيها قوى العرض والطلب، ويؤثر فيها القرار حول الاستثمارات الضخمة المطلوبة، وارتباط هذا القرار بضرورة الأخذ في الاعتبار المدة الطويلة التي يتطلبها التنقيب والإنتاج والنقل، ويؤثر فيها أيضاً الطبيعة الاستراتيجية للزيت، وتتعلق أيضاً بنوعه. ويتتبع الكثيرون هذه الأسعار، فهناك منتجو الزيت وشركات التكرير التي تشتري هذا الزيت وتكرره. وهناك أيضاً الشركات التجارية الباحثة عن فرص للربح في معاملاتها بين المشترين والبائعين، وهناك أيضاً المستثمرون في نشاطات صناعة الزيت والمضاربون على أساس توقعات الأسعار المستقبلية.

ولكن كيف وأين يتم تحديد سعر الأنواع المختلفة للزيت؟

فوراً أو آجلاً

قد يكون من المفيد أن نبدأ خطوتنا الأولى هنا بالتعريف بالنوعين الأساسين لمبيعات الزيت الخام: المبيعات الفورية (Spot) والمبيعات طويلة الأمد (Term).

تدل الأولى على صفقة بيع واحدة، أما الثانية فتطبق على سلسلة من المبيعات المتفق عليها بين البائع والمشتري. وفي الحالتين يتم الاتفاق بين الطرفين على كمية الزيت الخام ووقت تسليمه ومكانه، وأيضاً سعره الذي إما أن يتفق عليه برقم محدد للبرميل كأن يُقال: بسعر 28 دولار مثلاً ويكون هذا السعر رقماً مطلقاً أو أن يرتبط بسعر برميل من نوع آخر للزيت الخام، كأن يتفق بأن يكون سعر البرميل يساوي سعر برميل "برنت" ناقصاً أو زائداً دولاراً واحداً على سبيل المثال، وفي هذه الحالة يطلق على "برنت" مسمى الخام المرجعي.

في صفقات الخام اليومية، يتم ربط معظم أسعار المبيعات بأسعار زيت خام أخرى. ويتخذ هذا الارتباط شكل حسم من هذا السعر (discount) أو علاوة تضاف إليه(premium) تبعاً لمكان الزيت المباع ونوعه، مقارنة بسعر الخام المرجعي. وتسمى هذه الحسومات أو العلاوات: فروقات (differentials).

وتختلف هذه الفروقات باختلاف تكلفة نقل الزيت الخام والقيمة النسبية لكل نوع من أنواعه، إذ أن أنواع الزيت الخام ليست متساوية، وتختلف إسهاماتها خلال التكرير في إنتاج البنزين والديزل والمنتجات الأخرى. ولأن سعر كل منتج من منتجات التكرير يتغير حسب العرض والطلب، فإن أسعار

أنواع الزيت الخام مقارنة ببعضها البعض تتحرك وتتغير باستمرار.

الأسعار المرجعية

لكن أسواق الزيت لا يمكن أن تكون عبارة عن سلسلة فروقات لا نهاية لها. ومن المؤكد أنها ليست كذلك. فهناك العديد من زيوت الأسعار التي تعتبر مرجعاً (benchmarks) في أسواق الزيت الخام الرئيسة حول العالم التي تُعتمد أساساً لتسعير الزيت الخام. والأسعار المرجعية الثلاثة الأساس التي يكثر استخدامها هي: وست تكساس، برنت، ودبي.

وغالباً ما يعكس اختيار السعر المرجعي البدائل المتاحة للبائعين والمشترين. فعلى سبيل المثال، يباع يومياً حوالي ثلاثين نوعاً من أنواع الزيت الخام من الخليج العربي على أساس الفروقات بالقياس إلى زيت دبي. وتوجد أنظمة مشابهة في الولايات المتحدة، حيث يتم تسعير الزيت الخام على أساس أسعار وست تكساس، بينما تستند مبيعات الزيت الخام في أوروبا إلى أسعار برنت في بحر الشمال.

من التوقعات المستقبلية: زيادة المتاجرة الإسمية نتيجة لازدهار التجارة الإلكترونية، وربط تجارة الزيت بمصادر الطاقة الأخرى كالغاز أو الكهرباء

وتوضيحاً لذلك، قد يقوم أحد بائعي زيت المربان الخام (ومصدره أبو ظبي) بتقديم عرض لشحنة من هذا الزيت إلى شركة تكرير في سنغافورة بسعر خام دبي مضافاً إليه خمسين سنتاً. وإذا ما قارن المشتري هذا السعر بسعر آخر، كسعر شحنة من زيت خام عمان مثلاً، التي قد يكون سعر البرميل فيها أعلى من قيمة خام دبي بخمسة سنتات فقط. بالرغم من أن شحنة عمان في ذلك الوقت أرخص إلا أن ذلك لا يعني أنها صفقة أفضل، لأنه على المشتري أن يأخذ في عين الاعتبار نوع الزيت الخام، وكم تبلغ قيمته بالنسبة إلى شركة التكرير، وقد تكون فعلاً قيمة النوعين المذكورين في هذا المثال متساوية تماماً بالنسبة إلى شركة التكرير بالرغم من هذا الفرق. وقد يكون لمكرر آخر، في نفس الوقت، تقييم مختلف تبعاً لتشكيل مصفاته والحاجة إلى مشتقات معينة أكثر من غيرها.

وتصبح الصورة أكثر تعقيداً إذ أن للمشترين والبائعين الخيار لربط صفقاتهم بأكثر من سعر مرجعي واحد. ففي المثال نفسه، نجد أنه من الممكن لشركة تكرير في إسبانيا أن ترغب في شحنة دبي على أساس سعر برميل برنت ناقصاً 60 سنتاً أو شحنة خام عمان بسعر برميل برنت ناقصاً دولاراً وخمسة عشر سنتاً. في هذه الحالة يقارن البائع هذين العرضين ليحدد أيهما أعلى. والعنصر الأساس في المقارنة سيكون الفروقات المطبقة بالنسبة إلى سعر خام برنت وكذلك بالنسبة إلى خام دبي، ويراقب المتعاملون في الأسواق هذه الفروقات عن كثب، لخلق فرص لصفقات تنقل فيها الشحنات من منطقة إلى أخرى، وهذا النشاط يدعى المراجحة (arbitrage).

وبالعودة إلى موضوع الأسعار المرجعية، نشير إلى أن البائعين والمشترين يحرصون كل الحرص على أن تعكس الأسعار المرجعية القيمة الفعلية العادلة لهذه الخامات، وأن يشاركهم في تحديد الأسعار أكبر قدر ممكن من الجهات. ويسعى المتعاملون في الأسواق إلى شراء وبيع الشحنات من الخامات المرجعية مقدماً أملاً في الوصول إلى مستويات أسعار مستقرة في الأشهر التالية. ولهذا السبب بالتحديد، غالباً ما يكون لزيوت أسعار القياس أسواقه الآجلة (Forward Market)، التي تنفذ فيها عمليات بيع وشراء تغطي عدة أشهر لاحقة.

ومن الجدير بالذكر في هذا المجال أن هناك العديد من الشركات التي تعمل في حقل مراقبة صفقات الزيت الخام والمنتجات المكررة، وتجارتي الغاز والشحن، وتعد تقارير حول ذلك، وتتصل بالمشترين والبائعين دائماً لربط أسعار القياس بفروقات المبيعات الفورية والآجلة. ويفضل بعض البائعين عدم التفاوض على المبيعات الفورية أو الآجلة، بل يقومون ببيع الزيت الخام بفروقات الأسعار حسب وكالات التحقيق هذه. ومن أشهر هذه الوكالات بلاتس (Platt's) وأرغوس (Argus).

الزيت في البورصة

شهدت أسعار برنت ووست تكساس تطوراً مهماً خلال العقدين الأخيرين، مع انطلاق سوقي العقود: بورصة البترول العالمية (آي بي إي) وبورصة نيويورك التجارية (نايمكس). وهما تعكسان صورة السوق الآجلة، غير أنهما أكثر تنظيماً وانضباطاً وأسهل للتجارة، الأمر الذي يجذب إليهما المتعاملين. وتتمثل أسواق التسليم الآجل في شكل مبادلات، يستطيع خلالها المشترون والبائعون، غالباً بواسطة سماسرة، أن يتاجروا على أساس القياس على مدى أشهر عديدة مقبلة في موقع واحد. وتضع البورصة قواعد كثيرة مثل بداية ونهاية أوقات التعامل، والموعد الذي تنتهي عنده إمكانية المتاجرة بالنسبة لكل شهر آجل، وتفرض على المتعاملين المحافظة على حساب احتياطي في السوق لتجنب التخلف عن السداد. كما تشمل البورصة أنظمة متطورة لإدارة البيانات تعمل على تزويد المستخدمين حول العالم ببيانات الأسعار عند طلبها. وبالرغم من أهمية سوق دبي الآجلة والكميات الضخمة من الزيت الخام التي تم تسعيرها على أساسها، فليس فيها بورصة عقود.

وقد نجم عن هذين السوقين نشوء تجارة تعتمد على مضاربات مبنية على التوقعات في مجال الزيت الخام. فلم يعد من المستبعد أن يشتري أو يبيع مدير صندوق التقاعد في شركة دولية كبرى كميات كبيرة من الزيت الخام في صفقة ما. ومن الواضح أن شخصاً كهذا لا يهتم فعلاً بالسلعة الأساسية، فهو يسعى فقط إلى تحقيق الربح عن طريق الشراء بسعر منخفض والبيع بسعر مرتفع فقط لا غير. وقد دفعت هذه التبادلات، التي تتم على الورق فقط، المجموع الكلي للصفقات في الأسواق إلى مستويات مرتفعة، مسجلة مستويات يومية أعلى بكثير من إجمالي كمية الزيت الخام المنتج في جميع أنحاء العالم.

ولا تنحصر أعمال هاتين البورصتين في الزيت الخام، إذ تتم فيهما أيضاً المتاجرة بالمنتجات المكررة والغاز الطبيعي. لكن الزيت الخام يبقى بلا شك أكثر السلع نجاحاً في التداول على صعيد الطاقة، وهناك أيضاً متاجرة بين الخامات المرجعية المختلفة وبين الخام المرجعي الواحد بالنسبة للاسواق المختلفة.

وعلاوة على المبيعات الفورية والآجلة والأسواق الآجلة وأسواق العقود، تتم المتاجرة على أساس المشتقات (Derirvatives). وذلك يعني منح الخيار (Option) للمشتري، بحيث يكون له الحق، وليس الالتزام، في شراء أو بيع كمية معينة من سلعة ما خلال مدة معينة ومقايضة (Swaps) الفروقات بينها وبين سلعة أخرى. وتسمى مثل هذه المتاجرات المشتقات لأن قيمتها مشتقة من السلعة التي يعتمدان عليها.

ولا تنحصر أسواق العقود الآجلة وتجارة الفروقات في الزيت الخام، بل تشمل الكثير من السلع، حتى أن بعض المؤشرات الرئيسة مثل مؤشر داو جونز الصناعي يتعامل بالعقود الآجلة. ويجدر الذكر أن المحللون الماليون قد وضعوا، عبر السنين، أساليباً لتقييم هذه السلع مبنية على تحليل نشاطات السوق والأسعار في الماضي والكميات التي تتم المتاجرة فيها. ويطلق على هذا الجزء من التحليل اسم «التحليل الفني» وهو غير مرتبط بنوع السلعة بل تستخدم الأساليب نفسها سواء أكانت السلعة زيتاً أو بناً أو ذهباً. وهناك فرق شاسع بين التحليل الفني وتحليل أسس الاسواق، الذي يعني بصناعة بعينها وهو مبني على تحليل أساسيات العمل التقليدية مثل العرض والطلب وتحليل المخزون.

وختاماً قد يكون من المناسب أن ننهي هذه المقالة بمحاولة معرفة مستقبل أسواق الزيت الخام. فمن المتوقع أن يحدث تطور أكبر وزيادة في المتاجرة الإسمية وأسواق المشتقات نتيجة للتجارة الإلكترونية التي تسهل المعاملات التجارية وتشجع المزيد من المشتركين. ومن المتوقع أيضاً أن يكون هناك دمج فعّال في المستقبل بين التجارة المرتبطة بالزيت وتجارة مصادر الطاقة الأخرى (مثل الغاز) أو المنتج النهائي (كالكهرباء). وأخيراً فمن المتوقع أن تشهد أسواق البترول ظهور بورصة لزيوت منطقة الخليج العربي إضافة إلى سوق دبي للمبيعات الآجلة الموجودة حالياً.

لكن علينا أن نتذكر دائماً أن صناعة الزيت لا تزال، وسوف تظل دائماً، معتمدة على أمور مادية حسيّة. فبالرغم من أن سوق الزيت الواردة أعلاه تبدو معقدة، فإن أسعار الزيت ستعتمد دائماً على التوازن بين العرض والطلب، الذي يبقى العامل الأهم في تحديد سعر الزيت.

	الواردات	الصادرات
الولايات المتحدة	9,145	38
كندا	944	1,323
المكسيك	-	1,823
أمريكا الوسطى والجنوبية	896	2,113
أوروبا	9,330	1,101
الإتحاد السوفياتي السابق	-	3,203
الشرق الأوسط	84	16,843
شمال إفريقيا	163	1,982
غرب إفريقيا	52	3,107
شرق وجنوب إفريقيا	532	143
أستراليا	524	325
الصين	1,211	133
اليابان	4,257	-
دول المحيط الهادي الأخرى	6,679	972
دول أخرى	-	713
المجموع العالمي	33,818	33,818

حجم حركة الزيت الخام في العالم يومياً (بآلاف البراميل)

قول في مقال

الـرفق بالبيئة.. يحسّن أرباح الشركات

كاد الاعتقاد بأن التشريعات البيئية تضر بأعمال الشركات الصناعية أن يتحول إلى يقين، غير أن كتابات معمقة ظهرت في صحف اقتصادية غربية بارزة تذهب في الاتجاه المعاكس، مؤكدة على أن مراعاة التشريعات والشروط البيئية يستطيع أن يزيد من أرباح الشركات على المدى الطويل.. فيما يلي تستخلص الزميلة تمار ياكينيان هذه الرؤية.

إذا ذَكرت كلمة "تقنين" لواحد من أنصار السوق الحرة، تكون كمن صرخ فجأة في وجه إنسان شارد الذهن. في البدء يصيبه الذعر، ثم الغضب. فمعظم الشركات يقاوم تنظيم العمل الاقتصادي بقوانين.. يقاومه بشراسة. والتشريع البيئي لا يُستثنى من هذا الأمر. ويرى أصحاب الأعمال إجمالاً، أن الميل إلى سلوك رفيق بالبيئة هو علامة ضعف.

ويدعي أنصار هذا الرأي أن تطبيق قوانين بيئية يقلص قدرة الشركات على جني أكبر ما يمكن من الربح. وقد صارت قناعة الشركات في هذا الشأن شائعة. ولعل فيها بعض القدر من التفكير المبرر. فالحذر حيال بعض القوانين المقيّدة للحركة الاقتصادية، ربما استطاع في الماضي أن يحمي ربح الشركات، ذلك أن هذا الحذر مكّن الشركات من منع تدني أرباحها. ونتيجة لذلك صارت محاربة القوانين المقيدة لعمل الشركات قاعدة عملية، بل قاعدة ذهبية، ومحوراً في سلوك الشركات الصناعية. وصار أي تشريع في نظرها تشريعاً سيئاً.

قيل إنه إذا سلكت الشركة سلوكاً بيئياً فإن هذا سيضر بربحها. فإما أن تقلق بشأن البيئة وإما أن تقلق بشأن الربح الذي تجنيه. هذا ما يظنه معارضو السلوك البيئي، فالسياسة البيئية قد تزيد المنافسة على الموارد الثمينة وتؤدي إلى ارتفاع أسعارها واستنزافها. أليس كذلك؟

لا، ليس كذلك، كما يقول خبراء الاقتصاد ومهندسو البيئة وخبراء الصناعة والشركات الكبرى.

ومع أن هذا الموقف الجديد لا يُعدُّ بعد تحوّلاً جذرياً نحو السلوك البيئي، إلا أن عدة شركات اكتشفت الكثير من الفائدة في تحوّلها إلى هذا السلوك البيئي الأخضر. ففي العقد الماضي، تبين لرجال أعمال خلاّقين أن هذا السلوك لا يعني بالضرورة إفراغ الجيوب، ولا يفترض حكماً افتقاد القدرة على جني الأرباح واستنزاف الموارد وإلحاق الضرر بالرفاه الاقتصادي.

لكن ما هي الحجج الأخرى التي درجت في خطاب معارضي السلوك البيئي؟ ألا يؤذي هذا السلوك القدرة على المنافسة الاقتصادية؟ ألا يقلّص فرص العمل؟

والجواب هو: العكس تماماً. فالسلوك الاقتصادي والصناعي الرفيق بالبيئة، سلوك مربح دائماً كما يبدو.

فالشركات التي التزمت اتباع خطة الرفق بالبيئة في عملها، أخذت تشهد مردوداً للاستثمار الذي أنفقته في هذه الخطة. ومع أن الاعتقاد الشائع يميل إلى أن البرامج البيئية تكلف مالاً لا يمكن استرداده، إلا أن الأدلة أثبتت أن العكس هو الصحيح.

فالبرامج البيئية مجزية من الناحية المالية. ويبقى على كثير من الشركات أن تقتنع إذن، أن نظم الإدارة البيئية تستطيع أن توفر لها المال، فترفع الحد الأدنى للربح، بدلاً من أن تخفضه.

المسألة برمتها هي في أن تُحسن جني أرباح السلوك البيئي. وهناك عدة أبحاث أجريت ونشرت نتائجها في الآونة الأخيرة توضح كيف أن الأداء البيئي الجيد يمكن أن يتحول إلى أداء اقتصادي جيد، وتشرح سبل جني أرباح السلوك البيئي من خلال تفصيل نظم الإدارة البيئية واتقاء التلوّث وأسلوب اتباعها. فتطبيق النظم المذكورة تطبيقاً مجدياً يفضي إلى مبتكرات مفيدة في اتقاء التلوث. ولا بد لأية شركة من أن تضع نصب عينيها اعتماد خطوات رفيقة بالبيئة، في إطار خطة عمل اقتصادي سليمة.

يبدو هذا الكلام لطيفاً حتى الآن، وليس أكثر من ذلك. ولكن ما هي بالضبط نظم الإدارة البيئية؟ إنها طرق، فكر فيها واضعوها ملياً. وهي طرق منظمة ومخططة، تساعد الشركة على حسن إدارة تعاملها بالبيئة.

وأكثر ما يهم في إدارة هذا التعامل، هو ما يمكن أن يستنفد الموارد، أو يفسد البيئة، أو يتسبب بمخاطر صحية للبشر.

إن سياسة الوقاية من التلوث هي تلك التي ترمي إلى إحلال التكنولوجيا التي لا تحدث تلوثاً محل تلك التي ينتج عنها أنواع من التلوث. وتركز هذه السياسة على تحسين أساليب الإنتاج لتقليص حجم النفايات أكثر من التركيز على معالجة النواتج والغازات. فمعالجة النفايات الصناعية باهظة التكاليف. وفي المدى البعيد، يكلّف أقل بكثير أن تَتّقي التلويث، من أن تعيد تنظيف الطبيعة بعد أن تلوثها.

ويؤدي اتقاء التلوث في الواقع إلى حفظ الموارد الطبيعية، لأنه يتشدّد حتى أقصى مدى ممكن في جدوى استخدام المواد الأولية.

رجال الأعمال عمليون. وليس مهماً حقاً إذا كانت تحفزهم أو لا تحفزهم مشاعر حب الطبيعة، والتضحية لأجل الغير ليست ضرورية في المعادلة حتى تكون الشركات مسؤولة تجاه شأن البيئة. فالكسب المالي هو المحرّك الأساس الذي سيحرّك الشركات حتى تجتهد في حماية الطبيعة. والحافز عند رجال الأعمال على الدوام هو السعي إلى زيادة الربح والإنتاجية والأداء، بتقليص النفايات الناجمة عن أعمالهم. وقد ظهر شعار في الصناعة أخذ يوجّه عمل الشركات، وهو يتضمن ضرورة بلوغ ثلاثة أصفار:

1 - صفر عيوب (جودة الصنع)
2 - صفر مخزون (تصريف المصنوعات)
3 - صفر نفايات وغازات

يقول ريتشارد فلوريدا وديرك ديفيسون، من جامعة كارنيغي ميلون، إن الشركات التي أخذت تتحرك بحافز اعتماد نظم الإدارة البيئية، تزداد شيئاً فشيئاً. ولا أحد يشك الآن في أن الأداء البيئي الشامل هو كسب أكيد. والأهم من هذا أن رجال الأعمال صاروا مقتنعين بأن اعتماد نظم الإدارة البيئية يحسن وضعهم في المنافسة.

ثمة يقين أن اتخاذ أساليب إنتاج رفيقة بالبيئة يزيد الربح. ولذا أنشأت المؤسسات الكبيرة صناديق للاستثمار في هذه الجهود. وهي تجني من ذلك فائدة قصوى، لأنها تستطيع أن تتكيّف مع مشاريع إعادة الهيكلة قصيرة الأمد، لتجني الأرباح في المدى الطويل. ولدى هذه الشركات "مصاعد" لتطوير تكنولوجيا إنتاج رفيقة بالبيئة. وتسمح لها التكنولوجيا الحديثة بتقليص النفايات الصناعية إلى أدنى حد ممكن، وخفض تكاليف الإنتاج، وبالتالي تحسين الأداء الاقتصادي الشامل.

إن هذه التكنولوجيا الصديقة للبيئة تُلبس الشركات رداءً أخضراً جميلاً، وتطوير التكنولوجيا الجديدة يتيح للشركات هذه أن تظل في طليعة صنّاع المبتكرات ويحول دون خمول الشركة.

يقول غراهام كويلي، المحلل في قطاع الصناعة الكيميائية في شركة "داو كيميكال": "تحتاج الشركات الصناعية العاملة في قطاع الكيمياء إلى ابتكار أفكار جديدة تتيح لها أن تعود إلى النمو".

المتشددون من أنصار السوق الحرة قد يتوقفون قريباً عن مصارعة الجهات الحكومية في شأن قيود الإنتاج. فحين يكتشفون أن تحسين أدائهم البيئي يجعلهم أجدى من الناحية الاقتصادية، وأقدر على المنافسة وأفضل أداء في أعمالهم، فسيصبحون أشد ميلاً إلى احترام الحدود البيئية في حدودها الدنيا. وقد يتحول ألد أعداء القوانين البيئية المقيّدة للصناعة، إلى أشد المؤيدين لها.

من المسحراتي إلى.. المسهراتي!

رمضان الفضائي

خلال شهر رمضان المبارك، وما بين الإفطار والسحور بالذات، يحتل التلفزيون في بيوتنا مكانة لا مثيل لها طوال أيام السنة. فالبرامج "الخاصة" بهذا الشهر الفضيل تملأ شاشات الفضائيات من المغرب العربي إلى مشرقه. والسؤال الذي يتبادر كل ما حلّ رمضان هو: إلى أي مدى يمكن القول أن هذه البرامج "الخاصة" هي فعلاً كذلك؟ وما مدى ملاءمتها أو لنقل انسجامها مع خصوصية الشهر الكريم؟
الكاتب المعروف الأستاذ رجاء النقاش يعرض لنا ذكرياته عن ليالي رمضان قبل عصر التلفزيون، ويسجّل رأيه الخاص في نوعية البرامج التلفزيونية التي تقدم في السنوات الأخيرة. بينما يُكمِّل الزميل إبراهيم العريس الصورة باستعراض نقدي لمسيرة البرامج التلفزيونية، وأشهر ما فيها من مسلسلات خلال هذه السنوات.

1 موسم الهجرة إلى التاريخ

رجاء النقّاش

شهر رمضان الكريم شهر له قوة روحية كبيرة، وليس هناك شهر آخر له مثل هذه القوة. وقد يتصور الكثيرون أن وسائل الإعلام الحديثة وعلى رأسها الإذاعة والتلفزيون هي التي أعطت الحيوية لرمضان في لياليه المتواصلة وسهراته الممتعة. وهذا غير صحيح. فالحقيقة أن هذا الشهر الفضيل كان يملك هذه القوة الروحانية الكبيرة، حتى قبل انتشار أجهزة الراديو التي عرفها العرب حوالي سنة 1934م، وهو التاريخ الذي بدأت فيه أول إذاعة عربية وهي إذاعة القاهرة. أما التلفزيون فهو حديث الظهور نسبياً في العالم العربي، فقد ظهر التلفزيون لأول مرة - فيما أعلم - في بغداد سنة 1957م، أو قريباً من هذا التاريخ. أما في مصر وسوريا فقد ظهر التلفزيون سنة 1960م، وتوالى ظهور التلفزيون بعد ذلك في سائر الدول العربية.

قبل الإذاعة والتلفزيون

أذكر أنني وأنا صبي صغير في أربعينيات القرن الماضي - فأنا من مواليد 1934م - كنت أعيش في قريتي الصغيرة "منية سمنود" بمحافظة المنصورة. وكانت قريتنا في ذلك الوقت دون كهرباء ولا مياه نقية، رغم أن القرية تقع على فرع أساسي للنيل هو الفرع المعروف باسم "فرع دمياط". وكانت القرية، مثل غيرها، تعيش حياة بدائية تماماً، وكان عدد أجهزة الراديو فيها لا يزيد على عدد أصابع اليد الواحدة. وكان معظم هذه الأجهزة في بيوت عدد قليل جداً من وجهاء القرية، وكان هناك جهازان في اثنين من المقاهي اللذين يتردد عليهما الناس والموجودين على شاطئ النيل. ولذلك فلم نكن في ذلك الوقت نشعر بأية صلة بيننا وبين هذا الجهاز العجيب وهو جهاز الراديو. وكان على أهل القرية الذين لا يزيد تعدادهم على عشرة آلاف - على أفضل تقدير - أن يبتكروا لأنفسهم



رمضان موسم للتعلّم من التاريخ ودروسه والتطلع إلى متعة الروحية والفكرية العليا..

وسائل للاستمتاع بالجمال الروحي في شهر رمضان الكريم.

وقد أتيح لي بعد ذلك أن أنتقل إلى القاهرة، وأعيش فيها منذ سنة 1951م حتى الآن، كما أتيح لي أن أرى عواصم عربية وعالمية كبرى، وأن أعرف ألواناً متعددة من المتعة الفنية في مختلف المجالات. ومع ذلك فقد كانت ليالي رمضان في قريتنا الصغيرة متعة تفوق كل متعة، وهذه المتعة القديمة تحتل مكاناً عزيزاً في قلبي، وأكاد أفضلها على أي شيء آخر أحتفظ به في ذاكرتي ووجداني. والسر في ذلك والسحر فيه هو سرّ رمضان وسحره.

كانت ليالي القرية التي تعودَتْ على الظلام منذ الغروب حتى الصباح تغرق في أضواء رائعة بفضل مصابيح بدائية نسميها باسم "الكلوبّات". ومنذ أذان المغرب في رمضان وحتى أذان الفجر تبدأ الأنوار بالفيضان على كل شارع، وكل حارة، وكل بيت في القرية، وكان كل "الصنايعيّة" يجدون المتعة والحماس في الاندفاع إلى العمل طيلة ليالي رمضان، وكان هؤلاء "الصنايعيّة"، من ترزية إلى صانعي الأحذية والنجارين وغيرهم، يقيمون مهرجاناً بديعاً للعمل النشيط الذي يبدأ بعد الإفطار وحتى موعد السحور.

قبل التلفزيون.. كان إحياء ليالي رمضان بالاحتفالات أكثر فرحاً وإمتاعاً



في هذا المهرجان الريفي الساحر البسيط الذي لا يعتمد على راديو أو تلفزيون كان هناك من يقوم بإحياء ليالي رمضان في المساجد وفي البيوت الكبيرة وفي الميادين المتواضعة للقرية. ومن بين هؤلاء، من يقرأ القرآن الكريم بصوته الجميل. وشرط الصوت الجميل كان ضرورياً لكي يجد القارئ من يستمع إليه ويلتف حوله. والحق أن القرى المصرية كانت مليئة بهذه الأصوات الجميلة التي يعرفها الناس ويطلبون منها متعة الروح بالاستماع إلى تلاوة للقرآن الكريم تملأ النفوس بالسمو وترفع الأذواق الروحانية إلى عنان السماء. وكان هناك متخصصون في الإنشاد الديني بمختلف فروعه وألوانه، من إنشاد الأدعية، إلى إنشاد سيرة الرسول – صلى الله عليه وسلّم –. أما نحن الأطفال في ذلك الوقت البعيد فقد كنّا نجد المجال واسعاً لنا في ليالي رمضان لنغني أغاني جماعية، وننتقل من مكان إلى مكان وفي أيدينا فوانيس بدائية، فكنا أشبه بمجموعات غنائية تعبر عن نفسها في ابتهاج ونشوة. ولم يكن يعنينا كثيراً أن يبتهج الكبار بنا أو يضيقوا بما نحدثه من ضجيج شديد في ليالي رمضان البيضاء.

ذلك بعض ما تحتفظ به الذاكرة حول القوة الروحية التي يحملها شهر رمضان كل عام، والتي كانت تدفع الجميع إلى ابتكار وسائل خاصة بهم للفرح، حتى عندما كنا في الريف لا نملك من الوسائل الحديثة أي شيء.

الآن تغيّرت الدنيا

أما وقد أصبحت وسائل الإعلام الحديثة متاحة للجميع في كل مكان، مهما كان هذا المكان متواضعاً وبعيداً عن المراكز الحضارية الرئيسة، فنحن في عصر الفضاء الذي حقق الأعاجيب، فقد أصبح بإمكان أي مواطن في أقل قرية، وفي أبعد مكان على الأرض، أن يرى بعينيه ما يدور في العالم كله من أحداث عند وقوعها دون تأجيل أو تأخير.

وفي عصر الفضائيات التي سيطرت على حياة الناس الآن، انقلب الاحتفال برمضان الشهر الكريم، لتتنافس فيه هذه الفضائيات في تقديم ما يجذب الناس إليها ويجمعهم حولها.

وعصر الفضائيات بالنسبة لرمضان يخضع لمدرستين... المدرسة الأولى، وهي شائعة جداً، تقول إن ليالي رمضان هي فرصة للتسلية والترفيه والألاعيب الفنية السطحية، أما المدرسة الثانية، وهي تقاوم وتحقق بعض الانتصارات، فإنها تقول إن ليالي رمضان هي فرصة للتفكير وتقليب الأمور والرحلة إلى التاريخ لإحياء لحظات الازدهار والحيوية في تاريخ العرب والمسلمين، وإلقاء الأضواء الجديدة على الشخصيات الكبرى التي صنعت هذا التاريخ بحروف من النور قبل أن تنطفئ هذه الحروف بتأثير الاستعمار والتخلف وما صنعاه بنا من تدمير غير محدود.

المدرسة الأولى في الفضائيات، والتي ترى أن ليالي رمضان هي ليالي للتسلية والترفيه والمبالغة في اللهو... أنا ضدها، وأرى أنها تقرأ رمضان الكريم قراءة خاطئة.

أما المدرسة الثانية التي ترى في شهر رمضان موسماً للهجرة إلى التاريخ والالتقاء بالشخصيات العظيمة والأفكار المؤثرة، فهي المدرسة التي أرى أنها مع رمضان على وفاق وتفاهم وإدراك حقيقي لمغزاه ومعناه. وقد حققت هذه المدرسة الثانية في الفضائيات العربية كثيراً من النتائج الإيجابية، فقدمت إلينا كثيراً من الأشخاص والأحداث التي كانت غير معروفة بتفاصيلها إلا للمتخصصين من بين أوراق الكتب إلى نور الحياة.

وقد شاهدنا على شاشة الفضائيات مسلسلات رائعة عن "هارون الرشيد" و "عمر بن عبدالعزيز" وعن الانتصار في مصر ضد غزو التتار، وعن الإمام "أبي حنيفة النعمان" وعن "القضاء في الإسلام" وعن "قاسم أمين" وغير ذلك من الأحداث الرائعة والشخصيات المؤثرة.

ومن المنتظر أن نرى في رمضان هذا العام مسلسلاً عن "عمرو بن العاص"، وكل المعلومات المتوافرة عن هذا المسلسل الذي يقوم ببطولته الفنان الكبير المعروف نور الشريف تشير إلى أنه سوف يكون مسلسلاً مهماً عن اللحظات التاريخية التي انفتح فيها قلب مصر للعروبة والإسلام. كما أنه يعالج موضوعاً مهماً لنا الآن وهو الفرق بين "الفتح" و"الغزو"، فعمرو بن العاص عندما دخل مصر وهو يحمل راية الإسلام كانت مصر مستعمرة رومانية؛ ولذلك فقد لقي عمرو بن العاص مساعدة كبرى من المصريين أنفسهم، وبعد أن انتصر القائد العربي الإسلامي فإنه لم يفرض على أهل مصر شيئاً وإنما ترك لهم حريتهم وصان كرامتهم؛ فدخلوا العروبة والإسلام مختارين راضين، وبقي من أراد منهم على العقيدة المسيحية دون أن يمسه سوء أو يفرض عليه العرب شيئاً ضد إرادته، ففي الإسلام: "لا إكراه في الدين".

وفي هذا المسلسل عن "عمرو بن العاص" إثارة لقضية تاريخية كبرى هي "حريق مكتبة الإسكندرية"، والتي يوجه فيها بعض المؤرخين غير المنصفين تهمة جسيمة إلى العرب، حيث يزعم هؤلاء أن عمرو بن العاص هو الذي أحرق مكتبة الإسكندرية بأمر من أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

ولكن المؤرخين العالميين المنصفين وعلى رأسهم المؤرخ الإنجليزي الكبير "ألفرد بتلر" صاحب الكتاب الموسوعي المهم عن "فتح العرب لمصر" والذي ترجمه إلى العربية ترجمة دقيقة الأستاذ محمد فريد أبو حديد.. هذا المؤرخ الكبير أثبت بالدليل العلمي الذي لا يقبل الشك أن مكتبة الإسكندرية قد احترقت في الحملة التي شنّها يوليوس قيصر على الإسكندرية حوالي سنة 48 قبل الميلاد، عندما كان قيصر يطارد خصمه "بومبي"، واكتمل حريق مكتبة الإسكندرية نهائياً في الحرب التي اشتعلت بين "أوكتافيوس" من جانب و "أنطونيو وكليوبترة" من جانب آخر سنة 31 قبل الميلاد. أي أن مكتبة الإسكندرية قد احترقت تماماً قبل فتح العرب لمصر بحوالي ستمائة سنة، ولم يكن لها وجود عندما دخل العرب مصر. وبذلك يكون العرب أبرياء تماماً من حريق مكتبة الإسكندرية، فلم يحرق العرب كتاباً، ولم يهدموا أثراً من الآثار ولم يفرضوا على غيرهم شيئاً، وإنما كانوا يتعاملون مع الآخرين تعاملاً حضارياً إنسانياً راقياً مستوحى من المبادئ الإسلامية الصحيحة، فقد كان العرب يتحاورون ولا يقتلون. وكانوا يرفعون صوت العقل والضمير والتعامل بالحسنى مع الجميع، وكانوا لا يحملون السلاح إلا في وجه المعتدين الذين يوجهون سيوفهم إلى الصدور العربية.

هذه بعض العطايا والهدايا من شهر رمضان الكريم، وأعود فأكرر أنني مع المدرسة التي تنظر إلى رمضان على أنه موسم للهجرة إلى التاريخ والتعلم من دروسه والتطلع إلى متعة روحية وفكرية عليا لا عبث فيها ولا لهو. فهذه المدرسة وحدها هي التي تليق بهذا الشهر الفضيل وتحقق المتعة والنفع فيما تقدمه إلى الناس، وهي المدرسة التي تجدد الماضي ليدفع إلينا بقوته وعنفوانه فنقف على أقدامنا من جديد، أما مدرسة "الفوازير" و"الكاميرا الخفية" وغير ذلك من البرامج والمسلسلات الترفيهية السطحية، فهي تستغل الفضاء في ما لا يستحق أن يبقى على الأرض. وهي مدرسة لا متعة فيها ولا قيمة، كما أنها لا علاقة لها بالشهر الكريم.

2 بين التاريخي الثابت والاجتماعي المثالي

إبراهيم العريس

منذ سنوات عديدة، ولنقل منذ عقدين من السنين على الأقل، حلَت "القعدة" البيتية خلال شهر رمضان المبارك محل اللقاءات الاجتماعية، وارتياد السينما أو المسارح أو غيرها من أماكن التسلية التي كانت تحلو في رمضان.

صحيح أن الفُرْجَة على التلفزة باتت عادة يومية في كل مكان، وليس في عالمنا العربي وحده، لكن الواقع يقول لنا أن العشيات هي الفترة ذات الحظوة للفرجة. وأن الجمهور لا يبدو مهتماً بالتجمع من حول أجهزة التلفزة، كل عشية بشكل منتظم، إلا في شهر رمضان تقريباً. وهذا ما يتيح - تقنياً على الأقل - إمكانية تقديم حكايات مسلسلة يتعين متابعة الأحداث من خلالها بدأب وإقبال، خلال تلك العشيات الرمضانية وحدها. أما عشيات بقية شهور السنة فقد تنفع فيها، أكثر، برامج الألعاب، ولقاءات الفنانين، والأعمال المستقلة التي قد لا تحتاج إلى متابعات يومية متواصلة. وهذه الحقيقة أدركها مسؤولو التلفزة، وبالتالي منتجو الأعمال التلفزيونية بالتدريج، منذ صار الجهاز الصغير سيد كل بيت، ونجم السهر والحياة الاجتماعية.

حلول عجائبية

إن هذا الواقع الذي تم رصده فيما سبق، هو الشكل الإطاري الخارجي لتلك الظاهرة المتفاقمة: ظاهرة بث المسلسلات الجيدة، أو المرشحة لأن تنال حظوة المتفرجين بشكل حصري في شهر رمضان. وفي هذا النص، لئن كانت حالات السينما شكلت خلال الثلاثة أرباع الأولى من القرن العشرين، مربع التسلية عن الشرائح الوسطى في المجتمع، فيما شكلت حلقات التجمع في الأحياء الفقيرة، مكاناً أثيراً ترتاده شرائح أخرى، فإن التلفزة تكاد تجمع اليوم الشرائح كلها في بوتقة واحدة. غير أن هذا الواقع - وكما سوف نرى - لم يُحدث أي تبديل في فكر البرامج المقدمة، والعقلية التي تقف وراءها. ذلك أن ما يقدم لا يزال محملاً بكمّ لا بأس به من الفكر القديم نفسه، الذي كان يهيمن على أعمال التسلية الموجهة للشرائح المتوسطة، الفكر القائم على التسامح الطبقي، والتحلّق من حول العائلة، والمال كوسيلة للنجاح الاجتماعي، والحلول العجائبية للمشكلات المستعصية، في المجال الاجتماعي، بالإضافة إلى رصد الحوادث التاريخية الكبرى التي

يعرفها الجمهور العربي منذ مقاعد صفوف الدراسة الأولى، وحياة بعض الشخصيات الشهيرة، ودائماً ضمن تقديمها كأمثولة وعبرة... وما إلى ذلك.

ومن البيّن أن هذا كله إنما ينبع من فكرة أساسية وبديهية: أن الجمهور العريض إذ يتفرج، هو الذي يؤمن نجاح عمل ما، وبالتالي مبرر تمويله وإنتاجه، وهو الذي باستنكافه قد يتسبب في سقوط العمل. ومن هنا تقوم القاعدة الأولى - الذهبية - على تقديم ما يرضي هذا الجمهور. وهنا تستعاد بالطبع تلك النقاشات الطويلة العريضة التي دارت في الماضي من حول السينما التجارية.

فما الذي يرضي الجمهور؟ ما الذي يجتذبه طالما أن الوضع التلفزيوني تبدل كثيراً خلال السنوات الأخيرة، في العالم وفي عالمنا العربي: إذ بعدما كان لكل بلد محطة رسمية تفرض برامجها على الجمهور، صارت هناك الآن تلك "الثورة الفضائية" و"ثورة الأطباق الملتقطة" و"ثورة الكابل"، التي جعلت في كل بيت مئات المحطات تعرض طوال الوقت مئات البرامج، في منافسة لم يعهد العالم مثيلاً لها من قبل.

من المؤكد أن حرية الاختيار صارت البعد الأول في العلاقة بين المتفرج وجهازه التلفزيوني... خاصة وأن آلة "الريموت كونترول" في يده تمكنه من اتخاذ القرار خلال ثوانٍ، في لعبة "ديمقراطية" لا تزال في حاجة إلى قدْر كبير من الدراسة والبحث السوسيولوجي والمرتبط أيضاً بالسيكولوجيا الجماعية. والحال أننا هنا، في انتظار زمن يتخذ فيه مثل هذا البحث طابعاً جدياً ومعمقاً، يمكننا أن نرمي ببعض العلامات ونعثر على بعض المفاتيح. إذ، حين يصبح شهر رمضان للأعمال التلفزيونية، ما كان في الماضي البعيد سوق عكاظ للشعر الجاهلي، ثم مجمعات السينما والمسرح لإبداعات القرون الخالية، بات في الإمكان التوقف عند ما يقدم في رمضان، والانطلاق منه لإيجاد بعض سبل الدراسة.

من السينما إلى التلفزة

وهذا ما يعيدنا إلى سؤال ورديفه: ما الذي يرضي الجمهور؟ وما الذي يحصل عليه هذا الجمهور؟

في الحقيقة أن ما يرضي الجمهور وما يحصل عليه قد لا يكونان على تطابق تام أول الأمر. لكن هذا التطابق سرعان ما نجده متحققاً في لعبة جدلية شديدة الحذق، بحيث أن الجمهور نفسه لن يكون في

الإنتاج التلفزيوني السوري المنافس الوحيد لمصر بدأ يراوح مكانه، والإنتاج المصري ينهض من كبوته متكئاً على النجوم



نهاية الأمر بعيداً جداً عن الاعتقاد بأن ما يحصل عليه هو ما كان يريده أصلاً. إنها لعبة الاستيعاب.

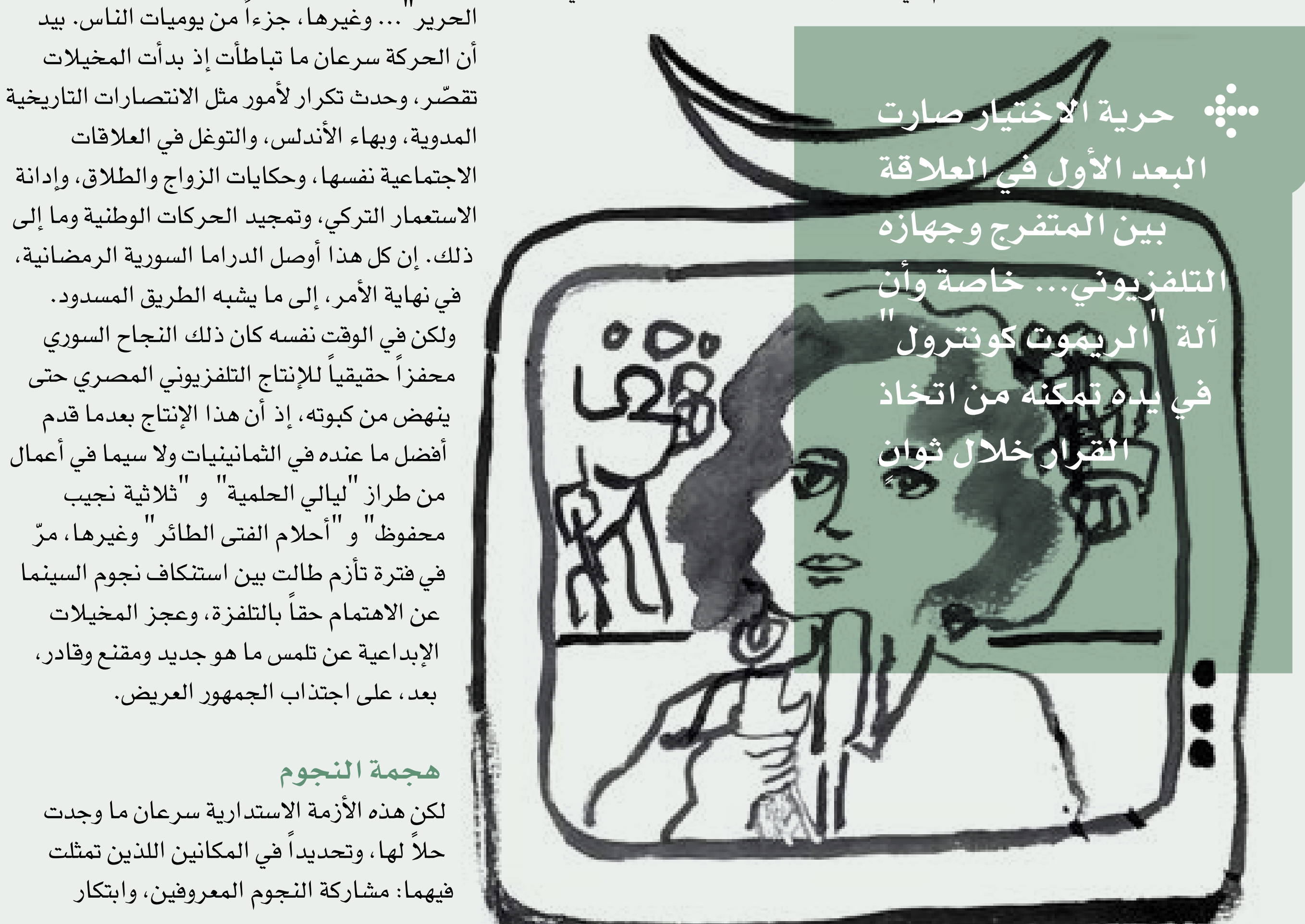
ولكن، لئن كانت لعبة الاستيعاب هذه قد اعتادت أن تتم بالنسبة إلى السينما التجارية الناجحة - وغير المسفّة طبعاً - عن طريق التماهي في عتمة الصالة بين المتفرج ونجوم الفلم، هذا التماهي الذي انتهى به الأمر إلى خلق ما نسميه "الطبيعة الثانية" لدى الجمهور، وإلى خلق نجومية النجوم أنفسهم وتوطيد العلاقة المدهشة التي قامت دائماً بين المتفرج ونجمه المفضل، فإن وصولها إلى هذا المستوى في التلفزة يبدو غير ممكناً، لاختلاف ظروف العرض، وغياب العتمة الراسمة لعلاقة هندسية مباشرة بين عيني المتفرج والشاشة، وما إلى ذلك. هنا، في التلفزة، تصبح العلاقة فرجة حقيقية يتجرد فيها المتفرج من أي التزام بالتماهي مع نجومه، أو مع ما يحدث أمامه. ما يغرِّب لعبة الإيهام بالواقع، خالقاً على الشاشة واقعاً حقيقياً غير وهمي هذه المرة. واقعاً فكرياً أيديولوجياً، قد يتاح التمعن فيه في مناسبة أخرى.

ما يهمنا هنا هو الإشارة إلى الكيفية التي تحوّل فيها رمضان إلى مناسبة تقدم فيها أفضل الأعمال، وتحقق أكبر قدر من الرواج. وما تحقق هنا يدين، طبعاً، للسينما - سلف الدراما التلفزيونية - بالكثير. ذلك أن منتجي الأعمال التلفزيونية، إذ تنبهوا إلى نوعية متفرجي رمضان وظروفهم (نوعية عائلية في ظروف تجمع عائلي)، نهلوا من التراث السينمائي الذي كان في الأصل موجهاً، ولكن فردياً، إلى هذه النوعية نفسها من الجمهور.

ولكن في البداية، لم تكن التلفزة في حاجة إلى نجوم لتقديم هذه الأعمال. في اللعبة التلفزيونية من الواضح أن النص والأجواء تكون لها البطولة. ومن هنا ظلت البرامج الرمضانية الدرامية خاصة، طوال سنوات عديدة، تصنع مع ممثلين غلبت كفاءاتهم على نجوميتهم. ولكن الذي حدث بعد ذلك، وما بتنا نلاحظه بوضوح خلال السنوات الأخيرة، هو أن نجوم السينما أنفسهم لحقوا بالموجة واتسعت هذه الظاهرة إلى درجة أن الأنباء الصحفية تفيدنا بأننا سوف نشهد في رمضان لهذا العام "تنافساً حاداً" في مصر على الأقل، بين كبريات النجمات من ليلى علوي إلى نبيلة عبيد ومن نيللي إلى إلهام شاهين (التي لم يفت الصحافة الثناء على عودتها إلى التلفزة بعد غياب)، ناهيك بيسرا، التي كانت نجمة رمضان العام الفائت بمسلسلها "أين قلبي". وفي الوقت نفسه ها هم النجوم الرجال، بدورهم، يتنافسون، من حسين فهمي إلى نور الشريف مروراً بيحيى الفخراني وفاروق الفيشاوي.

من مصر إلى سورية وبالعكس

لكن المسألة هنا هي أن النجوم هم الذين يشعرون بأنهم في حاجة إلى التلفزة، وليست التلفزة في حاجة إليهم. والمثال الأكثر وضوحاً على ذلك أتى، قبل سنوات، ولا يزال، من سورية. فسنوات التسعين قد شهدت نجاحاً كبيراً للأعمال التلفزيونية السورية. وكان المدهش أن هذه الأعمال، التي اقتبست أول الأمر مناخات الأعمال المصرية قبل أن تستقل بنفسها وتكون لها جمالياتها ومواضيعها الخاصة، نجحت من دون نجوم معروفين، ولربما يقول البعض: خاصة لأنه لم يكن فيها نجوم معروفون. فكان النجاح من دون أطر مهيئة مسبقاً له. كان أصحاب هذا النجاح، في الأصل، كُتّاب التقطوا اللعبة جيداً، ومخرجون أتى معظمهم من اللغة السينمائية. وهكذا على يد نجدت أنزور، وهيثم حقي، وباسل الخطيب، ومروان البني، في سورية، راحت مسلسلات عديدة تحصد النجاح، إذ أن الجمهور العربي العريض رأى أمامه هنا على الشاشة أعمالاً مختلفة عما كان سبق له أن شاهد: أعمالاً تاريخية فخمة الأجواء محبوكة بشكل جيد، مسلسلات فانتازية غرائبية تنقله إلى سفر فني بعيد، إضافة إلى مسلسلات اجتماعية تحاول، حقاً، أن تطرح العديد من المشكلات الاجتماعية أو ترصد حياة الناس ببساطة.. ومن هنا صارت عناوين مثل "الكواسر" و "الجوارح" و "الموت الآتي إلى الشرق" و "أسرة آل الجلالي" و "خان الحرير" ... وغيرها، جزءاً من يوميات الناس. بيد أن الحركة سرعان ما تباطأت إذ بدأت المخيلات تقصّر، وحدث تكرار لأمور مثل الانتصارات التاريخية المدوية، وبهاء الأندلس، والتوغل في العلاقات الاجتماعية نفسها، وحكايات الزواج والطلاق، وإدانة الاستعمار التركي، وتمجيد الحركات الوطنية وما إلى ذلك. إن كل هذا أوصل الدراما السورية الرمضانية، في نهاية الأمر، إلى ما يشبه الطريق المسدود.



> حرية الاختيار صارت البعد الأول في العلاقة بين المتفرج وجهازه التلفزيوني... خاصة وأن آلة "الريموت كونترول" في يده تمكنه من اتخاذ القرار خلال ثوانٍ

ولكن في الوقت نفسه كان ذلك النجاح السوري محفزاً حقيقياً للإنتاج التلفزيوني المصري حتى ينهض من كبوته، إذ أن هذا الإنتاج بعدما قدم أفضل ما عنده في الثمانينيات ولا سيما في أعمال من طراز "ليالي الحلمية" و "ثلاثية نجيب محفوظ" و "أحلام الفتى الطائر" وغيرها، مرّ في فترة تأزم طالت بين استنكاف نجوم السينما عن الاهتمام حقاً بالتلفزة، وعجز المخيلات الإبداعية عن تلمس ما هو جديد ومقنع وقادر، بعد، على اجتذاب الجمهور العريض.

هجمة النجوم

لكن هذه الأزمة الاستدارية سرعان ما وجدت حلاً لها، وتحديداً في المكانين اللذين تمثلت فيهما: مشاركة النجوم المعروفين، وابتكار

مواضيع بدت جديدة تضخ التلفزة بعناصر جذب أساسية. وفي يقيننا أن هذا كله كان له اسمان تأسيسيان نور الشريف، وأم كلثوم. فنور الشريف حين "غامر" باسمه ومكانته السينمائية ليقوم ببطولة "لن أعيش في جلباب أبي" فتح الطريق واسعاً أمام نجوم السينما لكي يجدوا مكانهم المرموق على شاشة صغيرة لم يكونوا واثقين تماماً من قدرتها على أن تعطيهم فرص العودة بقوة إلى الجمهور في وقت كانت السينما نفسها، التي بنت مجدهم في الماضي البعيد والقريب، تحتضر.. وهكذا تمكن نور الشريف، ومن دون أن يدري ربما، من تبرير حضور الكبار على الشاشة الصغيرة: فمن فاتن حمامة إلى سميرة أحمد، ومن عزت العلايلي إلى حسين فهمي.. صار كل واحد يحلم بأن يكون له "جلبابه" ونجح الأمر تماماً.

نجح إلى درجة أن المواسم المتتالية شهدت من النجوم الكبار اهتماماً تلفزيونياً يفوق، ومن بعيد، اهتماماتهم السينمائية. ولئن كانت نجمة مولعة بالسينما مثل ليلى علوي قد قاومت طويلاً مستنكفة عن قبول العروض التلفزيونية التي انهالت عليها، فإن مقاومتها سرعان ما انهارت لتظهر، منذ ستة أعوام، في مسلسل كل عامين وبشكل منتظم: "التوأم" ... ثم "حديث الصباح والمساء" (عن رائعة نجيب محفوظ)، وصولاً إلى "امرأة وثلاثة وجوه" في عامنا هذا. وليلى علوي التي تلعب في مسلسلها الجديد دور سيدة أعمال يسجل لها أنها تختار أعمالها بعناية. أما يسرا، فكان هذا حالها، لكنها في مسلسل العام الفائت "أين قلبي" رضيت – وربما لأن دورها كان أفضل ما في المسلسل – أن تلعب في هذا المسلسل الذي يقوم على قواعد فكرية تبدو مضحكة – ولكن قابلة للرواية للأسف – في بداية الألفية الثالثة: الكرم الحاتمي لرجال الأعمال، الحلول العجائبية المسقطة من فوق للمشاكل الاجتماعية. أما هذا العام فإن يسرا تظهر من جديد، جميلة ومتألقة، في مسلسل "ملك روحي" حيث تلعب دور سيدة أعمال أرستقراطية تحارب الفساد. في أعمال مثل هذه تحاول يسرا طبعاً أن تستعيد نجاحها الكبير "أوان الورد" الذي يمكن القول بأنه كان أفضل مسلسلاتها حتى اليوم.. فهل تفعل؟

منعطف أم كلثوم

طبعاً لا نريد هنا أن نقدم لائحة بما سوف يعرض، من مصر، على القنوات العربية، أرضية أو فضائية خلال رمضان هذا العام؛ لذلك نكتفي بالقول بأن



> لو قيّض لعلم الاجتماع أن يدرس ما يقدّم من أعمال، لما خرج أبداً بنتائج تريح من يتطلع إلى الوضع العربي بشيء من التفاؤل

هذا العام يكاد يشبه العام الفائت: نأخذهم أنفسهم ونبدأ من جديد. وهذا ما ينقلنا من حيز النجوم إلى حيز المواضيع. ومباشرة إلى أم كلثوم. فأم كلثوم في المسلسل الذي قُدم عن حياتها من إخراج إنعام محمد علي قبل سنوات، أعادت التلفزة إلى واحدة من الوظائف الأساسية المفترضة لها: التسلية والتوعية والارتفاع بذوق المتفرجين. والحال أن مسلسل أم كلثوم قدّم مساهمة أساسية في استعادة الإنتاج المصري زخمه وقوته، حتى وإن كان في وسع المرء أن يجد مئات المآخذ على هذا العمل... بل يمكن القول بأن المسلسل أعاد حتى الاهتمام بأم كلثوم من جديد، وجعل أبناء الأجيال الجديدة يعيدون اكتشافها، فنانة وسيدة ومطربة واكتشاف جزء كبير وأساسي من تاريخ مصر في القرن العشرين معها. ولقد فتح مسلسل أم كلثوم الباب أمام نوعية جديدة، فإذا بالتلفزة تقدم لاحقاً حياة "قاسم أمين"، وهذا العام حياة "يوسف السباعي" الكاتب الروائي المصري المعروف... واليوم ثمة في الأفق عشرات المشاريع من هذا النوع.

وإذا كان اهتمام التلفزة بحياة الفنانين والأدباء كبيراً وجديداً إلى حد ما، فإن اهتمامها – ولا سيما في رمضان – بحياة أئمة الدين والشخصيات الإسلامية – وغير الإسلامية – التاريخية، ليس جديداً.

واللافت حتى اليوم هو أن مصر تبقى السبّاقة في مثل هذا النوع من الأعمال. أما سورية، وهي المنافس الرئيس والوحيد لمصر في مجال الإنتاج التلفزيوني، فتبدو كالمراوح مكانه، حتى وإن كان بعض أفضل ما حقق، فنياً، خلال الأعوام الفائتة حمل تواقيع مخرجين

سوريين، أو يعملون انطلاقاً من سورية، مثل باسل الخطيب "ذي قار" و "هولاكو" أو نجدت أنزور. علماً بأنه بدءاً من العام الفائت وفي أفق الإنتاجات المعلنة هناك المزيد من التوجه نحو هيمنة الإيديولوجيا المثيرة للسجال، والتي تحاول أن تستخدم التلفزة "سلاحاً في المعركة" وأسطع مثال على هذا مسلسل "فارس بلا جواد" للهزلي المصري محمد صبحي.

أفكار غالبة
مصر وسورية... ولكن أين الآخرون؟

قد يكون من الظلم القول بأن لا شيء لدى الآخرين، ففي لبنان ثمة إنتاج تلفزيوني، وفي العديد من بلدان الخليج وبلدان المغرب العربي ثمة إنتاج أيضاً. لكنه في هذه الحالات كلها محدود، وتغلب عليه المحلية. وربما يحدث لبعضه أن يعرض على تلفزات خارجية. ولكن ليس في رمضان. فرمضان التلفزة يكاد يكون محصوراً بما ذكرنا من أعمال مصرية وسورية. فما هي، أخيراً، باختصار، الأفكار التي تزرعها، عفوياً غالباً ومن دون تخطيط، مثل هذه الأعمال؟

من الصعب تقديم إجابة قاطعة. ولكن من المؤكد أنه لو قيض لعلم الاجتماع أن ينكبّ على ما يقدم من أعمال، رصداً ودراسة، لن يخرج أبداً بنتائج تريح من يتطلع إلى الوضع العربي في الزمن الراهن بشيء من التفاؤل.

ففي مجال المسلسلات التاريخية ثمة قواعد ثابتة: نحن دائماً على حق، تاريخنا دائماً في ازدهار نحن أمة التسامح. نحن دائماً ضحية مؤامرات الغير. تخلفنا، إن وجد، هو من فعل الأعداء المتكالبين علينا. ناهيك بأن ثمة دائماً عصوراً ذهبية نبكي عليها.

وفي مجال الأعمال الاجتماعية المعاصرة: السعادة تأتي من القناعة. البطل دائماً إيجابي. التسلق الطبقي هو الحل. الحلول دائماً عجائبية ولا صراعات هناك إلا بين الخير والشر. والخير هو الذي ينتصر دائماً، أما المرأة فإنها تتراوح ما بين الطيبة المطلقة، والشر المطلق، ولا حل وسط لديها. أما الأبناء فإنهم إلى جحيم إن هم نظروا إلى الخارج وواتتهم طموحات ما. وفي خضم هذا كله، السياسة ممنوعة إلا إذا كانت دعاية مع هذا أو ضد ذاك.

3 وماذا عن التلفزيون السعودي

محمد العصيمي

تقول الأخبار إن مسلسل (طاش ما طاش 11) الذي يعرض في رمضان هذه السنة في التلفزيون السعودي، يتمتع بقوة غير مسبوقة، من حيث إتقان الفكرة والنص وحشد الممثّلين. ما يعني أن هذا المسلسل سينقذ نفسه من ورطة التكرار التي وقع فيها، في السنوات القليلة الماضية. وما يعني، أيضاً، أن العودة إليه، بعد قرار اعتزاله الشاشة، مبررة بالجودة التي سيكون عليها والتي ينتظرها الجمهور بشوق كبير.

لقد كان مسلسل (طاش ما طاش) ناجحاً في كل سنة، ليس لأنه جيّد دائماً، وإنما لسببين من وجهة نظري: الأول أنه يلتقط مفارقات المجتمع المحلّي ويضعها في قوالب كوميديّة حادّة، تلبّي تطلّعات الإنسان السعودي في نقد الممارسات الخاطئة، سواء أكان مصدر هذه الممارسات عام أم شخصي. والسبب الثاني أن هذا المسلسل، ببساطته وخفة دمّه ورسائله المبطّنة، يكاد يكون المسلسل الخليجي الوحيد، الذي تحشد له إمكانيّات كبيرة، تماثل ما يحشد للمسلسلات المصريّة والسوريّة التي تتزاحم على شاشات تلفزيون رمضان.

وإذا كان مسلسل طاش استثناءً في برامج رمضان في التلفزيون السعودي، فإن هناك بوادر ربما لا ترقى إلى مستوى الاستثناءات، إلا أنها تشكل علامات رمضانيّة سعوديّة تستحق الالتفات والتسجيل، منها على سبيل المثال سعي الممثّلين، الذين لا يأخذون فرصتهم كاملة في المسلسل الشهير إلى صنع مسلسلاتهم الخاصّة، التي وإن كانت مصبوغةً بألوان الدراما، فإنها تحاول تحت وطأة الانطباع الجماهيري في حق مسلسل طاش، أن تنحو منحىً كوميدياً، ممّا يعرّض ممثليها لمطبّات هم في غنى عنها، حين لا يكون للموقف الكوميدي ما يبرره وإنما يُقحم إقحاماً في النص أو الموقف. وعلى أية حال فإن حسنات هذه المسلسلات، المصنوعة في ظلّ مسلسل طاش، إفرازها لمجموعة من كتّاب القصة والسيناريو السعوديّين، ومن هؤلاء نساء يبدو أنهن سنة بعد أخرى يُجدن طبخة المسلسل التلفزيوني، خاصة وأنهن ينقلن هموماً حقيقيّة قريبة منهن ومن مفارقات حياتهن في الحركة الشاملة للمجتمع.



طاش ما طاش.. التقط برسائله المبطنة مفارقات المجتمع ببساطة وخفة دم

رسوم الموضوع: عمر صبير

في المقابل، وكما على صعيد الكتّاب الجدد للمسلسلات، بات المشاهد للتلفزيون السعودي في رمضان جاهزاً لقياس جودة هذا المسلسل بمقارنته مع الآخر على أساس من تصريحات المخرجين الشباب للصحف، فهناك، كلما حل رمضان، عناوين ثابتة للمخرجَيْن عامر الحمود وعبدالخالق الغانم، الأول على أساس أنه صانع النجوم في المسلسلات الجديدة، والثاني باعتباره صانع مجد مسلسل "طاش ما طاش" في سنواته الأخيرة، بعدما أخرجه عامر الحمود في مهده. وفي هذه التصريحات لعامر وعبدالخالق ومخرجين آخرين، سعوديّين وأردنيّين بالذات، يجد المشاهد سلوى رمضانيّة، تزجي قسماً من نهاره وليله المحتشد بالإنتاج التلفزيوني، المحلّي والعربي.

هذا الاحتشاد ذاته يثير، في اتجاه آخر، رغبات عند بعض السعوديّين للعودة إلى ماضي التلفزيون الرمضاني، بل أحياناً يتم تجاوز التلفزيون إلى الإذاعة والمسلسل الشهير (أم حديجان) الذي كان يكتبه ويمثل جميع شخصيّاته (رجالاً ونساءً وأطفالاً) الموهوب عبدالعزيز الهزّاع. هذا المسلسل الإذاعي الشهير سعودياً لعقود طويلة يرتبط بعلاقة قرابة مع مسلسل طاش التلفزيوني، من حيث التقاط المفارقات الاجتماعيّة الصارخة وتشريحها كوميدياً باللعب على وتر اللهجات المحلية في المملكة وما تضيفه من نكهة محببة لعموم المستمعين أو المشاهدين.

في ماضي التلفزيون الرمضاني أيضاً يتذكّر المشاهدون في المملكة المحدّث الممتع الشيخ علي الطنطاوي، الذي قدّم لسنوات طويلة برنامج (على مائدة الإفطار). فبعد رحيل الشيخ فقد برنامجه حضوره في حياة الناس الرمضانيّة، وفقد الناس استطراداته المتجددة اللذيذة التي تبدأ من حقوق المرأة ولا تنتهي عند الصواريخ العابرة للقارّات، فقد كان ما يميّزه ويجمع الناس حول شاشته أنه يتحدّث عن عشرة مواضيع مثلاً في خمس عشرة دقيقة، ثم تنتهي الحلقة وكل الموضوعات مفتوحة على مصاريعها.

ويبقى في حق التلفزيون السعودي رمضانياً حظه الروحاني العظيم في نقل صور وشعائر رمضان من مكة المكرمة والمدينة المنورة، ابتداءً من صور الإفطار الجماهيرية في الحرمين الشريفين، التي توفر لها إمكانات كبيرة على حساب المحسنين، وانتهاءً بالنقل المباشر للصلوات الخمس وصلاة القيام.

وبالنتيجة فإن التلفزيون السعودي يكون في رمضان في أوج نجاحاته: روحانية مكثفة وحضور للإنتاج التلفزيوني المحلي بأوضح وأوسع صوره.

صورة شخصية

لا أحد في المملكة بالذات يقدر على نسيان إطلالة الشيخ علي الطنطاوي في برنامجه التلفزيوني «على مائدة الإفطار» حتى أنه كل ما هل رمضان حلت ذكرى هذا البرنامج ومقدمه الجليل، اللذيذ بأسلوبه واستطراداته. القافلة استضافت هنا ابنته أمان الطنطاوي في ذكريات مختصرة عن حياته من داخل بيته وعن أصدقائه ورمضانياته.

علي الطنطاوي.. على مائدة الإفطار

لكم تساءلت متى تُراني عرفته لأول مرة.. أظن أول مشهد وعته ذاكرتي أطفال يلهون ويلعبون على الشرفة كما كان يسميها الوالد. عمات وأعمام يدخلون ويخرجون، وضيوف، وعمة كبيرة تقطن معززة مكرمة في ذلك البيت، تنادي: يا علي. وعلي ذلك الابن بالنسبة لها، كان معتكفاً في غرفة على السطح، يسهر الليل، ويكتب نبضات نابعة من أعماقه، مقالات تُطبع في الصحف حينها.. كان يكتب مقالاً يومياً في صحيفة الأيام ويلقي حديثاً أسبوعياً يوم الجمعة من إذاعة دمشق.

عرفته حينها، ولكني ازددت معرفة به حين انتقلنا إلى السكن في بيت منفصل، في جبل قاسيون، المطل على دمشق. كنت أراه يغادر إلى المحكمة صباحاً، كان قاضياً في محكمة التمييز، يذهب صباحاً ويعود حوالي الثانية ظهراً. وفي أحيان كثيرة يصحبنا معه بعد انتهاء الدوام الرسمي، نجول في قصر العدل حيث كانت المحكمة. قد يأخذنا معه للمسجد، وقد يشتري لنا بعض الحلوى والألعاب. كنا نُسرُّ بصحبته كما نُسرُّ بعودته إلى البيت، ذلك أن الوالد حين يعود من المحكمة كان ينادي يا أولاد، ومعلوم أننا بنات، ولكن الوالد، رحمه الله، كان دائماً ينادينا يا أولاد، ويدعونا إلى الانضمام إليه في غرفة الجلوس. كان، يرحمه الله، يتبع نظاماً في طعامه بأن يأكل كل أربع ساعات كمية محددة ونوعاً واحداً غالباً، وبعدها يطلب الشاي الأخضر الذي كان صنعه من اختصاصي.

ما عرفته خرج مساءً أبداً، حتى لو خرجت الوالدة إلى زيارة النساء المعتادة. كان يبقى جالساً معنا، وكانت من أمتع الجلسات طالما حدثنا خلالها عن الجنة وما فيها، وقصّ علينا قصص الأنبياء، وعن ما وعد به الله سبحانه وتعالى عباده الصالحين.. ثم يعود لكتبه وقراءاته، وهو خلال ذلك مستعد للإجابة عن كل أسئلتنا. أما إذا نام خلال ذلك الوقت فعلينا التزام الهدوء التام. حذار من فتح الأبواب بشدّة، حذار من رن الجرس، حذار من الصوت العالي، ولو حصل وصحا على صوتنا كنا نتألم كثيراً لأنه يبدو مستاءً. نظرته كانت كافية.. ما وعيته عاقب عقاباً محدداً في حياته، لم يكن قاسياً ولكنه في أحيانٍ كثيرة كان جارحاً ثم يندم فيراضينا.

علَّمنا احترام المعلمات والمدرسات ولكنه رغم ذلك كان ينصفنا لو تضايقت إحدانا من أمر ما في المدرسة. وكان يختلف اختلافاً كبيراً عن معظم الآباء والأمهات الذين يهتمون بدرجات أبنائهم في المدارس ونتيجة الامتحان. فهذا لم يكن يشكل عنده أهمية، فلو أرسلت المعلمة تقول: أمان مقصرة في المدرسة، لم يكن يؤذيني أو يغضب كما يفعل بعض أولياء الأمور حالياً بل كان يقول: يا أمان أحضري كتاباً من المكتبة، فإذا أحضرت الكتاب قال: افتحيه واقرئي الصفحة الفلانية. فإذا قرأتها طلب مني أن أكتب بعض الكلمات غيباً، بعدها يلتفت إلى والدتي ويقول: (يا عايدة هالبنت ممتازة)!! هكذا كان تقييمه لمقدرتي الدراسية!!

كنت في السنة الخامسة ابتدائي حين ذهب الوالد والوالدة إلى الحج فقررت أن أفاجئهما بحجابي. وقد فعلت، لأننا الأخوات الخمس تحجبنا برغبتنا وبتشجيع الوالدين، لكن أحداً منهما لم يجبرنا على الحجاب، وقد كانت هذه من الطرق التربويّة الناجحة، فقد أحببنا الصلاة والصيام، وقراءة القرآن بالقدوة، والكلام غير المباشر دون إجبار.

أما قراءات الوالد فكانت منوعة، مكتبته كانت تحوي العلم، والأدب، والفقه، والفكر. وكان يقول: لو قالوا لي إختر عشرة كتب لاخترت أحدها كتاب "دع القلق وابدأ الحياة" ولكنه كان يقول إن الأصح: دع الهم وابدأ الحياة.. فنشأنا جميعاً نحب القراءة مثله. فقد كان يقرأ كل يوم عدداً من الساعات. وإذا لم يقرأ كان يمارس نشاطاته، وأحبها إليه رياضة المشي، وطالما أخذنا أنا وأختي يمان وبعض أقربائنا فنبدأ المشي دون تخطيط.

جانب آخر لا بد من ذكره. حين وصل (التلفزيون) للشام لأول مرة، أحضره لنا الوالد. سمح لنا بمشاهدة أشياء ومنع مشاهدة أشياء، كنت أكتب له كل يوم الفقرات التي ستعرض فيكتب إلى جانب كل فقرة نعم أو لا. ثم أصبحت في ما بعد أكتب الفقرات وأكتب الموافقة أو الرفض ثم أعطيها إياه ليراها فيوافقني. كان واثقاً أنه إذا منعنا امتنعنا فلم يكن يلح أو يراقب بعد المنع.

ثم إني ما عرفته يقابل أحداً إلا يوم الجمعة حيث كان يصلّي في جامع دنكز ثم يبقى مع صاحبيه، الأول صاحب الطفولة والشباب والفكر سعيد الأفغاني، يتيم الوالدة مثل الوالد، والثاني الشيخ عبدالغني الدقر ابن الشيخ علي الدقر الذي جمعه بهما يُتْم الوالدة كذلك. ثم حُب الثلاثة للأدب والفكر والنقاشات العلمية والفكرية. كان ثلاثتهم يتغدون معاً.

ثم مرت الأيام وجئنا مكة المكرمة. سكنّا بجانب الحرم وأصبح الوالد كل يوم يجلس في الحرم من بعد العصر إلى ما بعد العشاء. كانت له جلسة دائمة تحت سدة المؤذنين مقابل الحجر الأسود. يتجمع حوله الشباب والكهول والمحبّين، وتجري أحاديث ومناقشات ولقاءات.

فإذا عاد إلى الشام صيفاً التقاه الأحبّة بشوق إلى جلساته والاستفادة من علمه. كان يلقاهم كل يوم جمعة في مسجد الخير في دمشق فيسألونه ويجيبهم، ثم يعود إلى منزله حيث كان يحب الجلوس على الشرفة ومشاهدة الشام التي أحبها حباً كبيراً وفيها كتب معظم كتاباته الأدبيّة وكتبه الكثيرة. كان يكتب كلما جاءته الخاطرة، قد يكون جالساً وإلى جانبه الورقة والقلم. أو يكون في سريره نائماً فتوقظه الفكرة فيمسك القلم ويخطها على الورق. فقد كان يربط القلم إلى جانب سريره حتى إذا جاءت الفكرة كتبها قبل أن تطير.

كان أيضاً حريصاً وحكيماً في تعامله مع الأطفال. سأله ابني طارق مرة وكان صغيراً: لو سقينا الزرع هل ينزل الماء على الشياطين لأنهم تحت الأرض؟ فأجابه باهتمام: من قال لك أنهم تحت الأرض؟ إنهم في كل مكان لكنك لا تراهم كالهواء الذي تستنشقه، هل تراه أو تمسكه؟ وهم كذلك، لا جرم لهم لكنهم موجودون، فتعوذ منهم دائماً.

أذكره أكثر ما أذكره في رمضان، ورمضان في الشام خاصة، حيث كان الشتاء والمدفأة.. نستيقظ ليلاً لنجلس بجانب المدفئة نأكل.. كان الوالد حريصاً جداً أن نأكل أكلاً مغذياً وكنا بعد السحور نجلس بجانبه وهو يتلو القرآن بصوت طالما أحببته وخشعت لصوته، خاصة وهو يقرأ أواخر سورة البقرة ﴿ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا...﴾. أما في المغرب فكنا نفطر معاً ثم كان يُحضر جميع أفراد العائلة فنصلّي التراويح في جماعة. ولما حضرنا مكة صرنا نصلي في الحرم الفجر والعشاء والتراويح.

لا أذكر أننا اهتممنا في رمضان أو اهتم الوالد بأكلات معينة، كان رمضان عنده كباقي الأيام. لكن أهل الشام جميعاً يهتمّون في رمضان بعصيراتهم المفضّلة مثل التمر هندي وقمرالدين والشوربة والتسقية، أمّا الوالد فكان دائماً يهمه الأكل المغذّي المنوّع. ولطالما ارتبط رمضان في أذهاننا وأذهان محبّي الوالد جميعاً بحديث على مائدة الإفطار الذي كان يسجله في جدّة.

رحم الله الوالد ورحم أيّامه، وأسأل الله أن يمكنني فأكمل هذه الذكريات في كتاب يضم أثره الكبير في حياتنا..

بعد أكثر من قرن على اختراعها ورواجها عالمياً، لا تزال الإطارات المستعملة تمثِّل مشكلة بيئية عالمية، تتضخم بتضخم أعداد السيارات، حتى تحولت في معظم البلدان إلى كابوس حقيقي.
فريق التحرير يعرض لنا التحديات التي يواجهها العالم في تعامله مع هذه المشكلة، والوسائل المختلفة المتاحة للتخلص منها مثل الطمر، الحرق، وإعادة التدوير..

الإطارات المستعملة

مشكلة تَلفُّ العالم

لم يكن يجول في خاطر جورج دانلوب أن اختراعه الذي قدمه إلى العالم عام 1888م سيتحول إلى إحدى المشكلات التي يجب على الأجيال اللاحقة مواجهتها والتعامل معها.

فقد أوجد هذا الطبيب البيطري الإنجليزي بديلاً للإطارات الحديدية والخشبية، فحلّت الإطارات المطاطية المنفوخة محلها في العربات التي تجرها الخيول، ثم السيارات لاحقاً، فالآليات والمعدات والدراجات والعربات اليدوية وصولاً إلى الطائرات.

وعلى الرغم من مساعي تطوير صناعة الإطارات ونجاحها الجزئي هنا أو هناك، فإن اختراع دانلوب بأساسياته الفيزيائية والكيميائية، سيبقى إلى أمد غير معروف. وهذا ما يعني تصنيع المزيد من الإطارات واستخدامها، ثم الاستغناء عنها.. أي إضافة أعباء جديدة على بيئة الأرض الهشّة.

حجم المشكلة

ينتهي عمر الإطار فيتم استبداله بآخر جديد – ولكن إلى أين يذهب الإطار التالف؟

لا يعتبر جمع الإطارات المستعملة من على جنبات الطرق وورش صيانة السيارات حلاً، بل مدخلاً إلى الفصل الأخير من المشكلة. والمشكلة ليست صغيرة.

ففي الولايات المتحدة الأمريكية يتم دفن 280 مليون إطار سنوياً في الأرض، كما أن هناك جبلاً مصنوعاً من ثلاثمائة مليون إطار لم يتم التخلص منها بعد. وفي ولاية نيويورك وحدها يرمي الناس 12 مليون إطار سنوياً تحوي من الطاقة ما يوازي ثلاثة ملايين برميل من النفط، وفي بريطانيا هناك حوالي 50 مليون إطار من أحجام مختلفة يجب التخلص منها سنوياً بشتى السبل. وفي المملكة العربية السعودية يقدر حجم السوق بـ 23 مليون إطار.. وقد لا تتوافر إحصاءات دقيقة عن بعض الدول، غير أن تصور أعداد السيارات في كل بلد ومعرفة أساليب معالجة الإطارات المستخدمة قد يساعد في تكوين فكرة عن حجم المشكلة عالمياً.

لمعظم أشكال معالجة الإطارات المستعملة تداعيات بيئية واقتصادية وصحية وحتى قانونية. فقد أقر الاتحاد الأوروبي مثلاً قانوناً يمنع دفن الإطارات في الأرض بحلول العام 2006م، علماً بأن حجم الكابوس الأوروبي في هذا المجال يبلغ مليونين و 400 ألف طن من الإطارات سنوياً. كما أن المحاكم الأوروبية باتت أكثر تشدداً في أحكامها على الأشخاص الذين يجمعون الإطارات ويرمونها كيفما اتفق في الأراضي المحيطة بالمدن الكبرى.

أساس المشكلة.. في صناعته

قبل الحديث عن الإتلاف والتدوير، لا بد من لمحة سريعة عن صناعة الإطار نفسه وما يدخل فيها وكيف يُصنَّع. فالإطار ليس مطاطاً صرفاً كما قد يعتقد القارئ. وإنما تدخل في صناعته 20 مادة كيميائية على الأقل. وتشمل هذه المواد المطاط الطبيعي والصناعي والبوليستر والنايلون والكبريت وسواد الكربون والزيوت والأصماغ، إضافة إلى الألياف والأسلاك المعدنية، والهدف من هذا الخليط هو جمع القوة والمتانة إلى المرونة اللازمة للثبات على الطرق مهما كانت العوامل الطبيعية.

وفي المراحل الأخيرة من صناعة الإطار تُضاف مادة الكبريت إلى الخليط السائل، فيتجمد ويصبح قاسياً خلال عشرين دقيقة، والتفاعل الكيميائي الناتج عن إضافة الكبريت هو ما يعقّد إعادة تفكيك الإطار إلى مكوناته الأصلية.

أول الحلول: حرقها؟

أول الحلول للتخلص من الإطارات هو في إحراقها للاستفادة من طاقتها الحرارية. فقد أظهرت الاختبارات أن حرق كيلوغرام واحد من مادة الإطارات ينتج عنه حوالي 31,000 وحدة حرارية. لذلك أصبحت الإطارات واحداً من أنواع الوقود الرئيسة التي تستعمل داخل أفران معامل الأسمنت وتشكل على وجه التحديد نسبة 30 في المئة من وقود هذه الأفران، جنباً إلى



المحترف السعودي

جنب مع الفحم وأنواع الوقود الأخرى. ويتميز وقود الإطارات بأن نسبة الرطوبة فيه متدنية وناتجه الحراري غير متقلب ويمكن حسابه بدقة. على أن التجربة أثبتت أنه لا يجب تجاوز نسبة الـ 30 في المئة المذكورة إذ أن ذلك يؤثر على تركيبة الأسمنت نفسه خلال عملية التجفيف.

أما استعمال الإطارات في أفران الأسمنت فيمكن أن يأتي على صورتين: إما حرق الإطارات كاملة كما هي أو حرقها بعد معالجتها. والفرق بين الاثنين أن الناتج الحراري في الحالة الثانية أعلى. على أن حرق الإطارات كاملة له حسنات عدة من وجهة نظر أصحاب المعامل. أولها وأغربها أن أصحاب المعامل يتقاضون من موردي الإطارات رسوماً ليقوموا بإحراق إطاراتهم بدلاً من أن يدفعوا ثمن الإطارات كوقود. كأن تملأ سيارتك بالبنزين ثم تقبض من صاحب المحطة بدلاً من أن تدفع له! الحسنة الثانية هي أن التحقق من وزن الإطارات عملية بسيطة جداً ولا تحتاج إلى تقنية عالية. الحسنة الثالثة أن توريد الإطارات للمعامل هو أيضاً عملية بسيطة ومباشرة. إذ يكفي تحميل الإطارات على شاحنة ونقلها إلى المعامل دون التدابير التي قد تتطلبها أنواع الوقود الأخرى. أما من الناحية البيئية فإن احتراق الإطارات في درجة حرارة عالية (1400 درجة مئوية تقريباً) يعتبر وسيلة إتلاف فعالة وذات تأثيرات بيئية محدودة. وقد أثبتت الاختبارات أنه ليس للانبعاثات الناتجة عن إحراق الإطارات تأثيرات أكثر سلبية من تلك الناتجة عن احتراق الفحم. بل إن هناك بعض التحسّن بالنسبة إلى كمية الجزيئات وبعض الغازات الملوثة للهواء. وهناك أيضاً حسنة اقتصادية مهمة لا يمكن إغفالها. فالرماد الناتج عن احتراق الإطارات يعاد استعماله في تصنيع الأسمنت نفسه نظراً لاحتوائه على مادة الحديد الناشئة عن احتراق الأسلاك الداخلية في تركيب الإطار. وكانت هذه المادة تضاف بشكل منفصل إلى الأسمنت أثناء عملية التصنيع.

الطمر الشائع حالياً يتجه صوب المنع، والبديل لا يزال مجهولاً

أما الطريقة الأخرى لإتلاف الإطارات فهي الحرق المباشر أي في مساحات مكشوفة في الهواء الطلق. وقد دلّت الأبحاث المستفيضة التي أجريت أن المطاط يحتوي على مواد مسببة للسرطان وأخرى لإحداث تغييرات في التركيبات الجينية. لذلك فإن المواد الكيماوية المنبعثة جراء الاحتراق ستكون ذات عواقب بيئية وصحية سيئة. ينطبق هذا أيضاً على عملية الاحتراق غير الكامل وغير المباشر. فقد أثبتت التجارب التي أجريت أن المواد الكيماوية الناتجة عن الاحتراق البطيء للنفايات المطاطية تزيد نسبتها من ثلاثة إلى أربعة أضعاف عن تلك الناشئة عن احتراق المواد الأخرى مثل النفط والفحم والخشب، لكن نسبة هذه المواد تكون أقل عندما يكون الاحتراق داخل حيّز مغلق كالمراجل ومحارق القمامة. وعدا تلويث الهواء فإن إحراق الإطارات المباشر يتسبب أيضاً بتلويث التربة. فالمطاط السائل الناتج عن عملية الاحتراق وما يحتويه من زيوت يتسرب في عمق التربة مسبباً تلوثها وتدهور نوعيتها. فإذا أضفنا عنصر الماء إلى الإطارات المشتعلة فإن هذا التسرب يصبح أسرع وأعمق، وقد يؤثر على الماء في باطن الأرض.

هذه الحلول بما في ذلك دفن الإطارات في الأرض، تحمل في طياتها تأثيرات سلبية على البيئة ولو بدرجات متفاوتة. كذلك فإن الحلول الحقيقية هي تلك التي تكفل التخلص من الإطارات من دون تلوث بيئي ومضاعفات سلبية أخرى وذلك بالابتعاد عن المعالجات القائمة على التفاعلات الكيميائية وما ينبعث منها من إفرازات. والحلان الأكثر اعتماداً الآن - إلى جانب الحلول الآنفة الذكر، هما إعادة التأهيل والتفتيت.

إعادة التأهيل

تتم إعادة تأهيل الإطارات بإعادة بناء الطبقة الخارجية للإطار، فيعود صالحاً للاستعمال لفترة جديدة. وهذا الحل يؤجل مشكلة الإتلاف ولا يحلها. أي أنه يخفّض عدد الإطارات الواجب إتلافها. وبالإضافة إلى الفوائد البيئية لهذا الحل، فإن له فوائد اقتصادية بالنسبة للمستهلك أيضاً نظراً لأن سعر الإطار المستصلح أقل من سعر الإطار الجديد.

هذه الوسيلة معروفة في المملكة وتسمى "التلبيس". ولكن فضلاً عن أن عدد المصانع المتخصصة في هذا المجال قليل نسبياً، فإن نطاق أعمالها أيضاً ضئيل، ويكاد يقتصر على إطارات الشاحنات والآليات الكبيرة، في حين أن الشكوى الحقيقية تأتي أكثر من إطارات السيارات الصغيرة التي يبلغ متوسط عمرها الافتراضي عامين في أحسن الأحوال، نظراً للمناخ الحار الذي تتصف به المملكة.

التفتيت وإعادة التدوير

إن تفتيت الإطارات هو حالياً الأوسع انتشاراً، ويقوم على تفتيت الإطارات أو فروعها إذا صحّ التعبير إلى أجزاء مختلفة. ويعتبر هذا الحل نظيفاً تماماً من الناحية البيئية لأنه لا ينطوي على معالجات كيميائية وما ينتج عنها من آثار سلبية. ولهذا الفتات أو الحبيبات المطاطية استعمالات واسعة ومتعددة، كما أن هذه الاستعمالات تزداد بمرور الزمن وتطور التقنيات. فهي تستعمل اليوم لملء الفراغات أو الفجوات، وفي المركبات المطاطية، وفي إنتاج المادة الأسفلتية وحتى في صناعة الإطارات الجديدة. وقد أثبتت الدراسات مثلاً أن الطرق المسفلتة بالأسفلت المضاف إليه الفتات المطاطي تبقى صالحة للاستعمال لمدة خمس سنوات أطول من تلك المسفلتة بالطريقة العادية. وقد بلغ من نجاح هذه المادة أن استهلاك السوق الأمريكية وحدها منها بلغ في الخمس سنوات الأخيرة حوالي 1.5 مليون طن، كما أن الصناعات قد زادت من استثماراتها الهادفة إلى تطوير التقنيات المتعلقة بإنتاجها وتطويعها لاستعمالات جديدة.

والواقع أن الجهود الرامية إلى إيجاد سبل لإعادة تدوير الإطارات المستعملة أثمرت بنسب متفاوتة في أماكن مختلفة من العالم، سعياً وراء هدفين: الاستفادة من المادة نفسها، وتلافي الآثار البيئية الناجمة عن الحرق، أو الطمر الذي لا يزال الأكثر شيوعاً في معظم الدول العربية بما فيها المملكة العربية السعودية.

وهناك دول عدة وجدت في إعادة التدوير مورداً اقتصادياً إضافياً مثل ماليزيا التي صممت برنامجاً صناعياً يستورد هذه المخلفات من الدول الأخرى ويعيد تصنيعها. والحال مشابه في جنوب إفريقيا التي وجدت في الصناعة الجديدة حلولاً اقتصادية حقيقية خاصة في مواجهة البطالة. ويمكن أن ينتج عن عمليات إعادة التدوير مواد جديدة مثل الوسائد المطاطية، وتلبيس الأنابيب، والقرميد المطاطي، فضلاً عن استخدامها في رصف الطرق والمسطحات الرياضية، وصناعة صناديق القمامة. وفي بعض دول جنوب آسيا ونيوزيلندة تستخدم الإطارات كمصدات للأمواج.

وهناك تجربة أمريكية خرج بها باحثون من ولاية أوهايو لإعادة استخدام ملايين الإطارات، حيث يمكن تحويل هذه الإطارات إلى كرات في مثل حبات العنب واستخدامها في مشروعات إنشاء الصرف المائية. وتحقق هذه الصناعة الاستفادة من 80% من الإطارات التالفة.

وفي السنوات الأخيرة ظهرت طريقة التدوير بالمعالجة الحرارية recycling process of pyrolysis وهي تستخدم الحرارة بدون أكسجين. وتقوم أسس هذه الصناعة على تكسير الإطار بدلاً عن حرقه، لإنتاج غاز وزيت تاركاً وراءه فضالة من الكربون والحديد وكلاهما يمكن إعادة تدويره بالطرق المعروفة. أما الزيت الناتج من هذه العملية فيحتوي على مركبات كيماوية كالبنزين والتولوين والزيلين والليمونين وجميعها تستخدم في الصناعات الكيماوية، وبصفة خاصة في صناعة المطاط والمبيدات الحشرية والصيدلانيات والمتفجرات، ولعل المأخذ الوحيد على هذه الطريقة هو أنها باهظة التكلفة.



ويدرس علماء اسكتلنديون نوعاً من البكتريا يقولون إنها تستطيع مع الزمن أكل تلك الإطارات. وهذه البكتيريا توجد بصورة طبيعية في مناجم الفحم ومواقع إنتاج النفط. ويمكنها إلغاء فلكنة الإطارات devocalize tyres بالتهام الكبريت الموجود فيها. وقد استطاع العلماء الاسكتلنديون في جامعة نابيير Napier عزل هذه البكتيريا من الفحم.

مصافحة بيئية

ختاماً يمكن القول أن الطبيب البيطري ليس مسؤولاً عن اختراعه بيئياً، بل إن العالم مدين له باختراع صديق على الطريق. هذا العالم هو المسؤول عن تحقيق الصداقة بين الإطارات وبين البيئة. وهذه الصداقة لن تتم بمصافحات الصناعيين في المؤتمرات الدولية، أو الاجتماعات التجارية، ولن تتم بتوصيات البيئيين وصراخ قلقهم في الأبحاث والدراسات.. إن المصافحة يجب أن تتم بين أبناء البشر جميعاً: حكومات ومؤسسات ومصانع وسائقين أيضاً..!



قلائل هم الذين سمعوا حتى اليوم بتكنولوجيا النانو. أما غداً، فستكون على كل لسان. فما هي هذه التكنولوجيا الجديدة، التي يرى فيها بعض العلماء تطوراً لم يسبق له مثيل في تاريخ العلم؟ الزميل أمين نجيب يعرفنا على هذا الموضوع بهذه التقنية، ويعرض لنا بعض الآفاق التي قد تفتحها بكل ما فيها من وعود وآمال ومخاوف..

تكنولوجيا النانو..

الوعود كبيرة والمخاوف أيضاً

اريك دريكسلر مؤسس علم النانو الحقيقي

يقول التحديد البسيط لـ "تكنولوجيا النانو" أنها مجموعة تقنيات حديثة تقوم على التلاعب بالذرات والجزيئات ومركباتها، واستخدامها لصنع مواد جديدة أو لتغيير خصائص مادة موجودة، وأيضاً صناعة آلات صغيرة لا يتعدى حجمها حجم الفيروس.

ولا يعبّر هذا التحديد رغم بساطته وسهولته عن الأهمية العلمية والتطبيقية لهذه التكنولوجيا الجديدة، نظراً إلى ما تنطوي عليه من قدرات وآفاق مثيرة للدهشة والقلق، بدأت طلائعها بالظهور منذ فترة وجيزة، ويتوقع معظم العلماء أن تسيطر على جميع نواحي الحياة في غضون سنوات قليلة مقبلة.

ما هي تكنولوجيا النانو؟

يشتق مصطلح تكنولوجيا النانو من "النانومتر". والنانومتر هو مقياس مقداره واحد من بليون من المتر، أو واحد من مليون من المليمتر، أي أنه أصغر بنحو عشرة آلاف مرة من قطر شعرة إنسان. وهو المقياس الذي يستخدمه العلماء لقياس الذرات والإلكترونات التي تدور حول نواة الذرة، وكل نانومتر يساوي على سبيل المثال 7 إلى 10 ذرات هيدروجين.

وإيضاحاً لبعض التعابير الواردة لاحقاً في هذا الموضوع، لا بد من الإشارة إلى تعبيرين أساسين: "النانو جزئي" (NANO PARTICLE)، ويتألف من مجموعة ذرات منظمة صناعياً لغاية معينة، وهي أصغر من ألف نانومتر، أي بحجم فيروس واحد، وصناعة "النانو جزئي" أصبحت حقيقة واقعة، وهو يستعمل اليوم في الكثير من المواد الاستهلاكية الموجودة في الأسواق. أما التعبير الثاني فهو "نانو بوت" (NANOBOT) أو الآلة الذكية شبيهة الإنسان الآلي، غير أن حجمها يبقى أقل من 10,000 نانومتر، أي بحجم البكتيريا الواحدة.

وعندما نشير إلى أن المسافة بين الذرات ومركباتها، أو بين بعضها البعض هي ما يعطي خصائص هذه المادة أو تلك، فإن النانوبوت يتولى مهمة تعديل هذه المسافات ورصفها من جديد بغية تحويل المادة إلى مادة أخرى. ولهذا صار النانوبوت يحمل اسماً آخر: "الراصف".

تاريخها

يعود الاهتمام النظري بتكنولوجيا النانو إلى العام 1959م، عندما تحدث عالم الفيزياء الشهير ريتشارد فاينمان أمام الجمعية الأمريكية للفيزياء عن ترتيب الذرات، مشيراً إلى أنه "يوجد مكان واسع هناك في القاع"، وتطرق إلى إمكانية التلاعب بالذرات ومركباتها كما يحلو لنا.

أما التأسيس الفعلي لهذا العلم فيعود إلى العام 1986م، عندما وضع عالم الرياضيات الأمريكي اريك دريكسلر كتاباً سمّاه "محركات التكوين" شرح فيه أسس تكنولوجيا النانو. وتقوم هذه الأسس على أن الكون وكل ما فيه مؤلف من ذرات وجزيئات، وأنه من الممكن نشوء تكنولوجيا قادرة على السيطرة على هذه المكونات. فإذا عرفنا تركيب أية مادة يمكننا صنعها من مادة أخرى، وذلك برصف مكوناتها الذرية كما يجب أن تكون في المادة المطلوبة. فعلى

سبيل المثال أن الماس مكون من ذرّات الفحم وجزيئاته. ونظرياً، من الممكن تفكيك الفحم العادي، ثم إعادة رصّ الذرات لصناعة الماس. ويقول بعض الباحثين إن الاحتمالات تبدو أوسع من أن يحيط بها الخيال، إنه انقلاب جذري في العلاقة بين الصناعة والمواد الأولية، بل ومجمل نظام التبادل الاقتصادي العالمي.

وتزايد الاهتمام بتكنولوجيا النانو خلال التسعينيات من القرن الماضي. ففي سنة 1995م ذكرت كلمة "نانو" حوالي 200 مرة في مختلف المطبوعات العلمية. وازداد هذا الرقم إلى 4000 مرة في سنة 2002م وحدها.

وذكر ريتشارد سمولر، وهو كيميائي حاصل على جائزة نوبل لاكتشافه نانو أنابيب الكربون ذات الأهمية، أن ميزانية علوم وتكنولوجيا النانو تقع على رأس الميزانيات في الولايات المتحدة وبريطانيا، والتي بلغت سنة 2002م أربعة مليارات دولار. وقد سجل حوالي 3000 براءة اختراع منذ 1996م تتعلق بهذا الموضوع. ويقدر الخبراء سوق النانو في المستقبل القريب بحوالي ترليون دولار في السنة.

الصناعة التي بدأت فعلاً

دخلت صناعة النانو حيز التطبيق في مجموعة من السلع التي تستخدم نانو جزيئات الأوكسيد على أنواعه، والألومينيوم والتيتانيوم وغيرها، خصوصاً في مواد التجميل والمراهم المضادة لأشعة الشمس. فهذه النانوجزيئات تحجب الأشعة فوق البنفسجية UV كلها ويبقى المرهم في الوقت نفسه شفافاً. وتستعمل في بعض الألبسة كمضاد للتبقع. وقد تمكن باحثون في جامعة هانغ يانغ في سيول من إدخال نانو فضة إلى مضادات حيوية. ومن المعروف أن الفضة قادرة على قتل حوالي 650 جرثومة دون أن تؤذي الجسم البشري. وسيُنزل عملاق الكومبيوتر "هاولت باكارد" قريباً إلى السوق رقاقات يدخل في صنعها نانو إليكترونات قادرة على حفظ معلومات أكثر بآلاف المرات من الذاكرة الموجودة حالياً. وقد تمكن باحثون في IBM، وجامعة كولومبيا، وجامعة نيو أورليانز من تملق وجمع جزيئين غير قابلين للاجتماع إلى بلور ثلاثي الأبعاد. وبذلك قد تم اختراع مادة غير موجودة في الطبيعة: ماغنيسيوم مع خصائص مولدة للضوء مصنوعة من نانو أوكسيد الحديد محاطاً برصاص السيلينايد، وهذا هو نصف موصل للحرارة قادر على توليد الضوء.

وهذه الميزة الخاصة لها استعمالات كثيرة في مجالات الطاقة والبطاريات. وقد أوردت مجلة الإيكونوميست مؤخراً أن الكلام بدأ عن مادة جديدة مصنوعة من نانو جزيئات تدعى "قسم" Quasam (كأنها كلمة عربية) تضاف إلى البلاستيك والسيراميك والمعادن فتصبح قوية كالفولاذ خفيفة كالعضام وستكون لها استعمالات كثيرة خصوصاً في هيكل الطائرات والأجنحة، فهي مضادة للجليد ومقاومة للحرارة حتى 900 درجة مئوية.

وتقول مجلة "نايتشر": "إن صناعة آلات صغيرة بحجم ما دون المليمتر بكثير هي في السوق الآن. والخطوة الثانية التطبيقية هي نانو آلات التي أصبحت حقيقة واقعة في المختبرات الآن، طولها لا يتعدى 300 نانومتر واستخداماتها كثيرة في أنظمة الرؤية والميكانيك والبيولوجيا والكيمياء.

وأنشأت شركة كرافت Kraft المتخصصة في الأغذية السنة الماضية "اتحاداً لأقسام البحوث العلمية لاختراع مشروبات مبرمجة. فقريباً يمكننا شراء مشروب لا لون له ولا طعم يتضمن نانو جزيئات للطعم واللون. عندما نضعه في الميكرويف على تردد معين يصبح عندنا عصير الليمون، وعلى تردد آخر يصبح هو نفسه شراب التفاح، إلخ..

ويقول أريك دريكسلر "ليس هناك من حدود، استعدوا للرواصف الذين سيبنون كل شيء، من أجهزة التليفزيون إلى شرائح اللحم بواسطة تركيب الذرات ومركباتها واحدة واحدة كتقطع القرميد. بينما سيتجول آخرون في أجسامنا وفي مجاري الدم محطمين كل جسم غريب أو مرض عضال، وسيقومون مقام الأنزيمات والمضادات الحيوية الموجودة في أجسامنا.. سيكون بإمكاننا إطلاق جيش من الرواصف غير المرئية لتتجول في بيتنا على السجاد والرفوف والأوعية محولة الوسخ والغبار إلى ذرات يمكن إعادة تركيبها إلى محارم وصابون وأي شيء آخر بحاجة إليه".

انتقادات وردود

كما يحصل دائماً عند كل تطور علمي أو تكنولوجي، تبرز انتقادات وتنتشر مخاوف. كما حصل في الثورة الصناعية الأولى، وعند اختراع الكومبيوتر والهندسة الوراثية وغيرها وغيرها.. وتتركز الانتقادات هنا على عنصرين: الأول هو أن النانوجزيئات صغيرة جداً إلى الحد التي يمكنها من التسلل وراء جهاز المناعة في الجسم البشري. وبإمكانها أيضاً أن تسل من خلال غشاء خلايا الجلد والرئة. وما هو أكثر إثارة للقلق أن بإمكانها أن تتخطى حاجز دم الدماغ. وفي سنة 1997م أظهرت دراسة من جامعة أوكسفورد أن نانو جزيئات ثاني أوكسيد التيتانيوم الموجودة في المراهم المضادة للشمس أصابت الحمض النووي DNA للجلد بالضرر. كما أظهرت دراسة في شهر مارس الماضي من مركز جونسون للفضاء والتابع للناسا أن نانو أنابيب الكربون هي أكثر ضرراً من غبار الكوارتز الذي يسبب السيليكوسيس وهو مرض مميت يحصل في أماكن العمل. وثاني المخاوف هي أن يصبح النانوبوت ذاتي التكاثر، أي يشبه التكاثر الموجود في الحياة الطبيعية فيمكنه أن يتكاثر بلا حدود ويسيطر على كل شيء في الكرة الأرضية.

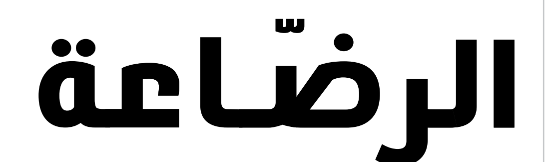
كل مادة تتألف من ذرات وجزيئات، ويمكن تحويلها إلى مادة أخرى من خلال إعادة ترتيب هذه الذرات كما نريد

وكما يقول بعض العلماء، "ففي حقل النانو نحن نمزج بين الفيزياء التقليدية التي تحكم حياتنا اليومية بفيزياء الكم التي تعمل على مستوى الذرات، والتي لها خصائص غريبة الأمر الذي قد يؤدي بالإنسان إلى أوضاع غير معروفة. ويرد الآخرون أن لكل مشكلة حلاً، ويذكرون بفيروس الكومبيوتر، والذي يتكاثر دون أن يكون مادة عضوية، والذي كان في الماضي يثير مخاوف كبيرة.

وقد بدأت منظمات البيئة والصحة العالمية تنظم المؤتمرات لبحث هذه المخاطر بالذات. وعقد اجتماع في بروكسيل في شهر يونية من العام الجاري، برئاسة الأمير تشارلز. وهو أول اجتماع عالمي ينظم لهذا الهدف. كما أصدرت منظمة غرين بيس مؤخراً بياناً تشير فيه إلى أنها لن تدعو إلى حظر على أبحاث النانو.

ومهما يكن، فالإنسان على أبواب مرحلة جديدة تختلف نوعياً، من جميع النواحي، عما سبقها، جديدة بإيجابياتها وكبيرة بسلبياتها. وكما يقول معظم العلماء: "لا أحد يمكنه الوقوف في وجه هذا التطور الكبير، فلنحاول تقليص السلبيات".

قصة ابتكار



متى استعملت البدائل والإضافات للرضاعة الطبيعية للمرة الأولى؟ اكتشفت أقدم رضّاعة صناعية في "فونيكاس" في قبرص سنة 2000 ق.م. وهي موجودة حالياً في المتحف الإنجليزي وتشبه وعاء سكب الشاي المزخرف. كما يضم المتحف أوعية رضاعة من عصور بابلية، رومانية، ويونانية وجدت داخل توابيت ضمَّت بقايا أطفالٍ صغار. شاع في القدم استعمال الفخار لصناعة الرضاعات إلى أن اكتشف المصريون تقنية نفخ الزجاج فظهرت أول رضّاعة زجاجية في مصر حوالي العام 300 ق.م ثم طورها الرومان فصنّعوها من زجاج صافٍ خالٍ من الشوائب. لكن يبدو أن الرضاعات الزجاجية قد اختفت منذ ذلك الحين حتى عادت إلى الظهور في أواسط القرن التاسع عشر.



أظهرت بعض المنحوتات الخشبية من القرنين الثالث عشر والرابع عشر، صور أطفال يرضعون من رضّاعات على شكل أبواق تشبه القفازات مصنوعة من الجلد، أو من حلمات البقر بعد تشفيها وحشوها بالقماش أو الأسفنج. كان طعام الأطفال يقدم في وعاء خاص يشبه المركب، مصنوعاً من الخشب أو الفضة أو العظم أو البورسلان أو الزجاج. كثرت الابتكارات في القرن الثامن عشر بفضل تطور الصناعة وأساليب الإنتاج؛ فظهرت أشكال متنوعة من الرضاعات اتخذت بعض أشكال الحيوانات الأليفة كالبطة مثلاً. وفي سنة 1770م ابتكر الطبيب "هوغ سميث" الـ"بابي بوت" الذي يشبه إلى حد بعيد وعاء الشاي. وانتشر الـ"بابي بوت" بكثرة لتخفيف اعتياد الأطفال على الممرضة المرضعة. والمفارقة أن اختراع الطبيب "هوغ سميث" يشبه كثيراً الرضاعة الأولى التي اكتشفت في قبرص. وبعد تطور علم البكتيريا في أميركا ثبتت الرضاعة الزجاجية أقدامها من جديد لأن الزجاج سهل التنظيف والتعقيم. وقد سجل "شارل ويندشيب" أول براءة اختراع باسمه في الولايات المتحدة عن أول رضاعة صناعية في بداية القرن التاسع عشر سماها "لاكتيل" وكانت تقليداً مبتكراً للثدي. وسُجلت أول رضاعة في بريطانيا عام 1845م، وكانت بيضاوية الشكل مقوسة الرقبة، أما في فرنسا، وفي الوقت نفسه، فقد قدم "داربو" رضاعته الأولى التي سماها "بيبرون" ولا يزال هذا الاسم هو الوحيد المستخدم للرضاعات في فرنسا. أما "اليا برات" فقد سجّل في نيويورك براءة اختراع "الحلمة الهندية" سنة 1845م وكانت أول حلمة بلاستيكية.

في بدايات القرن العشرين أصبح شكل زجاجات الرضاعة مدوراً وقريباً من الشكل المعروف حالياً وانخفض سعرها مما سمح للأمهات بالحصول على عدة رضاعات في الوقت نفسه بعد أن كان ذلك مقتصراً على الأثرياء.

قصة مبتكر

بنجامين تالبوت بابيت

ولد بنجامين تالبوت بابيت سنة 1890م في ولاية نيويورك الأمريكية، وكان الخامس من بين ستة إخوة وأخوات. قضى طفولته في العمل الشاق في مزرعة والده الذي تنقل في عمله من صاحب حانة إلى حداد فملازم في ميليشيا محلية.

تلقى القليل من العلم في المدارس المحلية، إلا أن العمل القاسي أكسبه نمواً جسدياً ساعده لاحقاً في حياته العملية الصعبة. كان فضولياً حتى الهوس، وكان هذا الفضول مصحوباً لحسن الحظ بقدرة على تنفيذ الأفكار.

لم يكن بابيت قد بلغ العشرين من العمر عندما صار خبيراً في صناعة العجلات والمكائن والمبارد. وحين بلغ الثانية والعشرين تمكن من جمع مبالغ كافية لإقامة مشغل للآلات في ليتل فولز، حيث عمل لمدة 12 سنة على إنتاج مضخات ومحركات، كما نجح في اختراع أول آلة لجز العشب، إلا أن فيضاناً قضى على مشغله، مما دفعه إلى الانتقال إلى نيويورك.

كان على بابيت أن يبدأ في نيويورك من الصفر. وكانت الانطلاقة من إنتاج الأملاح (الملح الفوار والصوديوم وخميرة الصودا) من خلال عملية مبتكرة ليتم بيعها على شكل عبوات. ومكنته هذه الطريقة من السيطرة على هذا النوع من العمل في البلاد. وما لبث أن ابتكر بيكربونات الصودا، ومسحوق الصابون وأنواعاً مختلفة من الصابون، راجت كلها في الأسواق.

كان بابيت نابغة في فن الإعلان، وأصبح اسمه على كل لسان. ويُروى أنه التقى ماسح أحذية يحمل اسمه، وحين أراد مجاملته قال بابيت للصبي أن اسمه أيضاً بنجامين تالبوت، فنظر إليه الفتى بدهشة وقال له: أنت أيضاً اختارت أمك اسمك عن علبة الصابون!

عبقريته لم تكن محدودة في حقل الابتكار، علماً بأنه اخترع معظم الآلات التي استخدمها في صناعة منتجاته. وتشير دراسة لمكتب تسجيل براءات الاختراع إلى تنوع لا محدود في موهبته. فقد فاقت ابتكارات بابيت المئة مادة بما في ذلك طواحين هواء، ومدافع هوائية وآلات للتهوئة، وصفائح معدنية واقية، وأدوات تعمل على البخار، ومراكب للأقنية المائية، وآلات لصنع الثلج. ويرجع إليه الفضل في إطلاق أول فكرة لإمكانية استغلال شلالات نياغارا كمصدر للطاقة.

حين توفي بنجامين تالبوت بابيت في العام 1889م، ترك وراءه سجلاً من الصعب مجاراته في الحياة الأمريكية من قبل أصحاب الأعمال الناجحة.



ظاهرة تشابك الحواس عضوية

للأشكال طعم.. للأرقام لون

تشابك الحواس ليس مرضاً، ولكنه نمط خاص من رؤية الأشياء والإحساس بها عند بعض الأفراد. وحتى وقت قصير مضى، كان الطب يردّ هذه الظاهرة عند البعض إلى أسباب نفسية وسلوكية. ولكن الأبحاث الأخيرة أكدت أن الأمر يعود إلى عوامل عضوية وجينية.

مراسلنا في لندن رياض ملك، يوضّح لنا ما هية تشابك الحواس، وآخر ما توصل إليه الطب في هذا الشأن.

هل يحدث أن تنظر إلى الأرقام فتراها بألوان معينة؟ أو ترى مربعاً أو مستطيلاً فيثير فيك رائحة البرتقال؟ أو تسمع موسيقى من نوع ما فتتراءى لك أشكالاً وألواناً ليست أمامك؟ إذا كانت هذه حالتك، فأنت تعاني مما يطلق عليه أهل العلم اسم سينستيزيا (Synesthesia) وهي كلمة مركبة من مفردتين تعنيان باللاتينية "اتصال الحواس" وربما كان الوصف الأدق بالعربية "تشابك الحواس".

وعلى الرغم من أن عوارض هذه الحالة كانت معروفة للأطباء والعلماء منذ أمد بعيد إلا أنه لم يتم التركيز عليها، ومحاولة تحليلها علمياً إلا في السنوات الأخيرة. ولهذا فإن الإحصاءات بشأن نسبة عدد المصابين بها ليست دقيقة تماماً، إذ تقول بعض الدراسات بأنها تصيب شخصاً واحداً بين ألفين، بينما تذكر دراسات أخرى أنها تصيب واحداً لكل خمسة وعشرين ألفاً.

وقد كان لتردد المصابين دور في عزوف العلماء عن دراستها بشكل مستفيض، إذ كان معظمهم يحاول تجنب تأكيدها بشكل قاطع حتى لا يُتهم بالاختلال العقلي. فعندما كان يسأل المصاب مثلاً هل ترى الرقم (كذا) فعلاً أحمر عندما تنظر إليه، أم أنه مجرد صورة من ذاكرتك؟ كان قليل منهم يؤكد أنه يراه فعلاً كذلك. ولكن الأغلبية كانت أجوبتها مترددة كأن يجيب المصاب "كأني أراه هكذا وكأني لا أراه" أو " نعم، أرى هذا الرقم أحمر ولكني أعلم أنه ليس كذلك، إذن لا بد أن يكون هذا من ذاكرتي".

واستناداً إلى ذلك، عمد العلماء إلى تفسير هذه الظاهرة من زاوية علم النفس، أو العلوم الإنسانية الأخرى. يقول أحد هذه التفاسير مثلاً إن المصاب كان يلعب في طفولته بأرقام ملونة، ولهذا ارتبط في ذهنه اللون بالرقم وثبت هذا الارتباط في عقله الباطن؛ فأصبح لا يستطيع الفصل لاحقاً بين الرقم ولونه. فإذا رأى أحدهما رأى الآخر في الوقت نفسه. وهناك تفسير آخر وضع الحالة في إطار الاستعارة اللغوية، كأن تقول مثلاً يوم أسود وتفكير أسود، فترى اللون عندما تسمع الكلمة، لارتباط الاثنين في ذاكرتك. وربط تفسير ثالث حالة التشابك هذه بالعقاقير، خاصة إذا كان فيها نوع من أنواع المخدرات والتي قد لا يذكر المصاب أنه يتعاطاها، وهذه تخلق لديه نوعاً من الهلوسة فيرى من خلال دماغه لا بواسطة عينيه.

اكتشاف تماس بين أعصاب الدماغ المسؤولة عن نقل الحواس أسقط التفسير النفسي والتحامل القديم على الذين يعانون من هذه الظاهرة

ظلت هذه النظريات سائدة حتى عام 1999م، حين قرر العلماء أن يولوا ظاهرة تشابك الحواس عناية أكبر، ويخضعوها بالتالي للدراسة العلمية. كان السؤال الأساس الذي عليهم الإجابة عنه، هل يرى بالفعل هؤلاء الناس ما يزعمونه حسيّاً؟ أم أن الموضوع لا يتعدى الوهم، أو تلاعب العقل بالحواس؟ وللإجابة القاطعة عن هذا السؤال عمد الباحثون إلى إجراء أنواع من الاختبارات على المصابين يستعملها المحللون النفسيون عادة، تسمى اختبارات الفصل أو البروز. وتعتمد هذه الاختبارات على مبدأ بسيط وهو أنه إذا رسمت شكلاً مختلفاً على خلفية متجانسة فإنك تراه فوراً وبوضوح بشكل منفصل، إذ أنه يبرز ويراه الإنسان من دون حاجة إلى تأمل طويل. لنقل أنك رسمت مثلاً على صفحة بيضاء خطوطاً عمودية متقاربة، ثم رسمت فوقها خطين مائلين فإن الخطين سيبرزان فوراً بشكل منفصل وستراهما من دون عناء. وكان التصميم للاختبار الأول الذي قام به الباحثون للإجابة عن السؤال المطروح فعالاً تماماً، مع أنه كان بسيطاً ومباشراً. فقد أنتجوا بواسطة الكومبيوتر صفحة مليئة بالرقم 5 بحجم صغير، ثم أدخلوا بين الأرقام الرقم 2 بالحجم نفسه بحيث انتشر بين الرقم 5، وهو الغالب في الصفحة، على شكل مثلث. فإذا نظر الإنسان الطبيعي إلى الصفحة فإنه سيحتاج إلى تدقيق طويل ليرى الرقم 2 المدسوس داخل الخلفية من الرقم 5، علماً بأن الأرقام جميعها باللون الأسود العادي. أما إذا نظر شخص آخر يدعي أنه يرى الأرقام كلاً منها بلون مختلف فإن من المفروض أن يرى من دون أي عناء أو تدقيق المثلث المؤلف من مجموعة الرقم 2 لأنه سيظهر له بلون مختلف عن الخلفية المؤلفة من الرقم 5، أي أن هذا المثلث سيبرز أمامه بوضوح تام. بعد إجراء الاختبار على عدد من المصابين جاءت النتيجة مدهشة تماماً فقد أصاب تسعون بالمائة منهم بشكل فوري وقاطع أنهم يرون المثلث! إذن فالموضوع ليس وهماً ولا تخيلاً وهؤلاء الناس يرون فعلاً ما لا يراه العاديون!

أمام هذه النتيجة غير المتوقعة، كان لا بد للباحثين من إعادة النظر في موقفهم المشكك في هذه الظاهرة والاعتراف بخطأ نظرياتهم في تفسيرها. وهكذا فبدلاً من أن يجيب الاختبار عن السؤال، فتح الباب أمام أسئلة جديدة وعديدة: هل يرى المصابون بهذه الحالة الشيء نفسه أم كل له رؤية مختلفة؟ أي هل يرى جميعهم الرقم 2 مثلاً أصفر، أم يختلف اللون باختلاف الشخص؟ هل يرى

الشخص نفسه لوناً ثابتاً لكل رقم أم يختلف اللون في كل مرة يخضع فيها للاختبار؟ وماذا لو اختلطت الأرقام كأن يرى المصاب مثلاً رقم 5 مكبراً ومشكلاً من الرقم 2 بحجم صغير، أي لون يرى؟ ثم ماذا عن الحواس الأخرى، هل يرى المصاب الموسيقى كما يسمعها أو ربما تثير لديه حاسة الشم؟ هل يقتصر ارتباط اللون على الأرقام فقط أم أن الحروف لها ألوانها وأشكالها أيضاً؟

للإجابة عن هذه الأسئلة كان لا بد للباحثين من تصميم اختبارات جديدة وتكرار إجرائها على المصابين للخروج بأجوبة قاطعة. وكان لا بد أيضاً من العودة إلى الملفات القديمة لأصحاب هذه الحالة وفهمها بصورة مختلفة بدل التشكيك فيها. بعد إجراء الاختبارات المستفيضة جاءت الأجوبة أكثر إثارة من الأسئلة. تأكد مثلاً أن المصابين لا يجمعون على لون واحد لنفس الرقم. فقد يرى أحدهم رقم 2 بلون أحمر، بينما يراه الآخر بلون أزرق. لكن الشخص الواحد يرى الرقم نفسه باللون نفسه في كل مرة يخضع فيها للاختبار، أي أنه يرى الرقم 2 مثلاً دائماً أزرق وبشكل ثابت. والطريف أنه إذا عرض على الشخص الرقم بلون مختلف عما يراه فإنه كان يطيل النظر فيه ملياً وكأن هناك خطأ ما، كمن ينظر إلى شخص ارتدى قميصه بالمقلوب!

في اختبار أجري على أحد هؤلاء عرض عليه رقم 5 بالحجم الكبير مكون من تجمع لرقم 2 بالحجم الصغير، وطلب إليه أن يذكر أي لون يرى. في العادة فإن الرقم 5 لهذا الشخص كان يعني دائماً اللون الأحمر، بينما الرقم 2 يقترن بشكل ثابت باللون الأصفر، فكان المصاب إذا نظر إلى الشكل بمجمله يرى الرقم أحمر بينما كلما دقق النظر فيه رآه أصفر.

ولكن ماذا عن الأصوات وما تثيره في هذه الفئة من الناس؟ هنا أيضاً جاءت النتيجة إيجابية. فعندما طُلب من المصاب أن يرسم ما يراه فعلاً عندما يُسمعه الباحث صوتاً معيناً، قام أحدهم برسم مجموعة من المثلثات عند سماعه جرس الباب، بينما رسم آخر دائرة محاطة بالنقاط لدى سماعه نباح كلب.

أما الذين أُسمعوا معزوفات موسيقية متقدمة فقد رسموا أشكالاً فيها من التناسق والألوان ما يمكن اعتباره لوحات تجريدية رائعة. وربما كان من التجارب الطريفة ما تعلق منها بالصلة بين الأصوات والأشكال وحاسة الذوق. فقد أكد مصاب أُجري عليه البحث أنه يتذوق نكهات محددة عندما تلفظ أمامه كلمات بعينها. فهناك كلمة يتذوق عند سماعها طعم المشمش وأخرى حساء الطماطم. ولا شك أن القارئ يلاحظ أن رجل الشارع العادي في بلادنا يصف الكلام التافه بأنه كلام "بدون طعم". أليس من الجائز أن يكون أول من استعمل هذا التعبير شخص مصاب بتشابك الحواس تثير فيه الكلمات إحساساً بنكهات مختلفة، وعندما سمع كلاماً لم يثر فيه أي إحساس وصفه بشكل تلقائي بأنه كلام "بدون طعم"، بمعنى أنه سخيف ولا ردة فعل له بالنفس؟ ألسنا نصف الكلام أيضاً بأنه "مر" و "حلو"...

بعد الكم الكبير من التجارب ذات النتائج الواضحة والقاطعة أصبح الموضوع الذي يجب على الباحثين دراسته هو أنه إذا لم يكن أساس هذه الظاهرة نفسياً ولا لغوياً وليس ناشئاً عن استعمال العقاقير والمخدرات فما هو إذن؟ ما هو التفسير العلمي لأن يرى إنسان ما الموسيقى ويتذوق طعم الكلمات ويُلوّن الحروف؟ إن فهم هذه الظاهرة تطلّب دراسة دقيقة لكيفية تعامل الدماغ مع المادة التي تصله عن طريق الحواس، والتي يعتمد عليها إدراك الإنسان الحسي لعالمه الخارجي. ففي حالة النظر مثلاً فإن العين تنقل ما تراه إلى الدماغ عن طريق عصب يوصله إلى الجزء الخلفي من الرأس. في هذه المنطقة يجري الدماغ تحليلاً لخصائص الشيء المرئي لتحديد لونه وشكله وحركته وأبعاده. بعد ذلك يوزع الدماغ المعلومات إلى مناطق أخرى تبعاً لطبيعة المعلومة. اللون مثلاً ينتقل إلى منطقة جانبي الرأس. ثم تنتقل المعلومة مرة أخرى إلى الجزء العلوي من الرأس حيث يجري تحليلها تحليلاً دقيقاً ونهائياً. الصوت بدوره يذهب من الأذن إلى منطقة معينة في الدماغ، ثم ينتقل عبر مراحل تالية ليجري تحليله وتمييزه بشكل دقيق. هذه القنوات يتم تجديدها وانفصالها عن بعضها البعض في المراحل الأولى من الولادة بحيث تنتقل "الرسائل" الواردة من الحواس مستقلة بعضها عن بعض. الذي يحصل بالنسبة للمصابين بالحالة موضوع البحث أن هذه القنوات أو الأعصاب لا تنفصل كلياً أو جزئياً وتبقى في حالة تشابك أو اتصال أشبه بتقاطع أسلاك الهواتف، الذي يؤدي إلى تشابك المكالمات. نتيجة لذلك فإن الرسائل القادمة من الحواس لا تسير في قنواتها المنفصلة داخل الدماغ، كما يحصل في الإنسان الطبيعي، وإنما تختلط في هذه القنوات، وبذلك لا يستطيع الدماغ استيعاب خصائص الشيء كلاً على حدة، فيأتي الشكل مثلاً ملازماً دائماً للون. هذا ما يفسر رؤية المصاب للأرقام بألوانها دائماً. وقد لاحظ العلماء أن هذا الاتصال قد لا يكون اتصالاً فعلياً، وإنما قد يتأتى بسبب اختلال المادة الكيماوية بين الخلايا، مما يؤدي إلى خلق حالة من التماس تماماً كالاتصال.

رسّامون وشعراء وموسيقيون حوّلوا "المشكلة" إلى قاعدة لعبقريتهم واستفادوا منها، والخجل من الإفصاح عنها بدأ يتلاشى

ولكن لماذا تنشأ هذه الحالة من الاتصال بين الأعصاب أو القنوات أساساً؟ لقد استطاع العلماء حتى الآن أن يقدموا تعليلين:

- الأول هو العامل الوراثي، إذ لاحظ الباحثون أن أطفال المصابين يحملون الحالة مثل والديهم.
- أما التحليل الثاني فيُرجع سبب الاتصال إلى خلل جيني، إذ يبدو أن هناك نوعاً خاصاً من الجينات عمله الأساسي أن يفصل قنوات أو أعصاب الحواس في مرحلة ما بعضها عن بعض. ولسبب أو لآخر فإن تغييراً ما يطرأ على هذه الجينات مما يجعلها تُخفق في أداء هذه المهمة الحساسة. وبذلك تبقى القنوات في حالة اتصال دائم.

يبقى هناك سؤال أخير قد يتبادر إلى ذهن القارئ: ماذا عن المصابين؟ أي نوع من البشر هم ولماذا لم يكن لديهم من يثير قضيتهم كما يحصل عادة في الغرب للمصابين بأمراض مثل السرطان والشلل والروماتيزم وباركنسون؟ لقد عرف العلماء عن حالة اتصال الحواس منذ العام 1880م، ومع ذلك لم تتم دراستها علمياً وبشكل مستفيض حتى نهاية القرن العشرين. هناك عدة أسباب، أولاً كما سلف القول فإن العلماء لم يقتنعوا بوجود الحالة أصلاً، وبذلك أعطوها تفسيرات لا تحتاج إلى كثير من الجهد؛ ليتفرغوا لدراسة أمور أخرى أكثر إلحاحاً، خاصة وأن المصاب لا يشكو ألماً من أي نوع. كما أن كثيراً من المصابين كانوا كما سلف القول أيضاً، يترددون في الإفصاح عن حالتهم خشية أن يؤدي ذلك إلى اعتبارهم مصابين بنوع من انفصام الشخصية مما قد يكون له عواقب وخيمة على وضعهم الاجتماعي وربما القانوني. وهناك فئة خاصة لا تعتبر حالتها مبعثاً للشكوى، بل هبة من السماء أصيبت بها لكي تخلق عالمها الخاص. تلك هي فئة الفنانين والمبدعين بشكل عام، فحالتهم هذه ساعدتهم كثيراً في التعبير رسماً أو شعراً أو موسيقى عن أشياء يرونها ويعيشونها فعلاً، ولكن لا يراها الآخرون. وبذلك شكلت حالتهم تلك قاعدة لعبقريتهم. تشمل هذه الفئة أسماءً لامعة مثل الشاعر الفرنسي آرثر رامبو الذي يصف في إحدى قصائده "حروف العلة الملونة"، والموسيقار التشيكي فرانز ليست الذي قيل أنه كان يرى النوتة الموسيقية بالألوان، وهناك أيضاً الموسيقار الروسي الكسندر سكريابين والروائي فلاديمير نابوكوف ويقال أن موزار نفسه كان ضمن هذه الفئة.

ولا تزال ظاهرة اتصال الحواس محل دراسة من قبل العلماء. وتحاول آخر هذه الدراسات إيجاد علاقة بينها وبين تطور الفكر الإنساني الناشئ عن تطور اللغة كوسيلة للتعبير، خاصة في ما يتعلق بالانتقال من المحسوس إلى المجرد. فالكتّاب المصابون بهذه الظاهرة لا بد وأن يعكس إنتاجهم شيئاً من استغلالهم لحالتهم لإجادة التعبير عما يفكرون به بشكل يتميزون به عن سواهم. وفي هذه الأثناء، ظهر متصلوا الحواس في العلن، وأصبحت لهم جمعياتهم ومؤسساتهم ومواقعهم على الإنترنت، ينشرون من خلالها تجاربهم الشخصية ويتبادلون الخبرات والأخبار، ولم يعودوا يرون حرجاً في الإفصاح عن حالتهم بل ربما تباهوا بها واستغلوها للكتابة التجارية بعد وعي الجمهور لها من خلال وسائل الإعلام. ولله في خلقه شؤون ...

توقع الزلازل.. من الروايات الشعبية إلى العلم

حتى الأمس، لم يكن هناك غير الروايات الشعبية لسد العجز العلمي عن توقع حدوث الزلازل. فبعيد وقوع أي زلزال تنطلق الشائعات لتتحدث عن مواء القطط في شكل لافت أو خروج الزواحف من أوكارها قبيل وقوعه، حتى أن الفيلسوف الشهير كانط سجل في القرن الثامن عشر أن الأرض في "قادش" في إسبانيا التي ضربها زلزال عنيف آنذاك، امتلأت بجيوش كثيرة من الديدان قبيل وقوع الزلزال.

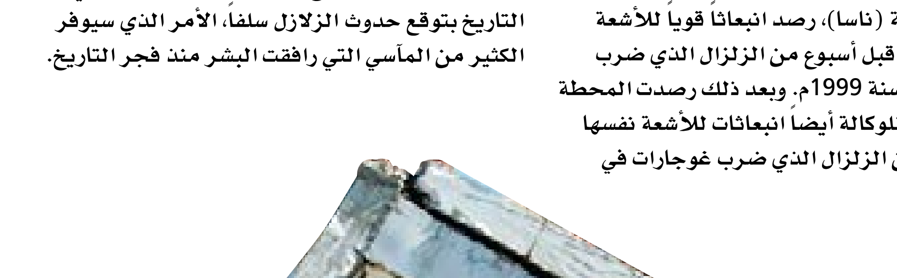
أما العلم فقد بقي عاجزاً تماماً في هذا المجال، حتى أن حكومات عديدة أطلقت دعوات إلى تخفيف الميزانيات المخصصة لهذه الأبحاث. كما أن بعض المؤتمرات الخاصة بالزلازل دعت في أواسط التسعينيات إلى التخلي عن فكرة البحث عن إمكانية توقع الزلازل.

لكن أبحاثاً علمية جديدة بدأت تكتشف الكثير من مشاهدات الناس وتفسره علمياً.

فقد كشف الباحث روبرتو انريكيس أن فريقاً من وكالة الفضاء الأمريكية (ناسا)، رصد انبعاثاً قوياً للأشعة ما تحت الحمراء قبل أسبوع من الزلزال الذي ضرب ازميت في تركيا سنة 1999م. وبعد ذلك رصدت المحطة TERRA التابعة للوكالة أيضاً انبعاثات للأشعة نفسها قبل يوم واحد من الزلزال الذي ضرب غوجارات في الهند في 26 يناير 2001م، واختفت هذه الانبعاثات في 28 من الشهر نفسه.

كما أن عالم الفيزياء فريدمان فرويد قد نشر بحثاً سنة 2000م، فسّر فيه هذه الظاهرة من حيث أن انزلاق الصفائح التكتونية، أي المسبب الأساس للهزّات الأرضية يولّد شحنات كهرومغناطيسية، تتسرب الإيجابية منها إلى سطح الأرض حيث تتحد مع الإلكترونات مولدة الأشعة تحت الحمراء، أما السالبة منها فتبقى سجينة الصخور داخل الأرض. كما أن الشحنات الإيجابية يمكنها أن "تتأين" مع الهواء لتنتج وميضاً ضوئياً مرئياً بالعين المجردة. وهذا ما يفسر الكرات النارية التي يتحدث عنها الناس عشية وقوع الزلازل، وكان آخرها سنة 1968م في اليابان، وسنة 1999م في تركيا حيث عرض التلفزيون صوراً لهذا الوميض قبل ليلة من وقوع الزلزال.

ويأمل العلماء اليوم الاعتماد على هذه الظاهرة لوضع برنامج مراقبة قد يسمح للإنسان وللمرة الأولى في التاريخ بتوقع حدوث الزلازل سلفاً، الأمر الذي سيوفر الكثير من المآسي التي رافقت البشر منذ فجر التاريخ.



من زلزال الجزائر

رويترز

مضاد للنفايات في براز الباندا



لاحظ فريق من الباحثين اليابانيين في جامعة كيتاساتو في طوكيو أن معدة الباندا قادرة على هظم أغصان وأوراق الخيزران الصلبة والتي لا تستطيع معدة أي مخلوق آخر أن تهضمها. فقام فريق ترأسه الباحث فومياكي تاكوشي بعزل خمسة كائنات مجهرية من أصل 270 موجودة في براز الباندا، وتفحصها، فبدت فعّالة جداً في تفكيك البروتين والدهون، كما أنها تتكاثر وتتوالد بسهولة حتى في درجة حرارة مرتفعة. وبعدما وضع الفريق هذه البكتيريا في مائة كيلوغرام من النفايات الصلبة لمدة 17 أسبوعاً في حاوية مغلقة، كانت النتيجة أن كل ما تبقى من النفايات لم يتجاوز الثلاثة كيلوغرامات، والباقي تحول إلى ماء وثاني أوكسيد الكربون. وكانت الخلاصة أن هذه الطريقة فاعلة بنسبة 80 في المئة أكثر من أية تقنية مشابهة.
المشكلة تكمن في أن الباندا حيوان مهدد بالانقراض لم يبق منه سوى بضع عشرات في شرق آسيا، ويفرز من البراز أقل بكثير مما تحتاجه النفايات التي يفرزها الإنسان.

الموسيقى والذاكرة

جاء في دراسة قامت بها باحثة في جامعة هونغ كونغ ونشرتها مؤخراً مجلة Newropsychology أن بإمكان المتدربين على استعمال الآلات الموسيقية تذكر الكلمات في شكل أفضل من الآخرين، لكنهم ليسوا أفضل من غيرهم في تذكر الأشكال. كما أجرت الباحثة اختباراً للمقارنة بين الذين تدربوا على استعمال الآلات الموسيقية لبعض الوقت وتوقفوا وأولئك الذين استمروا في التدريب، فتبين لها أن القدرة على التذكر عند الذين توقفوا عن العزف بقيت عند المستوى الذي وصلت إليه، أما الذين واصلوا التدريب على العزف فكانت ذاكرتهم تزداد قوة باستمرار. ووجدت هذه الملاحظة دعماً من العالمة لورنا جاكسون في جامعة مانيتوبا الكندية، والتي أكدت أن القسم من الدماغ المسؤول عن الذاكرة اللفظية هو أكبر حجماً عند الموسيقيين مما هو عليه عند غيرهم.



رويترز

الأشعة T

خصصت قناة "ديسكوفري" التلفزيونية الحلقة الأولى من برنامج علمي جديد للأشعة المكتشفة حديثاً، والتي يرمز إليها بحرف T، نسبة إلى كلمة Terahertz.

وجاء في البرنامج الذي تعد مادته مجلة "New Scientist" أن هذه الأشعة المضغوطة في حقل كهرومغناطيسي بين الأشعة ما تحت الحمراء وأشعة ميكروويف، يمكنها اختراق الجدران والملابس وجلد الإنسان، من دون أن تشكّل أي خطر كما هو الحال بالنسبة لأشعة X مثلاً.

ويتوقع الباحثون أن تشهد الأشعة T مزيداً من التطبيقات العملية في المستقبل القريب، خاصة في مجالي الطب والأمن، لتحل في كثير من الاستعمالات محل الأشعة X.

فوائد إضافية للكالسيوم

بالإضافة إلى الفوائد المعروفة للكالسيوم كتقوية العظام وتنظيم ضغط الدم، كشفت دراسة وردت في نشرة لجامعة بيركلي في كاليفورنيا أن هذا المعدن ينظم أيضاً الطاقة في الجسم، ويؤدي إلى تخفيف الوزن أيضاً، وأن الكالسيوم الموجود في الألبان والأجبان يؤدي هذا الدور في شكل أفضل من ذلك الموجود في الخضار والحبوب أو الأدوية.

وأكد الدكتور مايكل زيميل من جامعة تينسي والمتخصص في شؤون التغذية صحة هذا الاكتشاف. أما الدكتور روبرت هيني من جامعة كرايتون فقد أضاف: إن المرأة التي لا تتناول الكالسيوم بكميات كافية تتعرض على المدى الطويل لزيادة الوزن، وينصح دائماً بتناول الألبان والأجبان الخالية من الدسم.

اطلب العلم

مارتن ريس محذراً..
«قرننا الأخير»



لا ريب أن القارئ قد اعتاد أن يسمع من وقت لآخر عن جماعات أو أفراد يخرجون على الناس بتوقعات عن انتهاء العالم، ويحددون لذلك تواريخ دقيقة، استناداً إلى بعض الحسابات والظواهر. وقد يميل البعض إلى إعارة هذه التنبؤات بعض الاهتمام، ولكن الأغلبية العظمى لا تأخذها على محمل الجد وتعتبر الموضوع ضرباً من التسلية. ولكن عندما يكون المشكك في استمرار الإنسانية بعد القرن الحالي هو مارتن ريس، أستاذ البحث في جامعة كامبردج البريطانية، والرائد البارز في علوم الكون والفضاء، والرئيس السابق للجمعية البريطانية لتقدم العلم فقد يتطلب الأمر إعادة النظر.

مما لا شك فيه أن العلم قد تقدم بشكل هائل في القرن العشرين وفي كافة المجالات. ومما لا شك فيه أيضاً أن هذا التقدم سيستمر في القرن الحالي وسيكون مذهلاً نظراً لتطور التكنولوجيا، ووسائل البحث العلمي. ولكن للتقدم العلمي جوانب مظلمة قد لا يعرفها غير الباحثين والمقربين من أصحاب القرار.

فعلى امتداد التاريخ كان سقوط ضحايا الجنس البشري - وغير البشري - نتيجة للكوارث الطبيعية الخارجة عن تحكم الإنسان، مثل الزلازل والأعاصير والبراكين والفيضانات والأوبئة... ولكن المعادلة انقلبت مع التقدم العلمي الذي تحقق في القرن العشرين. فالكوارث التي حلّت في ذلك القرن كانت وراءها أيد بشرية. إذ تدل الإحصاءات على أن الحروب وما رافقها من تداعيات، تمثلت بالمجازر والاضّطهاد والتعذيب وحتى المجاعات قد حصدت أرواح 187 مليوناً من البشر، من دون أي عامل من العوامل الطبيعية. هذا عدا الخراب البيئي الذي ما زالت آثاره ممتدة في مناطق كثيرة من العالم.

وخلال القرن العشرين أيضاً، وقف العالم أكثر من مرة على حافة الحرب النووية، كان أخطرها أزمة الصواريخ الكوبية عام 1962م. لذلك، قد لا يكون من المبالغة القول بأن البشرية كانت بالفعل على جانب كبير من الحظ؛ لأن تنفد بجلدها من مخاطر القرن العشرين وتحيا لتشهد قرناً جديداً.

ولكن هل سيحالف الحظ البشرية مرة أخرى لتعبر قرناً آخر أم يكون القرن الواحد والعشرين قرننا الأخير ونهاية المطاف؟

هذا هو السؤال الذي يحاول الكاتب الإجابة عنه، والذي استمد منه عنوان كتابه، فبالإضافة إلى الأخطار الطبيعية التي كانت وما زالت قائمة، فإن الأخطار الجديدة والحقيقية في القرن الحالي ستكون ناشئة عن اجتماع الجوانب المظلمة للتقدم العلمي وانتشار المعرفة العلمية على نحو واسع والوضع الدولي غير المستقر. فهناك أنواع من الاختبارات يشرحها المؤلف تحمل في طياتها أخطاراً قد تؤدي إلى كوارث ضخمة في حال فقدان السيطرة عليها. ويراهن الكاتب على أنه قبل العام 2020م سيحدث خطأ من هذا النوع يؤدي إلى وفاة مليون إنسان. هناك أيضاً موضوع التلاعب بتكوين الجينات ومحاولة إيجاد مخلوقات فائقة الذكاء لا هي بالآلة ولا هي بالإنسان والتي قد تخرج تماماً عن حدود السيطرة.

ولا ينسى المؤلف طبعاً أن يعرج على موضوع الإرهاب وامتلاك أفراد قلائل لتكنولوجيا متقدمة خاصة في المجالات النووية والبيولوجية مما يمكنهم بالتالي من القيام بأعمال إرهابية على مستوى واسع جداً وكارثي. ولا يغفل المؤلف عن تذكيرنا بأن مشكلة الاحتباس الحراري ما زالت قائمة وأن ارتفاعاً عاماً في مستوى الحرارة لخمس درجات مئوية سيؤدي إلى عواصف وفيضانات وارتفاع مستوى البحار والمحيطات وفوضى شاملة في تحركات المجموعات البشرية. الخلاصة أن البشرية في القرن الحادي والعشرين ستكون مهددة أكثر من أي وقت مضى.

على أن ريس يطرح في النهاية سؤالاً شبه فلسفي: وماذا يهم؟ هل يتغير هذا الكون الشاسع بأي شكل أو يتأثر باختفاء كوكب صغير ضئيل مثل الأرض، وهل نشكل شيئاً مهماً ومتميزاً فيه يهمنا المحافظة عليه بشتى السبل؟

إن تطور الحياة على الأرض استغرق بلايين السنين لتصل إلى ما هي عليه اليوم، وفي هذه الحالة فإن نهاية الحياة على الأرض ستعني فقدان شيء نادر جداً على مستوى الكون وليس مجرد خسارة ثانوية. وعلى الرغم من مسحة الكتاب التشاؤمية فإن رايس يذكر حرص الإنسان البالغ وقلقه على استمرار الحياة، ولعل هذا الحرص هو ما سينقذه من حافة الهاوية، كما يأمل الكاتب أن تكون توقعاته التشاؤمية خاطئة.

ر. م.

نور ولون..



أفق لليل.. للنهار

عبدالعزيز سعيد عيّاش

مصوّر سعودي هاوٍ يستعدّ للاحتراف. ولد في قرية دار الجبل في الباحة عام 1393هـ (1973م) وتعلّم في قريته أولاً ثم في الطائف، ثم انتقل إلى جدّة ليكمل تعليمه الجامعي حيث تخصص في اللغة الإنجليزية وما زال مدرساً لها في إحدى المدارس الثانوية.

تدور أعماله حول الطبيعة منتقلاً من السماء الواسعة حتى أصغر الكائنات ساعياً وراء لحظات جمالها ملتقطاً لحظات النور واللون، شارك في معارض المصورين السعوديين وكان له معرض جامع مع المصور الفوترغرافي زين العابدين سليمان، ونال الجائزة الأولى للتصوير الرقمي في مسابقة أبها التي أجريت في صيف عام 1424هـ.




ليل طويل

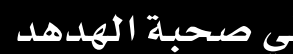


انعكاسات



عناق




في صحبة الهدهد



ليل طويل

جائزة نوبل.. بعيداً عن التجني

في هذا الخريف، كما في خريف كل عام، توقف العالم عند محطة ثقافية تشده بأسره: إعلان أسماء الفائزين بجوائز نوبل..

وفي كل عام تتكرر على مسامعنا أولاً التوقعات وأسماء المرشحين المعقولين واللا معقولين، ومن ثم خيبة الأمل والتحليلات التي تتناول موضوعية هذه الجائزة أو عدم موضوعيتها. والغريب في الأمر أن الترقّب الإعلامي ينصبُّ في الدرجة الأولى على جائزة نوبل للآداب، ثم السلام (أي السياسة)، أما الجوائز العلمية للطب والفيزياء والكيمياء والاقتصاد، فلا يبدو أنها تثير انقساماً أو ضجيجاً على صعيد واسع.

والطعن بسلامة قرارات اللجنة المانحة لهذه الجوائز ليس حكراً علينا نحن العرب أو على مثقفي العالم الثالث «المفترى عليه» كما قد يتبادر إلى الذهن. ففي بريطانيا قام ضجيج في أواخر السبعينيات بسبب حرمان كبار أدبائها لفترة طويلة من هذه الجائزة. وفي بلادنا خفَّ الغضب قليلاً بعد منح نجيب محفوظ جائزة نوبل للآداب سنة 1988م، غير أنها لم تبرد تماماً. فبسبب المهابة العالمية التي تتمتع به هذه الجائزة، صار منحها يشبه في بعض جوانبه بطولة «المونديال»، أي مناسبة تتحرك فيها المشاعر القومية في كل مكان متلطية بمقاييس النقد الأدبي، وتقويم الفائز مقارنة بالخائب.

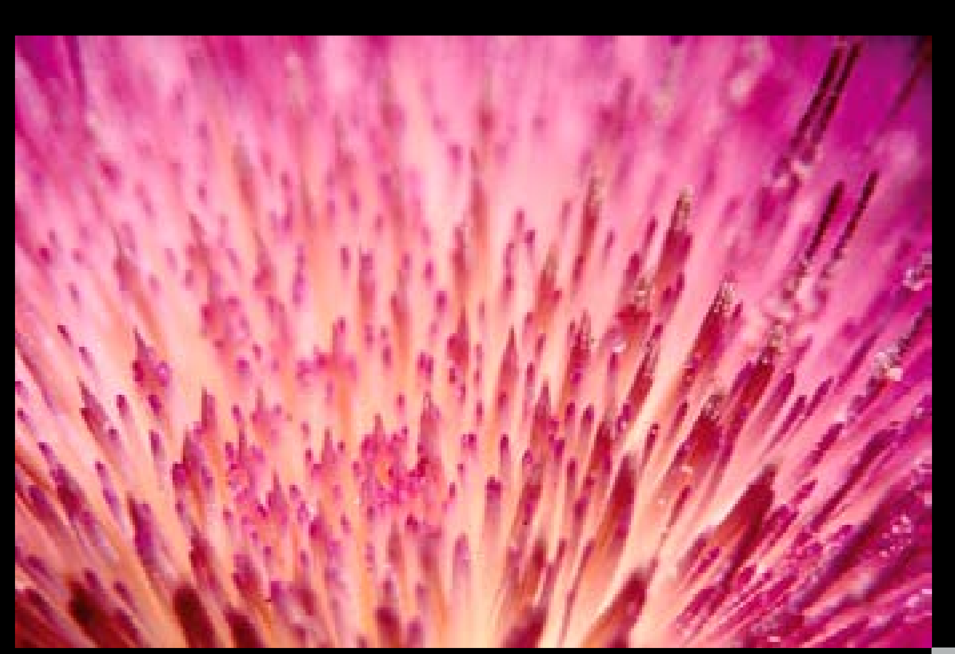
قد يكون من الصعب تبرئة هذه الجائزة من مؤثرات العوامل السياسية، ولكن من التجني تصويرها وكأنها مجرد تأييد سياسي أو حملة دعائية لهذا التيار أو لتلك الثقافة. فالمقاييس الأكاديمية وآلية عمل لجنتها تكفل لها أقصى حد ممكن من الجدية والاستقامة في التعامل مع المرشحين. ولكن طالما أن عليها في النهاية أن تختار واحداً من مجموعة مرشحين ينتمون فعلاً إلى النخبة، فمن الممكن هنا، وهنا فقط، أن يتسلل المؤثر السياسي إلى القرار. مع الإشارة إلى أننا لا نعرف مرة واحدة وصل فيها العامل السياسي إلى حد رمي الجائزة كيفما اتفق على أي كان.

بعبارة أخرى، يمكن القول أن جائزة نوبل هي تقدير أكاديمي يصل إلى حد القرار الذي لا يُنقض بعالمية صاحب الجائزة، ومن جهة ثانية فهي لا تخلو من ومضات سياسية يتفق معها البعض أو يختلف. ولكن ذلك لا ينتقص من مكانتها في شيء، بل ربما كان العكس صحيحاً.

ففي كل بلد هناك أدباء «مرشحون» دائماً لجائزة نوبل. منهم من لم يتمكن حتى من انتزاع اعتراف بني قومه بقيمة إنتاجه وينتظر الجائزة لفرضها عليهم، فيستنفر المريدين والأصدقاء لترويج الشائعات الموسمية.. ومنهم الكبار الذين يستحقون فعلاً هذه الجائزة، ولكنها لم تصلهم لسبب من الأسباب، أو تأخرت في الوصول إليهم، كما هو حال الروائي الكولومبي غابريال غارسيا ماركيز، الذي قال فور تلقيه نبأ فوزه بجائزة نوبل لعام 1982م: «أنا سعيد للغاية، لأني لم أعد مرشحاً لجائزة نوبل».



لون.. أحمر



من الربيع



مدخرات العمر..

المسارات الآمنة على الطرق الوعرة

تتحمل الطبقة الوسطى، أينما كانت في العالم، القسم الأكبر من الخسائر المالية الناجمة عن سوء التعامل مع المداخيل والمدخرات، والسبب الرئيس في ذلك يعود إلى ضعف ثقافتها المالية والاقتصادية. وعلى الرغم من أنه لا يمكن الإحاطة بهذا الموضوع في مقال واحد، فإن فريق التحرير اختار أن يعرض هنا بعض العناوين العريضة للمخاطر التي تهدد مدخرات الفرد، وسبل المحافظة عليها..

أول ما يتعلمه الإنسان عن المال أنه شيء لا يحصل عليه بسهولة، وأنه كما قال الشاعر: "لا بدّ دون الشهد من إبر النحل". هذه الحقيقة نتعلمها في سن مبكرة جداً، فكل منا يذكر كيف كان يحاول في صغره إقناع والده بزيادة مصروفه ونذكر كيف كنّا نخطط لابتكار الحجج والأسباب للحصول على هذه الزيادة. وعندما ندخل ميدان العمل، كموظفين أو أصحاب عمل حر، فإن هذه الحقيقة تترسخ بشكل واضح ونهائي، إذ لا بد من العمل المتعب كي نرى المال في نهاية النفق. وإذا كان الأمر على هذه الصور، فإن أول ما نتوقعه هو الاهتمام بالمحافظة على ما جمعناه بالجهد والتعب والعرق وإنفاقه بحكمة.

إن المحافظة على سلامة المال تكون بوضعه في مكان آمن. وهذه فطرة إنسانية تدفع الإنسان إلى أن يخبّئ ماله في أمكنة لا تخطر على بال أصحاب النوايا السيئة. وفي عصرنا الحالي، تكاد البنوك أن تكون ملاذنا الوحيد لإيداع أموالنا بشكل آمن إلى حد كبير، ولكن ليس بشكل مطلق، إذ أن البنك شأنه شأن أية مؤسسة تجارية أخرى قد يُشهر إفلاسه لصعوبات مالية أو بسبب سوء الإدارة. وما يختلف فيه البنك عن هذه المؤسسات أنه يدخل في منظومة تخضع لرقابة حكومية من المفترض أن تكون صارمة، وبذلك تقلل هذه الرقابة من خطر الوقوع في الأزمات وتبديد أموال المودعين. النصيحة الممكنة هنا هي ألاّ يضع الإنسان مدخراته في مكان واحد، لكي لا يجد نفسه في أزمة خانقة إذا وقع المحظور وأغلق البنك أبوابه أمام المودعين.

ولكن، لنفترض أن البنك آمن تماماً ولا خوف على المال من السرقة أو الضياع، فماذا عن المحافظة على قيمة المال؟ بمعنى آخر كيف تحافظ على القوة الشرائية لمدخراتك في مواجهة التضخم المالي أو التدني المستمرفي القيمة الفعلية للنقود؟ افرض على سبيل المثال أنك رأيت اليوم سيارة ثمنها عشرة آلاف ريال، وقررت التوفير من راتبك لشرائها وأن ذلك يتطلب عشر سنوات. فإذا كانت نسبة التضخم المالي – أي النسبة المئوية في زيادة الأسعار – اثنين في المئة فقط، فإنك ستحتاج بعد عشر سنوات مبلغاً وقدره 12,190 ريالاً لشراء تلك السيارة. أما لو كانت نسبة التضخم خمسة في المئة فإنك ستحتاج إلى 16,289 ريالاً. وإذا أخذنا النسبة الأعلى من عشرة في المئة فإن ثمن السيارة سيكون بعد عشر سنوات أكثر من 25,937 ريالاً! إذن ما لم تعمد إلى تنمية مدخراتك بنسبة التضخم نفسها، فإنك لن تستطيع شراء سيارتك أبداً. وإن كنت تدخر لهدف آخر مثل تأمين التعليم العالي لأولادك فإنك ستجد نفسك في الوضع نفسه، بل في وضع أسوأ لأنك قد تستغني عن شراء السيارة ولكن لن يستغني أولادك عن التعليم. السؤال إذن هو كيف تنمي مدخراتك حتى تحافظ على قيمتها الأصلية؟

حسابات الادخار وسندات الخزينة

الجواب عن هذا السؤال يجرنا إلى موضوعي الادخار والاستثمار، وما يتفرع عنهما من مسائل. وهنا لا بد من تحديد الهدف والأولويات. فإذا كان هاجسك الادخار الآمن لسنوات لاحقة في حياتك، وعدم المجازفة بتحمل أية خسارة فإن توجهك يجب أن يكون صوب حسابات الادخار أو سندات الخزينة. ففي الحالين تسمح لطرف آخر (البنك أو الدولة) باستعمال نقودك مقابل عائد محدد. بالنسبة لحالات الادخار فإن المبدأ العام هو أن نسبة العائد ترتفع مع طول المدة التي تمتنع فيها عن سحبه بصورة إلزامية. النصيحة في هذا المجال هي ألاّ تودع كامل نقودك في بنك واحد، وألاّ تودعها في بنك يدفع عوائد على حسابات الادخار أعلى بكثير من المعدل العام الذي تدفعه باقي البنوك، فإن سياسة البنك هذه قد تعني أنه في وضع سيء.

سندات الخزينة، هي بكل بساطة إقراض للدولة في الأغلب لمدة تتعدى السنة، وقد تصل إلى عشر سنوات. هذه أيضاً تعتبر وسيلة آمنة لتنمية المدخرات إذ أن سداد الدولة للسند في وقته المحدد إلزامي ولا مجال لعدم تنفيذه. إضافة إلى ذلك، فإن هذه السندات يمكن بيعها في أي وقت لطرف آخر سواء أكان فرداً أم مؤسسة. السؤال هو هل تضمن هذه الوسيلة المحافظة على قيمة مدخراتك، أي المحافظة على قوتها الشرائية؟ الجواب يعتمد على مقارنة نسبة التضخم المالي مع نسبة ما يدفعه البنك أو نسبة العائد على السندات. فإذا كانت نسبة التضخم فعلاً خمسة في المئة وعائد حساب الادخار أيضاً خمسة في المئة فإن كل ما فعله البنك هو أنه حافظ على قيمة نقودك، ولكنه لم يعطك شيئاً إضافياً بالفعل. أما إذا كانت نسبة التضخم خمسة في المئة والعائد ثلاثة في المئة فإنك تكون قد خسرت اثنين في المئة من قيمة نقودك وأعاد لك البنك بالفعل أقل مما أخذ منك، ولكنك تبقى في وضع أقل سوءاً من أن تقفل على نقودك في خزنة داخل بيتك أو مكتبك.

الاستثمار

اختيار المؤسسة الآمنة والحفاظ على القيمة الشرائية في مواجهة التضخم من أبرز التحديات أمام صاحب المدخرات

الوسيلة الأخرى لتنمية مدخراتك هي الاستثمار. وهي وسيلة قد توفر لك عائداً أكبر ولكنها في الوقت نفسه تنطوي على مجازفة أكبر.

وبشكل عام فإن حجم العائد له علاقة مباشرة بدرجة المجازفة. والاستثمار يمكنه أن يأخذ أشكالاً عديدة. فقد تعمد إلى عقد شراكة مع شخص تعرفه للقيام بعمل تجاري ما. المجازفة هنا تعتمد على مدى معرفتك بالشخص ودقة دراستك للمشروع بشكل موضوعي ودرجة ثقتك في شريكك وقدرته على القيام بالعمل. كما أنها تعتمد على طبيعة الاتفاق بينكما وعلى قدرتك على المشاركة والتحكم في اتخاذ القرارات. والنصيحة هنا هي أن تلجأ إلى استشارة قانونية حول نص أي اتفاق قبل توقيعه لتعرف الحجم الحقيقي لالتزاماتك وأن خسارتك القصوى إن وقعت لن تتعدى حجم استثمارك. سلبيات هذا الاستثمار تكمن في أنك قد تفقد مالك وشريكك إذا لم تسر الأمور على ما يرام. ولهذا يجب ألاّ تقدم عليه بشكل متسرع.

شكل آخر للاستثمار، وهو الاستثمار في العقارات: الأراضي، البيوت، المحال التجارية. هذا النوع من الاستثمار يحتاج إلى مبالغ كبيرة نسبياً قد تتعدى مدخرات الشخص العادي. على أنه إذا توفر المال فقد يكون هذا النوع من الاستثمار مجزياً إذا تم اختيار العقار بعناية وبعد دراسة واستشارة إذا تطلب الأمر. الناحية السلبية في هذا المجال أن العقارات يصعب تحويلها إلى سيولة بسرعة عندما تقتضي الحاجة ذلك. بالإضافة إلى أنها تتطلب اهتماماً مستمراً من المستثمر للعناية بها وصيانتها وإدارتها.

أما الشكل الشائع للاستثمار في اقتصادياتنا الحديثة فهو شراء أسهم وسندات الشركات، المحلية منها والأجنبية.

السندات والأسهم

لا بد في البداية من التفريق بين السهم والسند. فعندما تشتري سهماً فإنك تشتري حصة في شركة، أي أنك أصبحت واحداً من مالكيها، ولو بنسبة ضئيلة تبعاً لما تشتريه من حصص، وقد تكون واحداً من عشرات أو مئات وأحياناً ملايين المساهمين. وعليه فإنك مثل أي مالك أو مساهم معرَّض للربح والخسارة، وقد تكون الخسارة أحياناً كل ما استثمرته أو جزءاً منه.

أما عندما تشتري سنداً فإنك تصبح في وضع الدائن وليس المالك أو المساهم. هذا يعني أن الشركة قد اقترضت منك قيمة سنداتك، وتعهدت في الوقت نفسه أن تدفع العائد المنصوص عليه في السند سواء أربحت الشركة أم خسرت.

بالإضافة إلى ذلك فإنه في حال تعرض الشركة للإفلاس فإن لحملة السندات الأفضلية على حملة الأسهم في استرداد أموالهم من موجودات الشركة بعد تصفيتها.

من الواضح إذن أن شراء الأسهم يحمل مجازفة أكبر من شراء السندات ولكن عائده، وهذا ليس بالضرورة، يكون أفضل. إن المجال لا يتسع هنا لمعالجة كافة نواحي هذا النوع من الاستثمار، ولهذا نكتفي ببعض النقاط السريعة.

إذا كنت تريد أن تختار بنفسك الشركات التي ستسهم بها فلا بد أن تخصص الوقت الكافي للاطلاع على حساباتها لعدة سنوات بما في ذلك عائدات أسهمها وسنداتها، وتتبّع أخبار نشاطاتها وتوقعاتها المستقبلية والأزمات التي من الممكن أنها تجتازها. أما إذا لم يتوفر لديك الوقت، فيمكنك استشارة الدائرة في البنك الذي تتعامل معه والتي تتولى هذه الأمور، أو التعامل مع عميل في البورصة تشكل متابعة الشركات وأخبارها صلب عمله. وهناك في الحالتين عمولة يجب عليك دفعها، ولكن ذلك أفضل بكثير من شراء أية أسهم اعتباطاً.

النقطة الثانية هي ألاَّ تستثمر جميع أموالك في شركة واحدة مهما كان وضعها مغرياً؛ فالشركات التي تبدو ناجحة ومتألقة قد تكون في الواقع في وضع حرج كما حصل لشركة أنرون الأمريكية مؤخراً حين خسر آلاف المساهمين ملايين الدولارات.

النقطة الثالثة هي ألاَّ تقترض لكي تشتري أسهماً. فأساس الموضوع هو المحافظة على قيمة أموالك لا المجازفة بأموال الآخرين وتحمل تبعات ذلك.

النقطة الرابعة هي أن تتابع باستمرار أخبار الشركات التي تمتلك أسهمها، وأخبار المجال الذي تعمل فيه هذه الشركات لتقرر إذا ما كان الوقت قد حان لبيع هذه الأسهم.

النقطة الخامسة، هي أن تتذكر دائماً أن التعامل مع الأسهم يحتمل الخسارة كما يحتمل الربح، ولذلك لا تغامر بمال إذا خسرته سيؤثر على حياتك وحياة عائلتك بشكل جذري، أي لا تحول المجازفة المدروسة إلى مغامرة.

احذروا

كلما كانت وعود المؤسسة برَاقة كلما توجب الحذر. ومتابعة الأخبار لا بد منها للمستثمر في الشركات والأسهم

النقطة الأخيرة هي بمثابة تحذير. فهناك فئة من الناس تعمل على بيع أسهم لشركات موجودة قانونياً لكن أسهمها لا قيمة لها بالنسبة للعارفين بهذا المجال. فقد يعرض عليك شخص ما شراء أسهم لشركة مؤسسة في جزر الباهاماس أو الكاريبي أو إحدى الإمارات الأوروبية الصغيرة، ويحاول إغراءك بعائدات قد تصل إلى 15 أو 20 في المئة، ويحمل في حقيبته من الأوراق والمستندات ما يتوصل من خلاله إلى إقناعك بالترغيب حيناً وبالضغط حيناً

آخر بشراء هذه الأسهم. هؤلاء الأشخاص يمارسون نشاطهم على مستوى واسع في الغرب وقد تسببوا في مآسٍ لا حصر لها خاصة للمتقاعدين الذين يعتمدون على ما ادخروه لشيخوختهم. وقد يكون هذا الشخص غريباً عنك وقد يكون أحياناً معروفاً لديك، وقد يتصل بك هاتفياً من دولة بعيدة ليعطيك الانطباع بأنه شخص مهم وعليك أن تسمعه. هذا الاستثمار نتيجته خسارة مؤكدة وعليك حتماً تجنبه. والنصيحة في هذه الحالة ألاَّ تسأل مثل هؤلاء الناس أية أسئلة، ولا أن تستفسر عن هذه الناحية أو تلك. أبلغه فقط أن هذا الموضوع لا يعنيك وأنك لا تنوي الدخول فيه وأقفل الحديث بحزم.

هناك في النهاية أنواع أخرى من الاستثمار ذات طبيعة خاصة مثل التحف واللوحات والأحجار الكريمة التي من المفترض أن تتحسن قيمتها بمرور الزمن. يختلف هذا النوع من الاستثمار عن سابقيه بأنه لا يعطي مردوداً منتظماً، ولا تُعرف نتيجته إلا عندما يتم التخلص منه. إضافة إلى ذلك فإنه يشترك مع الاستثمار العقاري بأنه لا يمكن عادة تحويله بسرعة إلى سيولة. كما أنه يحتاج إلى معرفة متخصصة، ويكاد يكون مقتصراً على المحترفين الذين يعرفون تماماً طبيعة ما يستثمرون فيه وقيمته.

التخطيط

الموازنة تحمل تأثيراً على قراراتك وما تنوي عمله، ووضع القرارات بالأرقام يجعلك ترى نتائجها بصورة أوضح

إن الحفاظ على سلامة المال وقيمته يشكل جانباً مهماً من إدارتك لأموالك، ولكن هناك جانباً لا يقل أهمية ألا وهو التخطيط. فكما تعد الوزارات في الدول والدوائر المالية في الشركات موازناتها السنوية وموازنات إضافية لفترات أطول، فإن الفرد يمكنه أن يعد موازنات شهرية وسنوية وأخرى طويلة الأمد. الهدف من هذه الموازنات هو وضع الخطط المستقبلية بصورة أرقام لكي نعرف كيف ستسير أمورنا المالية خلال الفترة موضوع الموازنة. فإذا أعددت موازنتك جيداً فسترى بشكل واضح متى سيكون لديك فائضاً من المال ومتى ستكون في حالة عجز. في الحالة الأولى سيمكنك ذلك من التخطيط لاستثمار الفائض، وفي الحالة الثانية التحضير للاقتراض. هذه المعرفة المسبقة ستوفر عليك الكثير من الأزمات التي قد تبدو مفاجئة ولكنها في الحقيقة متوقعة وستراها فقط عندما تحضر موازنتك. إن أسوأ وضع يمكن أن تقع فيه هو أن تكتشف فجأة أنك بحاجة إلى مبلغ من المال خاصة إذا لم يكن صغيراً. إذ أنه من الجائز ألاَّ تتمكن من الحصول على ما تريد، وإن استطعت فبأصعب الشروط. في حين أنك لو علمت اليوم أنك ستكون بحاجة إلى هذا المبلغ بعد ستة أشهر مثلاً فإن فرصك في الحصول عليه وبشروط جيدة ستكون أفضل بكثير.

هذه المعرفة المستقبلية لا يمكن أن تتنبه لها إلا من خلال تحضير موازنتك للفترة القادمة. وإذا كنت من القادرين على استعمال الكومبيوتر فإنك ستجد القيام بهذا العمل مفيداً وممتعاً، وسيتطلب تحضيره بعض الوقت في المرة الأولى بينما تقوم بتعديل الأرقام في المرات اللاحقة، والحصول على موازنتك خلال دقائق. وبما أن الموازنة تقوم على أساس افتراضات معينة مثل بقائك في الوظيفة نفسها والزيادات المتوقعة في الراتب واحتمال شراء كذا وكذا.. فإنك سوف تتمكن من تعديل موازنتك كلما تغير أحد هذه الافتراضات، كأن تغير وظيفتك أو تمتنع عن شراء السيارة.

والحقيقة أن الموازنة تحمل تأثيراً على قراراتك وما تنوي عمله، ووضع القرارات بالأرقام يجعلك ترى نتائجها بصورة أوضح. فعندما تُدخل ثمن السيارة في موازنتك وترى عجزاً فيها فإن ذلك قد يدفعك إلى إعادة النظر في قرارك والتدقيق فيه من جديد. ونتيجة لذلك، فإنك ستكون في وضع المتحكم في مجرى الأمور وليس مجرد مُتلقٍ لما يحصل، يتخبط من أزمة لأخرى.

إن الأشخاص الذين يديرون أعمالهم بنجاح هم أولئك المدركون دوماً لما يدور في محيطهم وفي العالم الأوسع. فإن كنت ممن يستثمرون أموالهم بالأسهم مثلاً، فإن قراءة الصفحة المالية في الصحيفة اليومية، والاشتراك في مجلة دورية تعالج مواضيع اقتصادية ومالية سيساعدك على الإلمام بما يجري، وبالتالي على التحكم الأفضل في استثماراتك. جميع المحطات الفضائية تفرد في برامجها مجالاً للنشرة الاقتصادية، وقد تجد الاستماع إليها مفيداً وأحياناً ضرورياً. بهذه الخطوة الأخيرة تكون قد جمعت العلم مع التخطيط والفعل، وهذه هي عناصر النجاح الحقيقية.



مع الانطباعيين إلى مائدتهم

تشبه لوحات الانطباعيين بحيويتها وخطوطها وألوانها الأطباق الشهيّة. وهؤلاء الفنانون الذين طبعوا القرن التاسع عشر بفنهم كانوا على درجة عالية من الإحساس بالحياة والشغف بها، مما يجعل الجلوس معهم إلى مائدة طعام أمراً ممتعاً. فريق التحرير يدعونا إلى مشاركة الانطباعيين مائدتهم، ويعرض لنا علاقة هذه الظاهرة المميزة بالمناخ التاريخي الذي نشأت فيه.

Winterthur, Collection of Oskar Reinhart

فنسان فان غوخ: «طبيعة صامتة» 1886م

من المؤشرات الأولى على اقتراب ظهور مدرسة جديدة في فن الرسم ستسمّى لاحقاً بـ "الانطباعيّة"، لوحة رسمها إدوارد مانيه سنة 1863م، ورفضت الأكاديميّة الفرنسية استقبالها في معرضها السنوي. غير أن عدداً من الفنّانين كان لهم رأي مغاير لرأي الأكاديميّة، فالتفّوا حول مانيه ليقودوا فن الرسم في اتجاه سيكتب له الانتصار الساحق فيما بعد، إنهم الانطباعيّون. أمّا لوحة مانيه المشار إليها فتحمل اسم "غداء على العشب".

وعلى الرغم من أن الانطباعيّين رسموا مواضيع ليس لتنوّعها الكبير أي مثيل في عالم الفن حتى آنذاك، فإن حفلات الغداء والعشاء والموائد والمطاعم والمقاهي كانت في لوحاتهم ذات حضور لم يسبق له مثيل أيضاً في أيّة مدرسة فنّية أخرى، لا من حيث الكم ولا من حيث العمق. وهذا ما دفع بالباحثة جوسلين هاكفورث جونس إلى أن تؤلف كتاباً ضخماً مزداناً بمئة صورة وبعنوان "وجبة مع الانطباعيين".

الرسم والطعام: وحدة المنعطف.

والموائد عند الانطباعيين لم تأت على هذا المستوى من الزخم والأهميّة لدواع جماليّة فقط، بل كانت تعبيراً صادقاً عن جزء من نمط الحياة آنذاك، وارتبطت بقوة بالمناخ التاريخي الذي ظهرت فيه الانطباعيّة.

فقد ترافق ظهور هذه المدرسة الفنية مع تغيّرات حادة عرفتها العاصمة الفرنسيّة باريس، التي تحولت إلى حاضرة صناعيّة كبرى، وازداد عدد سكانها، وارتفع مستوى دخل الطبقة الوسطى فيها، الأمر الذي أدى إلى ازدهار صناعة التسلية والترفيه وتكاثر المقاهي والمطاعم. وفي العام 1872م كتب مارك كونستنتان يصف المدينة بقوله: "لقد اجتاحت المقاهي الشوارع، واجتاحت الحفلات الموسيقيّة المقاهي، واجتاحت الجموع كل الأماكن".

واحد من هذه المقاهي المتواضعة، ويدعى "كافيه غيربوا" كان يقع في جادة "باتينيول" على مقربة من منازل الفنانين مانيه ورينوار وبازيل والروائي ملارميه. ومنذ منتصف ستينيات ذلك القرن كان هذا المقهى قد تحوّل إلى ملتقى دائم للفنانين الطليعيين، حتى أن اسم الشارع "باتينيول" كان الاسم الأول الذي أطلق على الانطباعيين، إذ عرفوا لبعض الوقت باسم مجموعة "باتينيول".

من جهة أخرى ظهرت الحاجة الجديدة إلى إعادة النظر إلى الطعام ككل، وخاصة ذلك الذي يتم تقديمه في المطاعم، وذلك بسبب تفاوت مستويات هذه المطاعم والمقاهي واحتدام المنافسة في ما بينها – إذ بلغ عددها في باريس فقط في نهاية القرن التاسع عشر 24,000 مقهى ومطعم. لذا، عندما كان الانطباعيّون يلتقون في مقهى "غيربوا" لوضع ميثاق حركتهم الفنيّة المحدَّثة ومناقشتها، كان هناك في الوقت نفسه فنّان آخر يدعى أوغوست إسكوفييه يعمل في أحد المطابخ على تطوير فن الطبخ ووضع أسسه الجديدة التي استمر المطبخ الراقي الفرنسي قائماً عليها حتى يومنا هذا، وتكاثر تلامذته الذين قادوا العمل في أشهر المطاعم الفرنسيّة، مثل "السفراء"، "مكسيم" و"البرج الفضي".. أي أن الحداثة الباريسية كانت تتشكل في وقت واحد على أيدي الرسّامين والطبّاخين.

ألا يكفي هذا لتفسير الأهمية التي أولاها الانطباعيّون للمائدة والطعام عموماً؟

"الغداء على العشب" ليس عنوان اللوحة التي رسمها إدوار مانيه فقط، فبعده بسنتين رسم كلود مونيه لوحة بالعنوان نفسه. وفي كل واحدة من هاتين اللوحتين، نرى أربعة أشخاص يتناولون الغداء في البريّة، ولكن في حين أننا لا نرى من الطعام في اللوحة الأولى سوى سلة فاكهة ورغيف خبز، نرى في الثانية دجاجة محشوة وقالب حلوى بالشوكولاته، إضافة إلى الخبز والفاكهة والأطباق.. والكل مرتب على غطاء أبيض فرش أرضاً. أمّا الأشخاص الأربعة فيقعون خلفه وكأن المائدة بحد ذاتها هي الموضوع الرئيس. ولكن بسرعة تحوّل تركيز الرسّامين من الغداء على العشب في الطبيعة إلى ما هو معاش يومياً في مدينة تخنقها المقاهي وصالات الموسيقى وأصوات الصحون في سمفونية آدميّة وجد الانطباعيّون متعة في الاستماع إليها وتسجيل تفاصيلها.

في المقاهي والمطاعم

ما من انطباعي واحد أفلت من رسم المقاهي والمطاعم، ولكن كان لكل منهم زاويته الخاصة في التطلع هنا أوهناك لاكتشاف ما لم يكتشفه صديقه. ركز هنري دي تولوز لوتريك نظره على مقاهي اللهو وملابس الفنانين من دون اكتراث يذكر بنوعيّة الأطعمة. أما إدغار ديغاس مثلاً فغالباً ما نراه يرسم زبائن المطاعم وأجواءها الداخليّة من دون أي طعام على الموائد، ولكن في المقابل أولى معظم الانطباعيين المائدة بحد ذاتها أهمية بالغة. ولعل مونيه هو أكثر الفنانين توقفاً أمام نوعيّات الأطعمة.

ففي لوحة "الغداء" التي رسمها سنة 1868م نرى ابنه وزوجته وإلى جانبه طبق من سلطة الخضار إضافة إلى مائدة عليها طبق من اللحمة المقليّة والبطاطس، والبيض المسلوق والمربى والعنب والخبز.

غير أن أهم لوحات الانطباعيين في هذا المجال كانت تلك التي صوّرت حالات الفرح الاجتماعية من خلال بهجة الأجواء في المطاعم والمقاهي وحول الموائد. ولعل رينوار هو الأبرز في هذا المجال، ففي لوحة "حفلة راقصة في مقهى مولان دي لا غاليت" رسم الفرح الصاخب بعطلة يوم الأحد واللقاء في أحد المطاعم، ومن بين الحشود الظاهرة في اللوحة يستطيع المدقق في الوجوه أن يكتشف أن من بين هؤلاء يوجد العديد من الفنانين أصدقاء الرسّام.

وذهب رينوار إلى ما هو أبعد من ذلك إذ وجد في المائدة مجالاً للتعبير عن الأمزجة المختلفة وصولاً إلى الاسترخاء والشعور بالنعاس الذي يتبع الانتهاء من تناول الطعام. وله حول هذا الموضوع عدة لوحات، الأولى "بعد وجبة غداء" التي رسمها سنة 1879م، وتظهر امرأة ورجلين تمدد أحدهما على الكرسي إحساساً بالتخمة، في حين أشاح الثاني بوجهه عن الطاولة. ويبدو أن نجاح هذه اللوحة دفعه إلى إعادة رسم الموضوع نفسه سنة 1881م مع عدد أكبر من الأشخاص. وفي اللوحتين تتجلى عبقريّة هذا الرسّام في تغليب جو الفرح والتفاؤل من خلال الألوان الزاهية والضوء الناري القوي، على الشعور بالإحباط الذي يمكن أن يتركه منظر فتات الخبز وفضلات الطعام والآنية المبعثرة على الطاولة المجهدة.

وفي لوحة ثالثة لرينوار أيضاً بعنوان "مطعم أنتوني" رسمها سنة 1886م في ضواحي فونتينبلو بعيداً عن باريس، نرى المائدة بعد الفراغ من وجبة الطعام للمرّة الثالثة. فالسيدة تجمع الأطباق وفناجين الشاي، ليفرش أحد الرجال جريدة "الإفينمان" عليها في خطاب واضح يؤكد وظيفة المقهى كمكان للحوار الثقافي. وتكرر الخطاب نفسه في واحدة من أواخر لوحات رينوار سنة 1898م، وهي بعنوان "الغداء

Paris Musée D'Orsay d.r.

كلود مونيه: «الغداء على العشب» 1866م



Chicago Art Institute

بيار أوغست رينوار: «بعد وجبة غداء» 1879م

Washington the Philips Collection

رينوار: «غداء البخارة» 1881م

في برنفال" حيث نرى في مقدمة اللوحة رجلاً يقرأ الصحيفة وفي عمقها الخادمة بقرب المائدة في إشارة واضحة ومكررة إلى تلازم الغذائين.

حوالي سنة 1875م هجر الانطباعيون مقهى "غيربوا"، بناءً على إلحاح من الفنان مارسيلان دي بوتان على الأرجح، الذي وجد أن المكان أصبح صاخباً جداً، وانتقل الجميع إلى مقهى ومطعم "أثينا الجديدة" في ساحة بيغال القريبة من "مونمارتر". وهكذا صارت باريس ذات قطبين ثقافيين: الكُتَّاب والمفكرون والشعراء في الحي اللاتيني على الضفة اليسرى من نهر السين، والرسّامون في مونمارتر وضواحيها على الضفّة اليمنى، حيث المطاعم والمقاهي ودور اللهو على اختلاف أنواعها تشبع شغفهم بالحياة الزاهية. وهناك بالتحديد أنجز بعض الانطباعيين أهم لوحاتهم على الإطلاق.

في مقاهي تلك المنطقة وحاناتها صنع لوتريك كل ما يستحق الاحترام من لوحاته الفنية. وهناك رسم مانيه أيضاً أهم لوحاته "النادلة" 1879م و"مقصف فولي بيرجير" 1881م. وإذا كانت المرأة التي تخدم طاولة وعينها تتطلع إلى طاولة أخرى هي الموضوع الأساس في اللوحة الأولى، فإن المرأة في اللوحة الثانية تكاد للوهلة الأولى أن تبدو وكأنها بائعة فواكه لطغيان الإناء الذي يحوي البرتقال على الطاولة أمامها.

وإضافة إلى الشلة القديمة التي كانت تلتقي في مقهى غيربوا، انضم إلى الانطباعيين في مقهاهم الجديد الرسام جان فرانسوا رافايلي وعدد من الناشئين. ولكن بسبب موقع المقهى الجديد ومستواه فإن الفنانات المحترمات من الطبقة البورجوازيّة المحافظة مثل بيرت موريزو وماري كاسات لم يتمكنّ من البقاء ضمن الشلّة. وعبّرت الرسّامتان عن أسفهما لذلك، وافتقادهما إلى الحوارات الثقافية المهمة التي كانت تدور بين روّاد المقاهي أنذاك، وعلى رأسهم مانيه الذي كان الأستاذ الذي يهابه الجميع. ولكن غياب كاسات وموريزو عن المقاهي الشعبيّة لا يعني غياباً لموضوع الطعام والموائد عن لوحاتهما. "فحفلة الشاي عصراً" لا تزال حتى اليوم تحفة الفنانة الأولى، أما الثانية فلم تتردد في رسم "غداء على العشب" عام 1878م أي بعد اللوحتين السابقتين اللتين تحملان الاسم نفسه بنحو عقد ونصف من الزمن.

الطبيعة الصامتة: خضار ولحوم

معظم اللوحات المشار إليها حتى الآن كانت كبيرة الحجم. ولكن معظم زبائن الانطباعيين الأوائل كانوا من الطبقة الوسطى الذين يسكنون في منازل وشقق محدودة المساحة، ويرغبون في لوحات صغيرة الحجم نسبياً. وهنا ظهرت لوحات الطبيعة الصامتة لا كحل يرضي الزبائن فحسب بل مجالاً رحباً وإضافياً سمح للانطباعيين برسم كافة أنواع اللحوم والأسماك والخضار والفاكهة في تشكيلات مختلفة على طاولات المطبخ.

فقد رسم فان غوخ سمكتي "ماكاريل" وبقربهما السكين وثلاثة ليمونات وأربع حبّات بندورة. ورسم مونيه الإجاص والعنب بألوان زاهية للغاية. أما ربطة الهليون التي رسمها مانيه سنة 1880م، فتبقى واحدة من أشهر لوحاته، وذات خصوصية فنية تميزها عن لوحاته الأخرى التي احتوت على أسماك وأصداف وما شابه.

وذهب غوستاف كايبوت سنة 1880م إلى حد رسم أكثر من عشرة أنواع من الخضار والفاكهة المصففة والمعروضة على الورق الأبيض في دكان بقالة.
وشملت رسوم الانطباعيين في هذا المجال كافة أنواع الأطعمة التي يمكن أن تخطر على البال من "البصل" عند بول سيزال، وصولاً إلى الفطائر المحلاة عند مونيه، والتي قالت عنها زوجته إنها تبدو في اللوحة أكثر إثارة للشهيّة مما كانت عليه في الواقع!

الروائي الإيرلندي جورج مور الذي عاش لبعض الوقت في العاصمة الفرنسيّة آنذاك وكان من روّاد مقهى "أثينا الجديدة" وصديقاً للرسّام مانيه لخّص أهمية المقهى المطعم في عصر الانطباعيين بقوله: "إنه الأكاديمية الحقيقية للفنون في فرنسا".

في النصف الثاني من الثمانينيات، راح الانطباعيون يغادرون باريس ويتبعثرون أينما كان. أولهم كان مونيه الذي ذهب إلى جيفرني للاستقرار فيها سنة 1883م. ومن ثم كان التوجه إلى مقاطعة "بروفانس" والذي قاده فان غوخ سنة 1888م في محاولة لتجميع المهاجرين الانطباعيين هناك. ولكن أنى كان توجههم، فقد حملوا معهم دائماً هذا المزاج المهتم بالمائدة والطعام والمطاعم.

في بروفانس رسم فان غوخ "مقهى الرصيف ليلاً" و"مطعم كاريل" وغير ذلك الكثير، وهناك أيضاً رسم سيزان "الغداء على العشب" أيضاً. وفي جيفرني رسم مونيه "الغداء تحت الخيمة".

أما في باريس فمن القلائل الذين بقوا فيها وبقوا يزورونها بانتظام كان هناك بيسارو وسيسلي وكايبوت ورينوار الذين كانوا يلتقون مساء أول يوم ثلاثاء من كل شهر في "كافيه ريش" لتناول العشاء. فالشهرة التي حظوا بها وفرت لهم بحبوحة مادية صارت تسمح لهم بارتياد المطاعم والمقاهي الفاخرة مثل برونيه، ودوران، والكافيه دي باري، والمقهى الإنكليزي.
ولا أحد يعرف ما إذا كان هؤلاء ظلوا يشعرون في مثل هذه الأماكن بحنين إلى تلك المطاعم الشعبيّة الرخيصة التي شهدت ولادة فنهم ونقاشاتهم الساخنة وصداقاتهم الحميمة قبل سنوات معدودة.

في أواخر ذلك القرن، غادر رينوار بدوره باريس للاستقرار في الجنوب، فتلاشت الشلّة الانطباعية تماما.. ولم يبق منها غير الذكريات في المطاعم والمقاهي التي راحت تتغنى بكونها مهد أشهر مدرسة فنية في العصر الحديث.. ولا زالت تكرر الأغنية حتى اليوم.

Otterlo rigksmuseum. Kröller - Müller

فان غوخ: «مقهى الرصيف ليلاً» 1888م



Private Collection, Madame Hoschedé (Monet's second wife)

مونيه: «الفطائر المحلاة» 1882م

Frankfort, städelsches kunstinstitut

مونيه: «الغداء» 1868م

المطبخ الفرنسي.. قضيّة مستمرّة

يقول المثل الشعبي الفرنسي إن الذوق والألوان أمران لا يحتملان النقاش. ولكن هذا لا ينفي مركزيّة المطبخ الفرنسي الذي يستمد قوّته ليس من نوعيّة الأطباق وكيفية تحضيرها فحسب، بل من جملة طقوس متقنة تشمل أماكن تناول الطعام وأدواته وآدابه ونوعيّته، الاستقبال وتسلسل الأطباق ما بين المقبّلات والحلوى.. إلخ.

ولدى الحديث عن المطعم الفرنسي يجري التركيز عادة على المطاعم الفاخرة التي تتمتع بسمعة عالمية ومهابة. ولكن الواقع أن مرتاديها قلّة نظراً إلى كلفتها، وصعوبة الحصول على مكان فيها، وخضوعها لطقوس صارمة، الويل كل الويل لمن يخالفها.

ولكن المطعم المثالي بالنسبة للفرنسي المتوسِّط، هو في المنزلة الوسطى بين المطاعم الجامعيّة الرخيصة والمطاعم الأسطوريّة ذات السمعة العالميّة. ومع ذلك يجب على هذا المطعم المثالي أن يخرج عن المألوف والعادي ويؤمِّن لمرتاديه نوعاً من الحميميّة بعيداً عن البهرجة، ويتميّز بالخدمة الممتازة القادرة على تلبية متطلباتهم.

ومن العوامل التي تعتبر أساسيّة في الإقبال على المطعم وتحديد نوعيّة روّاده، الجو الذي يؤمِّنه صاحب المطعم وقدرته على الحوار مع الزبون، وقيامه بكل هدوء وحب بشرح طريقة تحضير كل طبق على حدة ونوعيّة كل مادة تدخل فيه.

في منتصف السبيعينيات من القرن الماضي، جرت محاولات تحديث المطبخ الفرنسي عبر سلسلة من النصائح والأوامر جمعتها إحدى المجلات المتخصصة ونشرتها سنة 1976م. وتضمنت -على سبيل المثال- الدعوة إلى استخدام الميكرويف والطبخ بالفراغ والبخار، وتصغير قوائم الأطعمة في المطاعم، وإلغاء مجموعة من الصلصات السمراء والبيضاء، وتحاشي المبالغة بالتزيين والتخلي عن المقليات. وبعدما وجدت هذه النصائح بعض الآذان المصغية، هنا وهناك، تداعت وكأنها لم تكن. وشنّ كبار الطباخين والأساتذة في هذا الفن هجوماً عليها. ومن الذي تهكموا عليها كان هناك المعلم بول بوغوس الشهير الذي وصف حال الطعام المحدّث بقوله: "أصبحت الجزرة الصغيرة تتجاور في الصحن مع قطعة اللفت ومع حبة بازيلاّ مقسمة إلى أربعة أشطار لترافق قطعة دجاج مخففة الدسم.. اللون في هذا المطبخ أحرّ من النكهة والعين أهم من الذوق"..!

كان ديغول يقول: "كيف يمكنني أن أحكم بلداً فيه أكثر من 360 نوعاً من الجبنة؟" والسؤال هو: كيف يمكن للفرنسيين أن يصوّتوا لنوع واحد من المطاعم في حين أن بلدهم يزخر، بالإضافة إلى المطابخ الفرنسية المتنوعة، بكل ما احتوى العالم من مطابخ؟ فالمطعم بالنسبة للفرنسيين هو، في النهاية، مكان ثقافة وفن وحياة بقدر ما هو مكان تذوق وتعرف على كل ما لذّ وطاب.

لقد طرأت تغيرات على عاداتنا الرمضانية اليومية، فحوّلنا ليله إلى نهار، نمارس فيه ألواناً من الأنشطة، من التسلية ومشاهدة البرامج التلفزيونية وانتهاءً ببعض البرامج الثقافية والاجتماعية، وربما واصلنا الليل بالنهار وذهبنا إلى أعمالنا دون الخلود إلى النوم لإعطاء الجسم حقه من الراحة لاستئناف دورة الحياة من جديد.
الزميل **محمد أبو المكارم** نقل لنا فيما يلي كيف نقود سياراتنا في أيام رمضان.

القيادة الآمنة في رمضان

اعقلها.. وتوكل

حينما يختل توازن دورة الحياة بهذا الشكل، فيتحول الليل إلى نهار بالسهر لأي أمر كان، والنهار بالقسر إلى يوم عمل أو دراسة، فإن الإنسان يفقد قدرته على التركيز، فيحدق به الخطر عند إدارة أي جهاز يحتاج إلى توازن جسمي أو تركيز ذهني، ومن ذلك قيادة السيارة من وإلى العمل.

حين لا يأخذ الجسم كفايته من الراحة والنوم نتيجة لإحياء ليل شهر رمضان بالسهر داخل المنزل أو خارجه، ينتج عن ذلك العديد من مشاكل الصحة والسلامة، ويؤثر على إنتاجية الموظف واستيعاب الطالب، لوقوع الإنسان في أسر الإرهاق والإعياء ومقاومة الحاجة والرغبة الملحة في النوم.

لقد لوحظ على الذين لا ينالون قسطا كافياً من الراحة والنوم، قلة التركيز، والتوتر، وسرعة الغضب، وبطء رد الفعل تجاه الأخطار، خصوصاً أثناء العمل أو قيادة السيارة.

خذ كفايتك من النوم

إن لبدنك عليك حقاً، وفي غمرة النشاط والسعادة بالبرامج الرمضانية، ينبغي ألا تنساه، فأعطه حقه من الراحة، وجدول نشاطاتك اليومية بحيث تضمن لنفسك القدر الكافي من النوم قبل التوجه لعملك أو مدرستك.

قد تشعر بالحيوية واليقظة التامة حال كونك مشغولاً أو إذا كان هناك ما يثيرك، لكن بزوال المؤثر، وركون الإنسان إلى الهدوء، يعود الجسم إلى طبيعته، وقد يكون لحظتها خلف المقود، ولا ينتبه إلى الخطر المحدق إلا بعد فوات الأوان، ولن تكون حينها مصدر خطر على نفسك ومرافقيك في سيارتك فحسب، بل على كل شركائك في الطريق.

وهناك مؤشرات تدق جرس الإنذار، إذا تنبه لها السائق، ساعدته على كشف وضعه وتداركه في الوقت المناسب.

هل أنا مصدر الخطر؟

قد تكون أخذت قسطك من النوم والراحة، ولست أنت مصدر الخطر، لكن يبقى عليك أن تكون على حذر من أولئك الذين لم يناموا كفايتهم، فهم شركاؤك في الطريق، وقد يشكلون خطراً ليس على أنفسهم فحسب، بل على من سواهم، أيضاً.

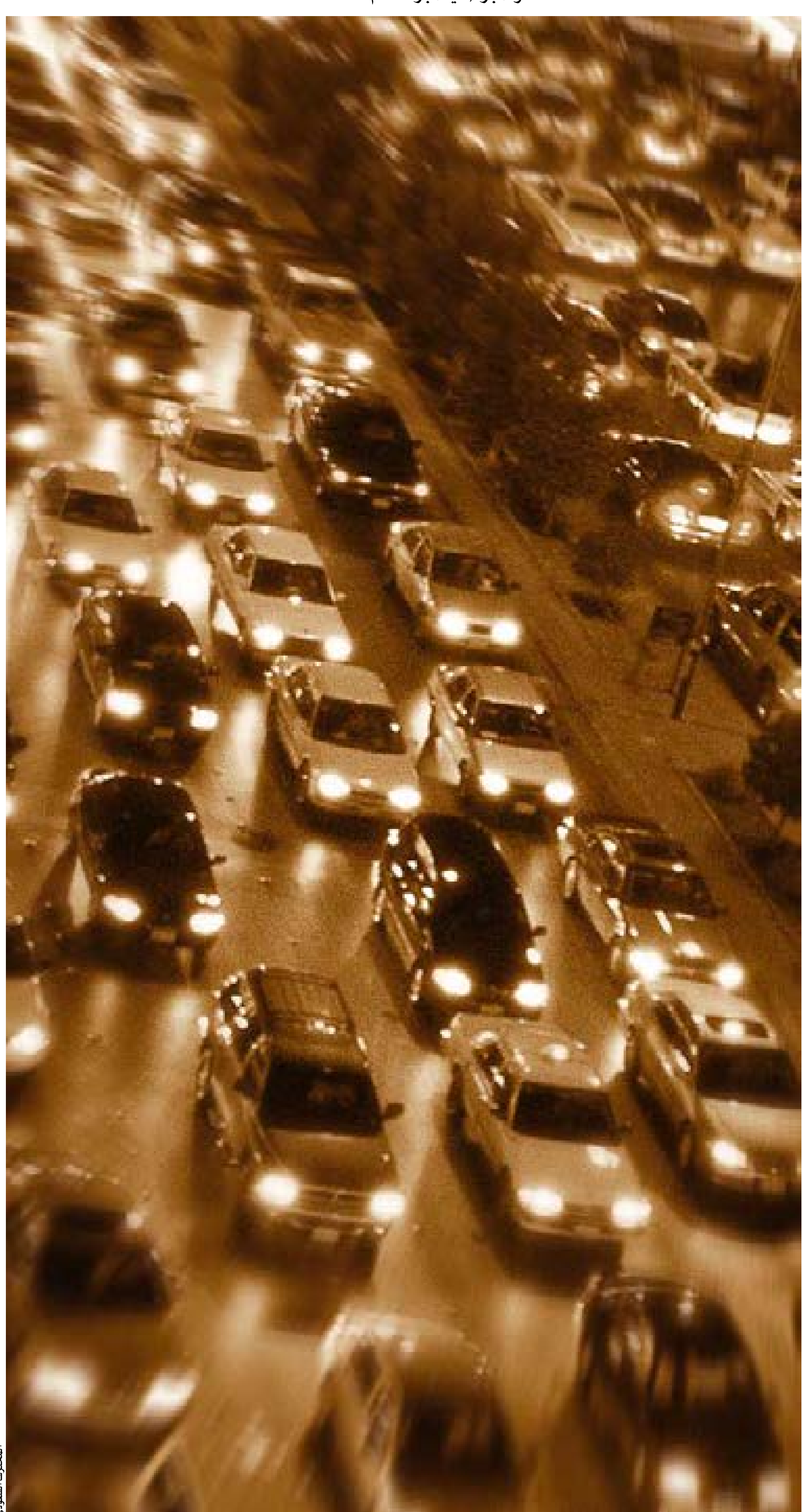
إذا رأيت سيارة تميل يمنة ويسرة، أو رأيت السائق يتثاءب، أو مسترخياً أو مغمض العينين، فاضغط على المنبه كي توقظ فيه حواسه وتعيده إلى توازنه، واجعل بينك وبينه مسافة تجنباً للخطر.

مؤشرات الخطر

- شرود الذهن وتشتت الأفكار
- التثاؤب المتكرر
- عدم تذكر الأشياء التي حدثت قريباً ومنها معالم الطريق الذي مررت به تواً
- عدم القدرة على التركيز والاستيعاب
- صعوبة إبقاء العينين مفتوحتين
- غبش في الرؤية
- صعوبة إبقاء الرأس مرفوعاً
- التأرجح بين المسارات، أو الخروج من الشارع إلى الكتف (قارعة الطريق)
- القلق
- سرعة الانفعال
- آلام في العضلات

قواعد السلامة

- احرص على أن تأخذ القدر الكافي من النوم قبل الخروج إلى الطريق.
- تجنب الوجبات الثقيلة والمشروبات المحتوية على الكافيين قبل النوم.
- تعرف على علامات الإرهاق ومؤشرات الخطر المذكورة آنفاً، وتعامل معها بشكل آمن.
- تجنب قيادة السيارة والقيام بأعمال تتطلب درجة عالية من التركيز والانتباه، إذا كنت مرهقاً.
- تنبه للأخطار التي يسببها الآخرون في الطريق، حتى لو كنت قد أخذت قسطاً كافياً من النوم.
- لا تدع شخصاً تعرفه مصاباً بعلامات الإرهاق أن يسوق سيارة أو يدير آلة خطرة.
- استجب لشعورك بالإعياء، فإذا أدركت بعد انطلاقك بالسيارة أنك مرهق، توقف في مكان آمن بجانب الطريق وخذ غفوة قصيرة، أو مارس بعض التمارين التي تعيد لك الحيوية والنشاط، كالسير قليلا، أو القيام بتمارين تمديد العضلات، أو أية ممارسة أخرى آمنة تنشط الدورة الدموية.
- استخدم وسائل النقل البديلة ما أمكن، كالمواصلات العامة، أو سيارة أجرة، أو مع أحد الأصدقاء.
- راقب الطريق جيداً وكن سائقاً وقائياً، ومنتبهاً لأي تغير مفاجئ في حركة المرور.
- اربط حزام الأمان، وتأكد أن جميع من معك في السيارة قد ربطه.
- اتبع قواعد المرور، وانتبه لما يدور حولك، واعقلها وتوكل على الله.



المحترف السعودي

بيننا وبين الشعر الحديث سوء تفاهم. البعض يقرأه فيرتبك، وكثيرون يتلافون الارتباك بتلافي قراءته، حتى أن العديد من الشعراء المُجيدين في القرن العشرين دفعوا ثمناً باهظاً من الشهرة التي يستحقونها لمجرد أنهم معاصرون لبعض شعراء الحداثة، الذين لا يعير القارئ العادي انتباهه لإنتاجهم. وهكذا تكاد القطيعة ما بين القارئ والشعر العربي الحديث أن تصبح شاملة. الناقد المعروف جهاد فاضل يعرض لنا العوامل التي أدت إلى هذه الأزمة وآراء كبار الشعراء فيها.



لوحة: كميل حوا

الشعر العربي الحديث في أزمة

ما هكذا كان الشعر أصلاً!!

كان الشاعر الكبير الراحل عمر أبو ريشة يردّد في سنواته الأخيرة أن الشعر العربي خضع منذ الخمسينيات من القرن الماضي لتخريب منهجي مقصود، كان من نتيجته هذا التسيّب الذي لا يخفى على أحد. وكان عمر يتهم بعض الجهات بهذا التخريب. وعندما قلت له مرة إن هذه الجهات قد لا يكون لديها وقت كاف للاهتمام بالشعر الحر، وبقصيدة النثر، وبسوى ذلك من الأشكال والألوان التي طرأت على هذا الشعر ابتداءً من تلك الفترة.. ردّ على ذلك قائلاً: «إن تخريب الشعر العربي وهو من مقومات الأمة وأحد عناصرها الثقافية عملية لا تقل خطورة عند أعدائنا، عن أية عملية أخرى. فهذه العملية من شأنها فصل حاضر الأمة عن ماضيها، وإضعاف هويتها الثقافية، وإلهائها في معارك جانبية حول الأشكال الشعرية، وما إذا كان باستطاعة التفعيلة، والمنثورة، أن تتحول أم لا إلى شكل جديد من أشكال الشعر يحبّب الأشكال الخليلية الكلاسيكية..».

كان عمر يشفع مقولاته حول تخريب الشعر وضخ كمية هائلة من الإسفاف والضحالة في سوقه، بترداد عدد من النصوص النثرية التي كان يطالعها في الصحف اللبنانية اليومية، والتي كانت تحوي من الغرائب والعجائب ما لا مزيد عليه. وكان في كل جلسة من جلساته، سواءً في منزله الواقع قرب شارع الحمراء في بيروت، أو في أي مكان آخر، يضيف إلى تلك النصوص النثرية الركيكة التي لا تدلّ على معنى، ولا يحكمها أي منطق، نصوصاً أخرى جديدة تثير السخرية والضحك. وكان يضيف إلى النصوص شتائم كثيرة يصبها على رؤوس أصحابها، ويعود من جديد إلى نغمة الجهات الأجنبية وشنّها الحرب على العرب على جبهتين: جبهة الحرب وجبهة الثقافة..

وبصرف النظر عما إذا كان هناك من خاض مثل هذه الحرب على جبهة الشعر العربي أم لم يخضها، وأنا أشك في ذلك، فلا ريب في أن وراء ما كان يشكو منه عمر أبو ريشة أسباباً مختلفة منها استسهال الشعراء لرحلة الشعر. فمن كان يجد أن لديه ما يقوله شعراً، ولا يملك عدّة الشعر وأدواته الراسخة المعروفة، كان يلجأ إلى هذا النثر الركيك يبثّ بواسطته لوعته، أو نجواه، أو شكواه، أو صراخه، ويضع فوقه عبارة "شعر"، أو "قصيدة". وكان هذا الشاعر يبرر ما يفعله، بأن الكثيرين من الشعراء فعلوا ما فعل، وبأن الأفرنج وهم شعوب متحضرة، يستخدمون عبارة الشعر المنثور، أو قصيدة النثر، فلماذا لا يحذو حذوهم ويسلك طريقهم؟ ولماذا لا يتبنى مقولات عديدة باتت شائعة في الوسط الأدبي العربي منها أن الشعر فعل حرية، وأن القصيدة الجديدة لا بد لها من شكل جديد، وأن لكل عصر أنماطه وأساليبه وطرائقه الشعرية. فهل يتعين على شاعر اليوم أن يظل يكتب كما كان يكتب شاعر الجاهلية، أو شاعر الغابرية، كما يعبّر بعضهم؟ وعندما سمع هذا الشاعر - إن صح أن يُسمّى شاعراً - أن هناك منظّرة أدبية فرنسية اسمها سوزان برنار أصدرت كتاباً أصّلت فيه قصيدة النثر الفرنسية منذ بودلير إلى يومنا هذا، تساءل هذا الشاعر: ولماذا لا نؤصّل نحن العرب النثر الفني أو قصيدة النثر منذ كهّان الجاهلية وسجعهم إلى اليوم؟ ولأن هذا "الشاعر" تمكن بسهولة من السيطرة على الصفحة الثقافية العربية، وتمكن بالتالي من إشاعة مثل هذا التنظير، ومعه تلك النصوص النثرية التي يعرفها القارئ جيداً، فقد انسحب كثيرون من الشعراء من ساحة الشعر ومن الرّد والجدل حول الشعر وأشكاله إلى أن وصل الجميع إلى ما بات يُعرف بأزمة الشعر العربي.

> تَمَثُّل الحداثة الأوروبية والغربية أدى إلى فقدان المفهوم التاريخي والعقلاني للشعر كما مارسه العرب على مدى أكثر من ألف وخمسمائة سنة

مرارة الشعراء

قد يُقال أن عمر أبو ريشة كان عاجزاً في سنواته الأخيرة عن إدراك المشهد الذي آل إليه الشعر العربي يومها، وأنه لم يكن باستطاعة شاعر في عمره وفي وضعه، أن يتفهم مفاهيم شاعت أيمّا شيوع في الخمسينيات والستينيات من القرن الماضي، مثل "الحداثة" و "التجاوز"، و"التخطي" و"النص المفتوح"، فنُجيب بأن الكثيرين من بناة ما يُعرف الآن بالشعر العربي الحديث وصلوا إلى الموقف نفسه الذي كان عمر أبو ريشة قد وصل إليه. فبدر شاكر السيّاب أصيب بالذعر وهو يقرأ نتاج شعراء شباب تعاملوا بمهانة مع الشعر، فقادهم يوماً إلى دار المعلمين العالية في بغداد التي درس فيها وهو فتى، وقال لهم وهو يطأ عتبة الصف الذي كان يدرس فيه: "على هذه الصفوف جلست، وجلس زملائي من الشعراء المرموقين الذين تعرفون. وقد قرأنا وتعبنا وسهرنا آلاف الليالي حتى صار بإمكاننا أن نكتب قصيدة سوية، وحتى عَرفَنا العراق والعالم العربي. لا تعتقدوا أن كل من انتصر على الوزن والقافية وتمكن من بناء بضعة عشر بيتاً، صار شاعراً أو شاعراً كبيراً.. فللوصول إلى مثل هذا اللقب أهوال دونها مصارعة السفن للأمواج العاتية".

ولا شك أن نصف هجائيات الشاعر عبدالوهاب البياتي في ربع القرن الذي سبق وفاته، كان موجهاً إلى الشعراء الشباب الذين كانوا يصرّون على منازلة الشعر، وما من علاقة واحدة تدلّ على أنهم سيُفلحون في هذه المنازلة. وإذا كانت هجائيات البياتي لزملائه الشعراء كنزار قباني، وأحمد عبد المعطي حجازي، ومحمود درويش، وأدونيس، كانت مفزعة ورهيبة في عدوانيتها، فقد كانت هجائياته لمن كان يسميهم "بصعاليك الشعر"، أكثر إفزاعاً وعدوانية.

أما خليل حاوي فقد مات وفي نفسه شيء من "الشعراء الصغار"، هذا إن لم نقل أن هؤلاء الشعراء كانوا سبباً من أسباب الوضع النفسي والعصبي المتأزم الذي قاده لاحقاً إلى الجنون ثم إلى حتفه. وكان يحلو له أن يردد في تلك السنوات العجاف من حياته معبرة مستقاة من تجربته في مهنة العمار. موجز هذه الحكاية أن "المعمرجي" يُمضي ما لا يقل عن عشرين سنة في مهنة العمار قبل أن يناديه زملاؤه، أو بقية أفراد محيطه بلقب "المعلّم". في حين أن من لم يجتز بعد مرحلة القرزمة الشعرية، تناديه "الصفحة الثقافية" العربية بالشاعر المبدع، أو الشاعر المعروف، وأحياناً الشاعر الكبير. ويناديه النقد كذلك عندما يتعرض حتى لباكورته الشعرية.

لا يجادل أحد في أن لكل زمان شعره. فالشعر هو نتاج زمن معين كما هو نتاج بيئة اجتماعية تحيط

بالشاعر. ولكن ذلك لا يعني بأي حال من الأحوال أن الشعر يموت بموت الزمن الذي أنتج فيه، أو بتحوّل ملامح البيئة التي أحاطت بالشاعر إلى ملامح أخرى. فهناك قصائد جاهلية، أو أموية، أو عباسية، أو غير ذلك، لا تزال تصول على الزمن وتوهب لها حياة جديدة ومديدة. وينتج عن ذلك أن القصيدة التي تحمل ملامح زمنها وبيئتها قادرة على اختراق أزمنة وبيئات أخرى إلى ما لا نهاية إذا كانت عظيمة. وهكذا فإن الحداثة التي تشكل جوهر هذا الاختراق، ليست زمنية على الإطلاق. وهذا يقودنا إلى القول أن الحداثة لا تعني القطيعة مع الماضي بمقدار ما تعني التواصل معه، وإعادة بنائه من جديد، والانطلاق بالتالي نحو آفاق أرحب وأخصب.

ولكن هذا المفهوم للحداثة يتعارض مع مفهوم آخر التبس على الكثيرين إذ اعتبروه طوق النجاة للشعر والشاعر. بموجب هذا المفهوم الأخير للحداثة، جرت دعوة الشعراء العرب إلى تمثل حداثة شعرية أوروبية وغربية لا تمتّ بصلة إلى تطور الشعر العربي في واقعه الراهن. قالوا للشاعر: إن القصيدة الغربية تشبه اللوحة التجريدية في غموضها وإبهامها. بل تشبه القطعة الموسيقية التي يفهمها كل متلقٍّ على هواه. فكما أن اللوحة التجريدية، ومعها القطعة الموسيقية، غير قابلتين للشرح، فالقصيدة الجديدة بدورها غير قابلة للشرح. فالشاعر الحديث لا يُطلب منه ما كان يُطلب من الشاعر القديم. وهكذا فُقد إلى الأبد المفهوم التاريخي والعقلاني للشعر كما مارسه العرب وهو أن الشعر هو ذاك الكلام الموقع الذي يدل على معنى. وعندما ألغوا الموسيقى في الشعر، ثم ألغوا المعنى، باتت القصيدة عبارة عن قصبة خرساء، وعن جسد متهدم للعقل والروح. وبذلك وصل الشعر العربي إلى حالة الركود والانهيار، وهي حالة تُرى الآن بالعين المجردة.

قد لا يوافق الشعراء النثريون على هذا التوصيف لحال الشعر الآن. فهم يقولون إن "الشعر القديم" مات، وبُعث الشعر العربي بهيئة قصيدة نثر. ومن يعترض على هذه النتيجة عليه بنظرهم أن يفسّر لماذا يُطبع في السنة الواحدة ألف ديوان قصيدة نثر، ولا يُطبع في السنة الواحدة سوى مئة أو مئتين أو ثلاثمئة ديوان قصيدة شعر.

إن ما يقوله الشعراء النثريون يمثل في الواقع نصف الحقيقة لا أكثر. فصحيح أن المطبوع من مجاميع قصائد النثر قد يكون أكثر من حيث العدد من دواوين الشعر المعروفة. ولكن من يهتم أو يُعنى بهذه المجاميع النثرية؟ هل يقرأها أحد؟ الواقع أن مصيرها هو الإهمال التام تقريباً. ذلك أن تداولها يقتصر في الأعم الأغلب على بضع عشرات من الأصدقاء وشعراء هذا الصنف ونقاده. ويتأكد لنا ذلك إذا ما عرّج أحدنا على إحدى المكتبات العامة وسأل أصحابها عن رواج هذه المجاميع، إذن لظفر بجواب واحد قاطع دقيق وهو أن لا قارئ لها على الإطلاق. كما يتأكد لنا ذلك إذا ما سألنا الناشرين الذين ينشرونها، فهم يقولون أنهم في الواقع لا ينشرونها إلا بعد تقاضي ثمن طبعها كاملاً ومسبقاً، وما هكذا يفعلون عادةً مع المؤلفين الآخرين.

ويبدو أن إطار تداول "مجموعة قصيدة نثر" هو حلقة "الشاعر" التي لا تتجاوز أقاربه وأصدقاءه ومعارفه. وهذا "الشاعر" مدجج باستمرار بعدة نسخ يضعها في حقيبته أو صندوق سيارته، وأحياناً في جيبه أو تحت قميصه، من أجل أن يقدمها لمن يتعرف عليه على عجل. وبخاصة لصحفيي التقاه لأول مرة، ومن الممكن أن يكتب عنه أو عنها.. فلهذه الجهة يمكن القول أن المطبوع من دواوين قصيدة النثر قد يكون أكبر من المطبوع من قصيدة الشعر.

ولكن هذا لا يعني أن قصيدة الشعر في زماننا الراهن هي أفضل بكثير من قصيدة النثر. فهناك ملاحظات كثيرة على هذه القصائد تنتهي إلى اعتبار أن هناك أزمة فعلية في إطار الشعر العربي الحديث كله. فالقصيدة الخليلية العظيمة التي كان يكتبها بدوي الجبل، وعمر أبو ريشة، ومحمد مهدي الجواهري لم يعد لها وجود تقريباً. وليس حال قصيدة التفعيلة بأفضل من حال القصيدة الخليلية. فالشاعر المصري أحمد عبدالمعطي حجازي، وهو أحد رواد قصيدة التفعيلة في مصر يقول إن الرداءة هي طابع قصيدة التفعيلة الآن.

وفي اعتقادنا أن جزءاً كبيراً من مسؤولية أزمة الشعر العربي اليوم يتحملها الشاعر نفسه، فهو يطمح، وبثقافة هزيلة محدودة، إلى خوض غمار فن، هو الشعر، يستلزم ثقافة تراثية وإنسانية واسعة. وقد استلزم الشعر مثل هذه الثقافة العظيمة في ماضيه، كما يستلزمها الآن. فالذي صنع المتنبي هو ثقافته العظيمة زائد شخصيته المشدودة نحو المجد.
وكان محمد مهدي الجواهري يقول إنه عندما كان يخلو إلى نظم القصيدة على سطح منزله في بغداد، في ساعات الليل، كانت عشرات المفردات تتداعى

إلى ذهنه من أجل التعبير عن كلمة واحدة أو حالة. وعندما شوهد أمير الشعراء شوقي مرة وفي يده ديوان شعر من العصر المملوكي أثار عجب من شاهده، قال شوقي إن على الشاعر أن يطلع على كل شعر. فحتى الشاعر المملوكي يمكنه أن يقدم فائدةً ما للشاعر الحديث. وإذا كان نزار قباني يشذّ في ضعف ثقافته عن بقية شعراء زمانه الكبار، إذ أحصى له الدارسون، ما لا يزيد على مئتي مفردة كانت الأكثر تداولاً في شعره، فإن نزار كان يعوّض هذا الضعف باستدعاء "المواضيع" الساخنة التي كان يعالجها، وباستدعاءات شعرية وفيرة أخرى كانت تجد طريقها إلى قصيدته، كما كانت هذه القصيدة تجد طريقها السهل إلى قلوب قراء لا حصر لهم. وهذا ما جعل بعض دارسيه يلقبونه بالشاعر الشعبي الفصيح.

ويعود جزء آخر من أزمة الشعر العربي الراهن إلى ضعف تجربة الشاعر الحياتية والفكرية والاجتماعية. فكما لا تُنال القصيدة العظيمة بأدوات فنية ولغوية فقيرة، لا تُنال أيضاً إذا لزم صاحبها سواحل هذه الحياة وقنع بما توافر له من الأوزان والقوافي والمعاني السهلة التي لا يمكن أن يخلو منها قلب بشري. فالشعر هو رحلة صعبة في بحور لا سواحل لها، كما هو تجربة في أعماق الذات وفي آفاق لا حدود لها. وما لم تسلم للشاعر تلك الفطرة الموهوبة التي رُتّبت فيها رتبة عالية، فعبثاً يبحث عن مكان لائق لها في نادي الشعر.

وأول ما ينبغي للشاعر أن يفعله هو تأكده من امتلاكه لأدواته الفنية وفي طليعتها متانة لغته ووفرة ثقافته، وإتقانه لشروط كتابة الشعر وأولها العروض. لكل أمة شعريتها الخاصة، وطوائفها وأساليبها الخاصة في كتابة الشعر، وأولها عند العرب هو الأوزان الخليلية. ولقد واصلت هذه الأوزان مسيرتها طوال خمسة عشر قرناً استطاع خلالها الشعراء العرب أن يجددوا، وأن يعطوا شعراً متنوعاً في جماله، وفي أفكاره، وفي صوره، وفي موسيقاه. واستطاعوا في قمة هذه العصور أن يقدموا القصيدة الخليلية الشكل، الحديثة كأكمل ما تكون الحداثة، بكل جدية وطموح إلى التعبير عن روح العصر، ومد الظلال إلى المستقبل.

إن جزءاً كبيراً من المسؤولية يتحملها الشاعر نفسه، فهو يطمح بثقافة هزيلة ومحدودة إلى خوض غمار فن يستلزم ثقافة تراثية وإنسانية واسعة

بنظر بعض شعراء اليوم تشكل الأوزان قيداً على حرية الشاعر. ولكن الشعراء الكبار المطبوعين على الشعر، وفي كل عصر، لم يجدوا في هذه الأوزان قيوداً، بل نظاماً لا بد منه، وإلا تحولت الحرية إلى فوضى. ذلك أن الشعر سيتحول، في غياب "القيد"، إلى ما تحول إليه في وقتنا الراهن، حتى فقد كيانه كفن. هذا بالإضافة إلى أن الشعر، وأي فن أصيل آخر، يرفض السهولة والمجانية. هذا مع الإشارة إلى أننا، وفي إطار النثر، يمكننا أن نأتي بالجميل والمفيد، وبالرديء السقيم أيضاً. وكذلك الأمر في الشعر الموزون المقفّى. ولكن يظل الشعر شعراً والنثر نثراً، ويظل لكل منهما دوره، وشأنه، وحيزه، وكتّابه.

إن هناك أشكالاً متأصلة في أدبنا وفننا منذ عصور، وعبر عصور قبلها، وهي ذات مفهوم متميز وأثر متميز. وهي مرنة قابلة للحركة وتتسع في حدود الشروط الفنية التي لا بد منها لكل ما نريد قوله بشكل فني لائق. ولكن لا بد من الإقرار بأن هناك شعراً ونثراً، وإن هذا الشعر العربي، في أشكاله، هو التفعيلة الخليلية التي كانت عبارة عن شطرين متناسبين، والتفعيلة الواحدة أساساً. ولماذا الإصرار على هذه التفعيلة؟ لأنها في الواقع التفعيلة التي ترسخت في الوجدان العربي، والذوق العربي، عبر قرون. ولا شك أن باستطاعتنا في كل يوم أن نوجد تفعيلات غيرها. ولكننا، في النهاية، لن نتوصل إلا إلى النثر.

وإذا ما أردنا أن نضيف عنصراً آخر إلى العناصر التي أسهمت في إضعاف سليقة الشاعر، قلنا إن التنظير الشعري الذي أنصت له الشاعر الحديث أيما إنصات، وخضع له ولقوانينه في نهاية المطاف، هو الذي جنى على هذا الشاعر وأساء إلى قصيدته. لقد كان الشاعر القديم، وكذلك الشاعر السابق، أكثر اتصالاً بالبراءة الشعرية. لقد كان يكتب على ضوء سليقته وبراءته وتدفق الأفكار والمعاني والرؤى في داخله. فلما بات عليه أن يراعي موجبات "التجاوز" و"التخطي" و"النص المفتوح"، وأن يقوم بتفجيرات في منطقة اللغة وإلا غضب عليه فلان، ومن قبله فلان، انقطعت تلك الصلة الحميمة والتلقائية بين الشاعر والشعر، وافتُقدت تلك الغواية القديمة بالشعر لدى محبيه ورواده، وأصبح نموذج الشعر هو القصيدة المغلقة التي يلزمها عالم فلك أو منجم لفك مغاليقها. وما هكذا كان الشعر عند العرب وما هكذا الشعر أصلاً.

ديوان الأمس ديوان اليوم

إذا حلّ شهر رمضان المبارك حضر العيد ببهجته وذكرياته و«أحواله». القافلة نقّبت في الدواوين العربية واكتشفت انطباعات العيد عند الشعراء، السابقين والمعاصرين.

..بأية حال؟!

لا يذكر العيد إلا وتقفز أبيات أبي الطيب، قبل غيرها، إلى طرف لسان كل عربي:

عيــدُ بِأَيَّــةِ حــالٍ عُدْتَ يــا عيدُ
بِما مَضَــى أَمْ لِأَمْرٍ فِيكَ تَجْديدُ
أَمّــا الأَحبّــةُ فالبَيْــداءُ دُونَهُــمُ
فَلَيْــتَ دونَــكَ بِيــداً دونَهــا بِيــدُ

هي أبيات أرادها مخففة لآلامه لعجزه عن تحقيق آماله فاصبحت شعاراً لأمة بأكملها، تحكي حال كل عربي مهموم بأمته وهوانها على الناس وتعثرها عن اللحاق بركب الحضارة بعد أن كانت ملء السمع والبصر.

ولحق به شعراء معاصرون يبثون العيد همومهم ونجواهم فها هو عمر أبو ريشة يقول:

يا عيد، ما افْتَرَّ ثَغْرُ المجدِ، يا عيدُ
فكيفَ تلقاكَ بالبشرى الزغاريدُ
وكيفَ ينشقُّ عــن أطيافِ عزّتنا
حلــمٌ وراءَ جفــونِ الحقّ مَــوْؤُودُ
طالَعْتنــا وجــراحُ البغــي راعِفةٌ
وما لَهَا مِــنْ أُساةِ الحيّ تضميدُ

ثم يشكو فجيعتة والنزف المرير في خاصرة الوطن العربي فيبكي قائلا:

يــا عيدُ كم في رَوَابي القدس من كَبِدٍ
لَها على الرفــرفِ العلويّ تعييدُ
سالَتْ علــى العِــزِّ إرواءً لغصّتِهِ
والعــزّ عنــد أُباةِ الضَيــم معبودُ

ويبقى مع ذلك بصيص أمل في انفراج لا محالة آتٍ فيقول:

سينجلي ليلُنــا عن فَجْر مُعْتركٍ
ونحنُ فــي فَمِهِ المشبوبِ تغريدُ

ويربط الشاعر القروي أفراح العيد بشروط تحرر الأمة إذ لا معنى لعيد دون حرية فيقول:

أُكرِّمُ هــذا العيد تكريــم شاعرٍ
يتيــه بآيــاتِ النبــي المعظــم
ولكننــي أصبــو إلــى عيــد أمــة
محــررة الأعناق مــن رق أعجمِ

ويورد عبدالعزيز المقالح صورة قاتمة للعيد في ظل التشرذم الذي ترزح تحت نيره الأمة العربية فيبكي قائلا:

وككل يــوم مــرّ يــوم العيــد
متعثــر الخطــوات، غيــر جديدِ
متــورم القسمــات ينعــى نفسه
فــي طبلــه المتــأوه المكــدودِ
ويمرّ من حــول المدائن والقرى
مــرّ الغريــب الآثــم المطــرودِ

وفي معرض حديثنا عن العيد والشعراء هنا نخبة أخرى من الشعراء منهم من خاطب العيد لعينه ومنهم من هنأ بالمناسبة وهناك من تطرق إليه عرضاً في سياق المدح والتقريظ.

في البدء يبادرنا ابن الرومي بهذه الأبيات الرقيقة:

قَدْ مَضَى الصَّوْمُ صَاحِباً مَحْموداً
وأتى الفِطر صاحباً مَوْدُوداً
ذهَبَ الصّومُ وهو يَحْكيكَ نُسْكاً
وأتى الفِطرُ وهو يَحْكيكَ جُودَا

أما سعيد عقل فيدندن العيد أهزوجة لأهل مكة المكرمة ويشدو مترنماً على نسق التواشيح الأندلسية:

غنيــت مكــة أهلهــا الصيــدا
والعيــد يمــلأ أضلعــي عيــدا
فرحــوا فــلألأ تحــت كل سمــاً
بيــت علــى بيــت الهــدى زيــدا

وعند خليل حاوي يتخذ العيد شكلاً آخر هو أقرب إلى الفرح الجمعي مليء بأفراح الحصاد والأطفال إذ يقول:

مِنْ حصادِ الحقلِ عندي ما كَفَاني
وكَفَاني أَنَّ لي عِيدَ الحصادْ
أنَّ لي عيداً وعيدْ
كلّما ضَوَّأ في القريةِ مصباحٌ جديد.

ونازك الملائكة تأبى إلا أن تعم الأفراح الكون بأكمله فتغني للإنسانية بأجمعها مرددة صدى المثقف العربي ورؤيته الشمولية فتقول في قصيدة عيد الإنسانية:

في دمي لحن من الشوقِ جديدُ
والمجاليُّ حواليَّ نَشيدُ
ليلتي هذي ابتسام وسُعودُ
طافَ بالأفقِ فغنّاهُ الوجودُ
هي يا قيثارتي لحنٌ سعيدُ
هي شِعرٌ، هي وَحْيٌ، هي عودُ
هذه الليلةُ للعالمِ عيدُ
وهي، يا قيثارتي، الحُلْمُ الوحيدُ

ثم تنثني فتخاطب العيد في نفسها فتقول:

شاعرتي، حدِّقي، فهذي
جزيرةُ الشعر والنشيدِ
لاحت، على البعدِ، ضفَّتاها
أمنيةَ العالَم الجديدِ
قد ضحك العمرُ واسْتَنَامَتْ
عواصفُ اليأسِ والنُكودِ
وانْقَلَبَ اليأسُ بُشْرياتٍ
وأمنياتٍ، فأَيُّ عيدِ؟!

ويصور إيليا أبو ماضي حال الناس ليلة العيد وأمانيه لهذه المناسبة فيقول:

خرج الناس يشترون هدايا
العيدِ للأصدقاءِ والأحبابِ
فتمنيتُ لو تُساعِفني الدنيا
فَأَقضي في العيدِ بعض رِغابي
كُنتُ أُهدي، إذن، من الصبرِ أرطالاً
إلى المنشئينَ والكتّابِ

ثم يمضي في التمني حتي يهادي الطبيعة بعض أمانيه الشفيفة:

وإلى الحقلِ زهرَهُ وحلاه
من ندى لامعٍ ومن أَعشابِ
فقبيحٌ أن ترتدي الحلل القُشُبَ
وتبقى الرُبى بغيرِ ثيابِ
لم يكن لي الذي أردتُ فحسبي
أنني بالمنى مَلأْتُ وِطابي
ولوَ انَّ الزمان صاحبُ عقلٍ
كنتُ أُهدي إلى الزمانِ عِتابي

ومن الأعياد جاء فن المعايدة فهو مناسبة طيبة لتوجيه التهاني وربما التذكير بأن المعايد ما زال على العهد مقيم وحبل الوصل ممدود وللشعراء في ذلك باع طويل فها هو البحتري يقول:

مَضَى الشهرُ محموداً ولو قال مُنْجداً
لأَثْنَى بِما أَوْلَيْتَ أَيَّامَهُ الشَهْرُ
عُصِمْتَ بِتَقْوى اللّهِ والوَرَعِ الذي
أَتيتَ فلا لَغْوٌ لَدَيكَ ولا هُجْرُ
وقَدَّمت سَعْياً صالحاً لك ذُخْرُهُ
وَكُلُّ الذي قَدَّمْتَ مِنْ صَالحٍ ذُخْرُ
وَحَالَ عليكَ الحَوْلُ بالفِطْرِ مُقْبِلاً
فَبِاليُمنِ والإقبالِ قابَلَكَ الفِطْرُ

ويهنئ ابن الرومي أبا صقر بيوم العيد مهللاً:

اسْعَدْ بعيدٍ أَخي نُسْكٍ وإسلام
وَعيدِ لَهْوٍ طَليقِ الوَجْهِ بَسَّامِ
لا يُبعِدِ اللّه أيّاماً لَنا جَمَعَتْ
إلى سكونِ لَيَالٍ أُنْسَ أيّامٍ

أما المتنبي فيغرق في الثناء والتهنئة حتى يصبح المعايد (سيف الدولة) عيداً بحد ذاته:

هنيئاً لك العيدُ الذي أنتَ عيدُهُ
وعيدٌ لِمَنْ سمّى وضحّى وَعَيّدَا
وما زالتِ الأعيادُ لِبْسَكَ بَعْدَهُ
تُسلِّمُ مخروقاً وتُعطى مجّددا

وقال مادحاً ومهنئاً:

الصّوم والفِطْرُ والأعيادُ والعُصُرُ
مُنيرَةٌ بِكَ حتى الشمسُ والقَمَرُ
تُرِي الأَهِلَّةَ وَجْهاً عَمَّ نائِلُهُ
فَمَا يُخَصُّ بِهِ مِن دُونِها البَشَرُ

ولما فتح هارون الرشيد هرقلة وعاد منتصراً إلى الرقة دخلها في آخر يوم من رمضان فعيَّد ثم جلس إلى الشعراء فبادره أشجع السلمي مادحاً ومهنئاً بهذه الأبيات:

لا زلت تنشرُ أياماً وتطويها
تَمضي بها لك أيامٌ وتُمضيها
مستقبلاً زينة الدنيا وبهجتها
أيامها لك نظمٌ في لياليها
العيدُ والعيدُ والأيامُ مقبلةٌ
إليكَ بالنصرِ معقودٌ نواصيها

وقال السري الرفاء في معرض المدح:

أَنْتَ والعيدُ الذي عَاوَدْتُهُ
غُرَّتا هذا الزمانِ المُعْتَكِرِ
لَذَّ فيكَ المدحُ حتّى خِلْتُهُ
سَمَراً لم أَشْقَ فيه بِسَهَرْ

وتَوَلَّهَ الخالدي أبو بكر فجعل الممدوح وهلال العيد صنوين في البهاء فقال:

رَأَى العيدُ وَجْهَكَ عيداً له
وإن كانَ زادَ عليهِ جمالاً
وَكَبَّرَ حين رآك الهِلالُ
كَفِعْلِكَ حين رَأيتَ الهِلالا
رَأى مِنْكَ ما مِنْهُ أَبْصَرْتَهُ
هِلالاً أَضاءَ ووجْهاً تلالا

أما الصابئ فقد خلط الثناء والتهنئة بالرؤى الفلسفية فقال:

يا سيّداً أضحى الزّمانُ
بِأُنْسِهِ مِنْهُ رَبيعاً
أيّامُ دهرِكَ لم تَزَلْ
للنّاسِ أَعياداً جَميعاً
حتى لأَوْشكَ بينَها
عيدُ الحقيقةِ أن يَضِيعا

وهناك الكثير من الرؤى والأخيلة الشعريه ما يضيق عنه المجال ولكنا نكتفي بما أوردنا هنا كنموذج. وكل عام وأنتم بخير.

وحال عليك الحول بالفطر مقبلاً فباليمن والإقبال قابلك الفطر

رواية "العطر" هي الأولى للكاتب الألماني باتريك زوسكيند، بعد مجموعة كتابات متفرقة تراوحت ما بين القصص القصيرة والسيناريوهات السينمائية. ومع ذلك، فقد حظي مؤلفها بشهرة عالمية، وترجمت روايته هذه إلى أكثر من عشرين لغة.

الروائي **عبده خال** يقدم لنا فيما يلي قراءته لهذه الرواية، ويكشف عما يضعها عن جدارة في مصاف الروايات العالمية.

رواية "العطر"

ثمة سر في الحياة لم يبح به أحد

غرنوي... اسم سينهض في ذاكرة البشرية في يوم ما حين يأتي عالم ما ليتحقق من رؤية باتريك زوسكيند، هذا الكاتب الذي يحمل فجيعة الكون بين السطور التي يكتبها ممعناً ومتماهياً في نقض ما تم رتقه عبر العصور!!

غرنوي.. هو اسم بطل رواية العطر..
وهو اسم سيكون له الأثر الفعّال في توجيه نظرة الناس إلى ما هية الرائحة، وما هية العلاقات المترابطة بين الكائنات في جميع صورها، فإذا كانت هناك مراجعة لجميع العلاقات الناشئة بين البشر وما يحيط بهم من كائنات، وبينهم وبين بعضهم فإن غرنوي سيكون دليلاً سياحياً جيداً لمثل هذه الرحلة. وكونه شخصية رواية فلن تمنعه هذه الصيغة من القيام بهذه المهمة، فالشخصية الرواية تنفر من وجودها الكتابي لتتحول إلى وجود يملأ الفراغ بأبعاده الجسدية والنفسية ويؤسس بعداً فلسفياً لمقولاته، فقد تنبه الفلاسفة لخطورة السرد فلجأوا إلى صياغة مقولاتهم الفلسفية عبر هذه الأداة التعبيرية الراقية كما فعل سارتر على سبيل المثال. وفي الوقت نفسه تنبه آخرون لعظمة هذه الأداة فاقتفوا أثرها ليتوصلوا إلى طرق كانت غير معروفة بتاتاً.. ألم يأت علم النفس من مقولات أبطال دستو فسكي؟

وكثير من الشخصيات الروائية تحولت من واقعها الكتابي إلى واقع حياتي، واقع نشير إليه وكأنه تاريخ يستوجب علينا احترام أحداثه، وإن لم نتمتع بمزية هذا الاحترام فإننا سنبحث في تجاويف مقولات تلك الشخصية ونتأكد من وجودها بالمراجعة والدرس.

وكثير من شخصيات الرواية يتحول إلى كائن نعرفه تماماً، يقطن في مكان ما من هذا الكون، وتربطنا به علاقات حميمة ونعرف عنه أدق التفاصيل. هذه الشخصية موجودة عبر الزمن، تجدد وجودها مع كل قراءة لها، وتقفز على سطح الحياة كلما مرّت بها عيون باحثة عن أنموذج إنساني عبر حياتنا ذات مرة. إن الأعمال الروائية تتناسخ بعدد قارئيها، والمؤمنين بمقولاتها.

إن الشخصية الروائية أقوى - في وجودها - من كاتبها، فهي القادرة على البقاء وتتنقل على ألسنة الناس كثيمة سحرية قادرة على إحلال مباهج الدنيا وتعاستها أيضاً، يحدث هذا في آن واحد.

فرقصة زوربا ترف في بال كل من قرأ تلك الرواية، لتجدد في داخله متعة الحياة والبحث عن الوجود الحقيقي للكائن الإنساني. وشخصية زوربا - على سبيل المثال - أخذت أثراً أعمق مما أراد لها كاتبها أن تحدثه، وأحدب نوتردام سيظل مقترناً بتلك المشاعر الإنسانية الراقية ولن يقف عند قرع أجراس الكنيسة، وبطلة ذهب مع الريح ستظل مبقية على مشاعر الأنثى وحلمها في البحث عن إكسير الحياة وهو قريب منها، وبائعة الخبز ستجسد المأساة الإنسانية عبر التاريخ البشري، ودكتاتور ماركيز سيظل صورة التقطت في زمن ما ليتوزعها الساسة ويزينوا بها أحلامهم في جذب الناس إلى الانحناء، ودون كشوت لن تقف حربه ضد جيوش الهواء التي ستفرز حشراتها وفيروساتها ما دمنا رابضين على هذه الكرة الأرضية.

كل الشخصيات الروائية خرجت من واقعها الكتابي لتتحول إلى شخوص تتجدد في وجودها وتشارك المستقبل إعادة صياغة أمزجة الناس.

العطر

وعندما ظهرت رواية العطر - قصة قاتل (1985م)، أحدثت دوياً عالمياً ومنعت في كثير من الدول الغربية، حيث حملت الرواية مفاهيم جديدة للعلاقات الإنسانية، بل كانت قنبلة حقيقية وضعت بعناية لتفجر العقل البشري وتقضي على معظم المفاهيم التي ترسخّت في عقولنا.. فهذا الطفل الذي ولد وقذف بين القمائم ليعيش حياة رثّة، ويسير بين الناس بدمامة مبالغ بها. لم تستطع دمامته أن تجعله كائناً لافتاً أو مقززاً أو مثيراً للشفقة، تعبره العيون غير مكترثة به، ليتنبه أنه يسير بلا رائحة، ليس له رائحة خاصة به، فيبدأ في التعرف على الأشياء من خلال حاسة الشم، كل الأشياء لها رائحة (العشب، الحجر، التراب، الماء، الحشرات، الفواكه، الأجساد) كل شيء له تركيبته الكيميائية الخاصة.. ويتنبه أحد العطارين لموهبة هذا الصبي فيمكنه من العمل لديه، وبعد أن كانت شركته موشكة على الإفلاس يقوم هذا الصبي بخلق تركيبة فريدة لعطر تتوزعه كل فرنسا.

ويكتشف أن ثمة روائح لو جمعت في تركيبة معينة ستمكنه من الإمساك بزمام العالم وتسخيره لرغباته، من هنا يبدأ رحلة البحث عن عناصر مركبه الفريد، وهذه العناصر لا توجد إلا في أجساد الفتيات اللائي لم تفسد رائحتهن، فيجوب فرنسا وفي كل مكان منها يجد فتاة تحمل عنصراً من تلك الرائحة، فيصطادهن واحدة بعد الأخرى، تكون مهمته القضاء عليها بهراوته واستخلاص شذاها من مخابئها العميقة. ويمضي في جمع عناصر مركبه الفريد في حين تنقلب فرنسا لهذه الجرائم المتتالية والتي تكون الضحية فيها قد سلبت روحها وملابسها فقط..

وأمام هذه الجرائم المتكررة (وبالطريقة نفسها) يتنبه أنطوان ريتشي أحد مستشاري مدينة غراس إلى أن ابنته لور هي الضحية القادمة، لروعة جمالها وامتلاكها لمواصفات يبحث عنها القاتل، فيبعد ابنته. إلا أن غرنوي يصل إليها وهنا يقع في قبضة الشرطة في حين يكون قد اكتمل مركبه برائحة لور وعندما يحين القصاص يكون غرنوي قد اعتصم بالرائحة، تلك الرائحة التي تجعله كائناً مختلفاً وتستجلب كل المشاعر الإنسانية وتعمقها وتحوّل القاتل إلى كائن محبوب، تحوله إلى كائن يتمنى الجميع إرضاءه، تحوله إلى كائن يتيم به الرجال قبل النساء..

وفي مشهدية عاصفة يخرج غرنوي إلى ميدان باريس ويصب على جسمه عطره الفريد فيتحلّق حوله الشحاذون والنبلاء، والعابرون والعجائز، والصبية والنساء. الكل يريد التقرب منه للمسه، فقط للتبرك به. ويتلاشى بين أيديهم من فرط التعلق به. الكل ينزع منه شيئاً حتى يغدو جثة ممزقة.

أليست هذه الفكرة جديرة بجعل العالم بأسره يبحث عن سر الرائحة.. سر أن تسقط الكراهية والانتهازية والاحتقار ويقوم مقامها الحب والعدل..

إن رواية العطر نفق جديد، على البشرية أن تنقب فيه قبل أن تمضي سنوات عمرها بحثاً عن الأدوية والفلسفات لخلق المجتمعات المثالية.. فمن يكتشف معادلة ذلك العطر الذي يمكن له أن يجعل المرء منّا محبوباً لدرجة تفوق الخيال؟



مقتطف من رواية العطر



..جمد غرنوي في مكانه، مدركاً لتوه، أن نبع الرائحة التي شمها قبل نصف ميل، من ضفة النهر الأخرى، لم يكن هذه الباحة القذرة، ولا ثمار البرقوق. النبع كان الفتاة..

في الأول من أيلول / سبتمبر 1753م، في عام تتويج الملك أقامت مدينة باريس احتفاءً بالمناسبة حفلة ألعاب نارية على «الجسر الملكي». لم تكن الحفلة بفخامة تلك التي أقيمت بمناسبة زفاف الملك، كما لم تكن لتقارن بحفلة ولادة ولي العهد، لكنها على أية حال كانت حفلة ألعاب نارية مثيرة، إذ ركبوا لهذا الغرض عجلات شمسية مذهبة على صواري السفن، ومن أفواه ثيران النار كانت تنهمر الأمطار النجمية من أسوار الجسر باتجاه مياه النهر. وبينما كانت المفرقعات تنفجر في كل مكان، من الأسوار وعلى إسفلت الشوارع والأزقة كانت الصواريخ تتصاعد إلى السماء لترسم في إطار هذه الظلمة باقات من الزنابق البيضاء. كانت الحشود بالآلاف، متجمهرة على الجسر على ضفتي النهر تعبر بصيحات الإعجاب عن احتفائها بما تراه، بالإضافة إلى الهتافات الموجهة إلى الملك الذي اعتلى العرش قبل ثمانية وثلاثين عاماً والذي كانت شعبيته قد تلاشت منذ أمد بعيد. لكن جو حفلة الألعاب النارية كان قميناً بتحقيق ذلك.

وقف غرنوي صامتاً في ظل مبنى «پاڤيون دو فلور» على الشاطئ الأيمن، مقابل «پون رويال». لم يحرك يديه مصفقاً، كما لم تلفت نظره الصواريخ المتصاعدة. لقد أتى لظنه أنه قد يشم شيئاً جديداً. ولكن سرعان ما تبين خواء الألعاب النارية من أي شيء، فكل ما كان يبرق ويتلألأ ويصفر وينشر الشرر ويتفجر لم يخلف وراءه سوى خليط من روائح الكبريت والزيت وملح البارود.

كان على وشك أن يترك هذا الحفل الممل إلى بيته عبر طريق «اللوفر»، عندما حملت إليه الريح شيئاً ضئيلاً يكاد لا يلحظ، شذرة، ذرة رائحة طيبة، لا، بل أقل من ذلك: كان شيئاً أقرب إلى الإحساس الداخلي بالطيب منه إلى الطيب الحقيقي – وكان في الوقت نفسه إحساساً أكيداً بشيء لم يسبق له أن شمه. تراجع باتجاه الجدار مجدداً، أغلق عينيه وفتح منخريه. كانت الرائحة الطيبة لطيفة ورقيقة لدرجة أنه لم يستطع الإمساك بها. كانت تتجلى، لتضيع ثانية وقد غشاها دخان بارود المفرقعات، أو لتحجبها تعرقات الحشد البشري، ولتجزئها وتسحقها آلاف الروائح الأخرى المنبعثة من المدينة. إلا أنها عادت فجأة، كطيف، وللحظة فقط، لتشم كلمحة رائعة.. ثم اختفت. كان غرنوي يعاني آلاماً مريعة، وللمرة الأولى لم يكن الألم ناتجاً عن تعرض شخصه الجشع للمهانة، بل كان قلبه فعلاً هو الذي يتعذب. خامره إحساس غريب بأن هذه الرائحة الطيبة هي المفتاح لعالم الروائح الطيبة الأخرى كلها، وبأنه ليس بمستطاع الإنسان أن يفهم الروائح الطيبة، إن لم يفهم هذه بالذات. وأدرك غرنوي أن حياته ستضيع هباء، إن لم ينجح في امتلاك هذه الرائحة بعينها. كان لا بد له من أن يمتلكها، لا بهدف الامتلاك فحسب، بل من أجل راحة قلبه.

ولشدة الهيجان الذي انتابه جاشت نفسه. فهو لم يعرف مصدر الرائحة ولا من أية جهة وصلته. كان انقطاع الرائحة يدوم أحياناً لدقائق طويلة لا تحتمل، حتى تصله شذرة أخرى منها. وفي كل مرة كان يسيطر عليه خوف أن تضيع منه إلى الأبد. وأخيراً، وبإيمان اليائس، أنقذ نفسه من هذه الحالة باعتقاده

أن الرائحة قادمة من ضفة النهر الأخرى، من مكان ما من جهة الجنوب الشرقي.

حرر نفسه من جدار مبنى «بافيون دو فلور» وانخرط في الحشد البشري شاقاً طريقه عبر الجسر.
كان يتوقف بين الفينة والأخرى، منتصباً على رؤوس أصابعه كي يتمكن من التقاط الرائحة من فوق الرؤوس. ونتيجة لهيجانه لم يشم أول الأمر أي شيء، لكنه التقط أخيراً شيئاً ما، فتتبعه بأنفه. ولما كانت الرائحة الآن أقوى من السابق، تأكد غرنوي أنه يسير في الاتجاه الصحيح، فغاص في الحشد شاقاً طريقه بصعوبة بين المتسكعين وعمال الألعاب النارية الذين لم يتوقفوا عن رفع مشاعلهم إلى فتائل الصواريخ. وفي خضم دخان البارود اللاذع ضاع خيط الرائحة الطيبة من غرنوي، فانتابه ذعر جعله يستخدم منكبيه وساقيه باحثاً عن طريق، وبعد دقائق لا نهاية لها، وصل إلى الضفة الأخرى، إلى «أوتيل دو ميي» و«مرسى مالا كيست»، إلى نهاية «شارع السين». توقف هنا، جمع ذاته، وشم. وصله خيط الرائحة فانقض عليه. كانت الرائحة أشبه بشريط ممتد بطول «شارع السين»، محسوس وواضح، لكنها ما زالت لطيفة بالغة الرقة. أحس غرنوي بنبض قلبه المتسارع وعرف أنه ليس نتيجة الجهد الذي بذله في الركض، وإنما بسبب عجزه المضني حيال هذه الرائحة. حاول أن يتذكر حالة مشابهة، لكن ذاكرته لم تسعفه بشيء. كان لهذه الرائحة خاصية منعشة، إلا أنها لم تكن لتشبه الليمون الحلو أو الكباد، ولا المرّ أو أغصان القرفة أو البتولا أو الكافور أو إبر الصنوبر، ولا مطر أيار/مايو أو ريح الجليد أو ماء النبع.. وفي الوقت نفسه كانت رائحة دافئة، ولكن ليس كدفء النارنج أو السرو أو المسك، وليس كدفء الياسمين أو النرجس، ولا كدفء خشب الورد أو الزنبق الملون ذي الأوراق السيفية. هذه الرائحة كانت مزيجاً منهما معاً، من الخفيف والثقيل. لا، لم تكن مزيجاً، بل وحدة، فاترة وضعيفة، ورغم ذلك مركزة وراسخة كقطعة حرير هفهافة متلألئة.. لا، لم تكن كالحرير، وإنما كحليب بحلاوة العسل يتغلغل في مسام الكعك ويذيبه. ولكن كيف للطرفين أن يجتمعا: الحليب والحرير! إنها رائحة كاللغز، لا تخضع لوصف أو تصنيف بأي شكل أو طريقة. في واقع الأمر لا يجوز أن توجد رائحة كهذه، ومع ذلك فقد كانت ماثلة هناك في بداهتها الباهرة. تبع غرنوي أثرها بقلب يخفق فزعاً، فقد أدرك أنه ليس هو الذي يلاحقها، وإنما هي التي أوقعته في شباكها وأخذت تجذبه إليها دون أية مقاومة من جانبه.

صعد غرنوي «شارع السين»، فلم ير فيه أي إنسان، وكذلك كانت المنازل، خاوية وساكنة، فقد كان الناس هناك عند النهر في حفلة الألعاب النارية. لم يكن ثمة ما يزعجه، لا رائحة البشر المحمومين بالاحتفال ولا رائحة البارود الكريهة اللاذعة. أما الشارع نفسه فقد كانت تفوح منه روائح معتادة، كرائحة المياه والغائط والجرذان وبقايا الخضار المستهلكة. ولكن فوق هذا كله كان يلوح في الهواء الشريط اللطيف الجلي الذي كان يقود غرنوي إلى مبتغاه. وبعد بضع خطوات كان ضوء السماء الليلي الخفيف قد ابتلعته المنازل الشاهقة، فتابع غرنوي طريقه في العتمة، لم يكن بحاجة للرؤية، لأن الرائحة كانت تقود خطاه بثقة.

بعد خمسين متراً انعطف نحو اليمين، باتجاه زقاق أشد عتمة، لا يتجاوز عرضه ذراع إنسان. والغريب هو أن الرائحة لم تشتد، بل أصبحت أكثر نقاء. وبنقائها المتزايد هذا أضحت جاذبيتها أقوى. كان غرنوي يسير دون إرادة، وعند بقعة محددة جذبته الرائحة بقوة نحو اليمين، لكأنما كانت تفوح عبر منتصف جدار سور المنزل. وفجأة ظهر ممر يؤدي إلى الباحة الخلفية متجاوزاً إحدى زوايا البناء، ليصل إلى باحة ثانية أصغر من الأولى، وهنا كان ثمة نور يضيء المكان الذي لم تتجاوز مساحته بضع خطوات طولاً وعرضاً والذي يغطيه سقف خشبي مائل ممتد من جدار البناء. وتحت السقف كانت هناك طاولة عليها شمعة مضاءة. وإلى هذه الطاولة جلست فتاة تنظف البرقوق الأصفر. كانت تتناول الثمار من سلة إلى يسارها لتقشرها وتنتزع بذورها بالسكين، لترميها من ثم في سطل بجانبها. لم تكن لتتجاوز الثالثة عشرة أو الرابعة عشرة من عمرها. جمد غرنوي في مكانه، مدركاً لتوه، أن نبع الرائحة التي شمها قبل نصف ميل، من ضفة النهر الأخرى، لم يكن هذه الباحة القذرة، ولا ثمار البرقوق. النبع كان الفتاة.

ولبرهة من الزمن كان غرنوي في حالة شديدة الاضطراب، إذ لم يسبق له في حياته أن رأى شيئاً يوازي جمال هذه الفتاة، علماً بأنه لم ير منها سوى ظلها من الخلف في ضوء الشمعة. إن ما عناه في الواقع هو أنه لم يسبق أن شم أجمل من هذه الرائحة. وبما أنه كان يعرف روائح البشر، الآلاف منها، كروائح الرجال والنساء والأطفال، فإنه لم يصدق أن الجسم البشري قادر على إصدار مثل هذه الرائحة المميزة الفاخرة، فرائحة الجسم البشري عادة، إما أن تكون بلا نكهة أو مقززة بائسة. روائح الأطفال تكون غير محددة، وروائح الرجال بولية ممتزجة برائحة التعرق اللاذعة والجبن، والنساء تفوح منهن رائحة الزنخ والسمك الفاسد. روائح البشر بصورة عامة كانت مملة ومنفرة.. وهكذا كانت هذه هي المرة الأولى في حياة غرنوي التي لم يثق فيها بأنفه، فاستعان بعينيه ليصدق ما شمه.

لم يدم اضطراب حواسه طويلاً. بل لم يلزمه في واقع الأمر أكثر من لحظة ليتأكد من الحالة بصرياً، وليستسلم من ثم دون أدنى مقاومة لمدركات حاسة شمه.

لقد شم الآن أنها بشر، وكان شمه ممتعاً للغاية. فعرقها وجده منعشاً كريح البحر، ودهن شعرها كزيت الجوز، وجلدها كزهر المشمش... وتركيب هذه العناصر مع بعضها أنتج عطراً، هو من الثراء والتوازن والسحر بحيث أن كل العطور التي سبق له أن شمّها وكل تركيب الروائح التي ابتدعتها مخيلته بدت له فجأة خواء جافاً. مئات آلاف الروائح لم تعد تساوي شيئاً أمام هذه الرائحة بالذات. هذه الرائحة بالتحديد كانت المبدأ الأعلى الذي يجب على الروائح الأخرى أن تصنف نفسها وفقه، قياساً إلى هذا المثال الذي كان الجمال النقي بعينه.

المؤلف في سطور

ولد باتريك زوسكيند Patrick Süskind في السادس والعشرين من شهر آذار/مارس 1949م في بلدة أمباخ على بحيرة شتارتبرغ الواقعة على سفوح جبال الألب. كان والده صحفياً وكاتباً. بعد حصوله على الثانوية العامة درس باتريك التاريخ في جامعة ميونيخ بين 1968 - 1974م، عمل بعدها في أعمال وأماكن مختلفة، وكتب عدة قصص قصيرة وسيناريوهات سينمائية. ولم يعرف ككاتب إلا عام 1981م بمسرحيته "عازف الكونترباص"، وهي مونودراما من فصل واحد قدمتها معظم المسارح الألمانية والأوروبية. وبروايته الأولى «العطر» 1985م التي ترجمت حتى الآن إلى أكثر من عشرين لغة بلغ الكاتب الشهرة العالمية. ومنذ منتصف الثمانينيات عُرف الكاتب في أوساط الجمهور الألماني والأوروبي عبر مشاركته في كتابة سيناريوهات عدد من المسلسلات التلفزيونية الناجحة. وفي عام 1987م حصل زوسكيند على جائزة غوتنبرغ لصالون الكتاب الفرانكوفوني السابع في باريس. وهو يعيش حالياً بين ميونيخ وباريس متفرغاً للكتابة.

المحترف السوري

قول آخر..

في ملف القمر، فات القافلة في عددها السابق قراءة الناقد عابد خازندار لقصيدة قمرية للدكتور غازي القصيبي، وقد رأيت أن أعقّب بهذه المقالة على ذلك الملف.

بين لوركا والقصيبي

القمر.. مستودع الصمت

قصيدة "قمر.. في ليل استوائي" واحدة من النصوص الحميمة التي أنجزها الدكتور غازي القصيبي في تجربته الشعرية العريضة. وحين وضعها عابد خزندار في مهمة نقدية نصوصية؛ فإنه جعل منها مهاداً لتأمّلات ذاتية ومعرفية وجمالية تقاطعت مع نصوص عربية وغربية. ومن اللافت أن خزندار اعتنى بشخصية الشاعر "رجل الدولة المسؤول" الذي يحتفظ بإنسانه الحقيقي في منطقة الشعر الحالمة. هذه المنطقة التي يفرّق وعيها المتخيّل بين "الليل" و"الليلة"، على أساس يُشبه الفرق بين "الحياة" و"العيش": الحياة مستمرة، والعيش مُنته، كما أن "الليل" باق، والليلة سيعقبها صبحٌ.. وهذا ما أقَرّه قلق الشعراء منذً القدم: "وليل كموج البحر أرخى سدوله.. أرى العيش عمراً ناقصاً كل ليلة.. يا ليلُ الصبّ متى غده".. وهذه هي المواجهة النصوصية بين عنوان قصيدة القصيبي والليل عند شعراء سبقوه..!

... فقولي إنه القمرُ
أو البحر الذي ما انفك بالأمواجِ
والرغبات يستعرُ
أو الرمل الذي تلمعُ
في حبّاته الدررُ
لجوز الهند رائحةٌ
كما لا يعرف الثمرُ
... فقولي إنه الشجرُ
وفي الغابة موسيقى
طبولٌ تنتشي ألماً
وعرسٌ ملؤهُ الكدرُ
... فقولي إنه الوترُ

وهذا هو خط الارتكاز الذي وضع الناقد كفيه عليه؛ ومن الطبيعي أن تبدو الصورة الشعرية، في هذا المقطع، مزيجاً من دلالات ذاتية من خبرة الشاعر، ودلالات أخرى من نصوص غير عربية.. هذا ما يُلاحظ في صورة "البحر" الذي ينتمي الشاعر إلى بيئته، كما يُلاحظ في صورة شجر "جوز الهند" التي استلّها الشاعر من بيئة غير بيئته.

ولكن القمر، في متن قصيدة القصيبي، هو الموت..! إنه "سمات البياض، والبرودة، والصمت، هو رمز الموت عند الشعراء الرمزيين، الأمر الذي كرّسه وانتهى إليه لوركا في الغرب، وأمل دنقل في الشرق". جارثيا لوركا يقول:

في تيه السدود / فإن جسدي المعرّى / هو الذي يتلقى عقاب القمر / والساعة المغطاة بالرماد

ويقول:

نصف القمر يبتر / والريح تمضي بجروحها / إن عشب النوم الفضي يتغشى القمر القاحل

هذا هو قمر لوركا؛ أما قمر القصيبي فهو قريب من هذا التوجس المؤلم؛ إنه الاحتضار:

فيا لؤلؤتي السمراء
ما أعجبَ ما يأتي به القدرُ
أنا الأشياء تحتضرُ
وأنت المولد النضرُ
... فقولي إنه القمر

وهو أيضاً الزيف الكاذب الأشر:

وهل تدرين ما الكلماتُ
زيف كاذب أشرُ
به تتحجب الشهواتُ
أو يُستعبد البشرُ
فقولي إنه القمرُ..!

وهو المعاناة واليأس والانتثار:

أنا؟
لا تسألي عني
بلادي حيث لا مطرُ
شراعي الموعدُ الخطرُ
وبحري الجمر والشررُ
وأيامي معاناةٌ
على الخلجان.. والإنسان.. والأوزان
تنتثرُ
وحسبك هذه الأنغام.. والأنسامُ
والأحلامُ
لا تُبقي ولا تذرُ
فقولي إنه القمرُ..!!

قمر القصيبي لا يأتي من ثقافته الشعرية العربية التي تضعُ القمر إزاء الحبيب لصناعة علاقة يسميها البلاغيون "وجه التشبيه". القمر، في هذه المطوّلة، ليس شخصاً مشهوراً حسب لغة عمر بن أبي ربيعة "قد عرفناه وهل يخفى القمر"، وليس الحبيبة التي ودعها ابن زريق البغدادي "أستودع الله في بغداد لي قمراً"، وليس حتى قمر السيّاب: "عيناك غابتا نخيل ساعة السحرْ، أو غابتان راح ينأى عنهما القمرْ".. فهذه كلها صور حياة، وإشارات إشراق، أو توقٌ إلى ماض بهيج. قمر القصيبي يهربُ، في الصورة الشعرية، عنً كل المنجز التشبيهي الذي طرحه الشعر العربي على امتداد تاريخه. وينأى بجانبه حتى عن الإشارات الرمزية الآملة.. إنه المعاناة، العذاب، الخوف، الخرافة، العطش.. وسائر الإشارات المعتمة التي احتفى بها لوركا. إنه قمرٌ آخر نُودع فيه صمتنا وأحزاننا.. إنه الموت..!

حبيب محمود

ملف العدد

عُرفت في العالم القديم بـ "الشجرة الطيبة" و"شجرة الحياة"، و"شجرة العذراء". وعكست صفاتها المتعددة التقاء الشعوب والأديان والحضارات في احترامها، على نحو لم يتكرر مع أيٍّ من نباتات الأرض. وتقاطعت الكثير من المقولات الدينية بالكثير من المقولات العلمية في شأنها. وارتبطت بوجودها حياة كثير من شعوب العالم القديم، وما زال العالم الجديد معنيّاً برعايتها، وحريصاً على انتشارها. **فريق التحرير** فتّش أوراق "النخلة" وخرج بهذا الملف..

المحترف السعودي

كل قامة نخلة

لا تطالع شجرة إنساناً كما تطالعه النخلة. مرتفعة شامخة فاردة أجنحتها بتنسيق بديع في كل اتجاه. إنها الشجرة الوحيدة التي ترتفع فيها كتلة أغصانها مع كل ارتفاع للجذع. ويصبح الجذع أشبه بيد قابضة على مجموعة الأغصان ترفعها عالياً في الفضاء ثابتة في مركزها متمايلة مع نسمات الريح كلمّا هبّت وكأنها تلوّح لصديق آتٍ من بعيد. ومن أعجب ما في النخلة تحوّل ألوانها وتلاعب اتجاه الظل مع انحناءات السعف. فأنت تارة تراها خضراء نضرة، وتارة خضراء قاتمة تتخللها ظلال حمراء غير محددة وكأنها انعكاس للون الجذع البني أو إناء رطب لذيذ سوف تحمر وجناته باقتراب موعد القطاف.. يا للنخلة!

فارعة الطول، ممتدة القامة، يعلوها فرعٌ مجللٌ بسعفاتٍ كثيفة تأخذ شكل الأقواس، بعضها فوق بعض، صانعة إحساساً مفعماً بالمهابة.. تلك هي الملامح الأساسية التي تنطبق على نخلة التمر، وعشرات أنواع النخيل المنتشرة في بلاد العالم.

نخلة التمر نوع فريدٌ بين الأجناس والفصائل النخلية المعروفة على وجه الأرض. ذلك أن أنثاها لا تنتج الثمار إلا بواسطة التلقيح، وتتخلق منها فسائل أخرى في عملية تشبه الولادة، وتتعدد أصناف ثمارها حتى تقترب من الخمسمائة. ويمتدّ عمرها إلى 150 عاماً أو أكثر، وقد يصل طول الواحدة منها إلى 25 متراً، وفضلاً عن ذلك لا يتساقط ورقها حتى عند موت النخلة نفسها..!

مثل هذه السمات ألهمت عالماً عربياً مبالغة وصفية؛ فوضع النخلة والإنسان في سلة واحدة، حيث رصد كمال الدين القاهري صفاتٍ مشتركة فالنخلة: "ذات جذع منتصب، ومنها الذكر والأنثى، ولا تُثمر إلا إذا لُقّحت، وإذا قُطع رأسها ماتت، وإذا قُطع سعفها لا تستطيع تعويضه من محله كما لا يستطيع الإنسان تعويض مفاصله، والنخلة مغشّاة بالليف الشبيه بشعر الجسم في الإنسان".

أجزاء النخلة:

- الجذع: الساق الذي يمتد من "القصّر" أو "القصَر" الذي يمثل قاعدة الجذور حتى الرأس "البرعم الرئيس". ويحيط "الكَرَب" بالجذع إحاطة كاملة، ويمثّل الكرب شبه سلّم لركوب النخلة. كما يشير إلى عمرها.
- الرأس: هو الموقع الذي يجمع أهم أجزاء النخلة: القلب، الليف، السعف، العذوق.. الخ..:
- القلب: هو المعروف بـ "الجمّار"، ومنه تنبت الأجزاء الأخرى.
- الليف: نسيج يحيط بالقلب، والسعف، والعذوق، مكوناً تماسكاً صلباً.
- السعف: يقوم مقام الأغصان، وهو ينبت من القلب وينمو في شكل قوس، وينبت فيه الورق "الخوص" والشوك.
- الطلع: غلاف العرجون (العذق) ينمو في بداية الموسم، وهو الذي يتلقى اللقاح.
- العذق: يخرج من الطلع ليكون منبت الثمر. وفيه تنبت أغصان صغيرة "شماريخ"، وفي الشماريخ يتدلّى الرطب.

متكيِّفة.. متطلِّبة..!!

تتمتع النخلة بدرجة عالية من التكيّف، فهي قادرة على الصمود في المناخ الشديد الحرارة، والتربة الرملية الجافة، وتتمكن من الإثمار مع ملوحة تصل نسبتها إلى 12 ألف جزء من المليون، وتقاوم الملوحة حتى ضعف هذه النسبة. علاوة على أنها تتمتع بذكاء عضوي، فتنتشر جذورها أفقياً ورأسياً في أعماق تؤمن لها الماء والثبات الذي يضمن شموخها أمام الرياح والأعاصير.

ومع ذلك للنخلة متطلبات بيئية، أيضاً، فهي تكره المناخ البارد، وتتضرر من الأمطار في فترات التلقيح والإثمار ونضج التمر..! ويصل دلالها وتطلّبها



واحات النخيل.. حيوية الحياة..!

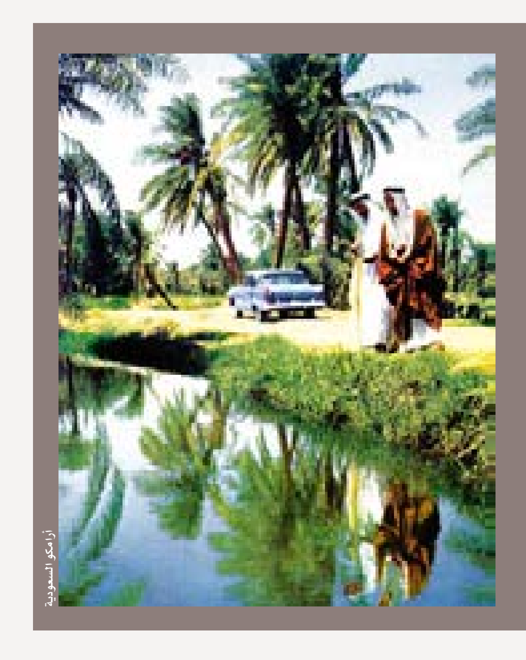
مثلما كان العرب لا يقبلون وصف بستان بـ "الجنة" ما لم يكن النخل أحد أهم مزروعاته؛ فإن الواحة لا تكون واحة ما لم يعلُ النخل أفقها..! تلك هي الصورة التي تصنعها شجرة النخيل السامقة. فالواحة أرض خصبة حية معطاءة وهي في قلب الصحراء.

وفي البلاد العربية الواحات هي ملاذ التائهين في الرمال، إنها الأمل في إحساس أي مغامر تلفظه المخاطرة إلى فضاء الجفاف. وكأن تناثر الواحات في الصحراء كان أشبه بمحطات سفر طبيعية غنية بالماء والثمر والحياة.

وإذا كانت الزراعة هي أم الحضارات؛ فإن الواحة جسدت هذه الحقيقة؛ فحين تنبت نخلات في بقعة ما؛ فإن الحضارة تنمو معها بدءاً من الزراعة وانتهاءً بالصناعات. وربما هذا ما حدث مع الفينيقيين الذين بدأوا بالنخيل، ومع تدمر في الشام، ومع غيرها من بلاد العرب القديمة.

واحة الأحساء هي أكبر واحة نخيل عربية، إنها مساحات هائلة من النخيل، ويربو عدد نخيلها على ثلاثة ملايين، وهي مترامية الأطراف تحيط بها الرمال من جهاتها الأربع، وكأنها، بهذا التكوين الطبيعي، قد صنعتْ حضناً للحياة وسط الموت الصحراوي القاحل.

وفي الشمال الإفريقي تتوزع واحات النخيل، صانعة نقاط عبور بين الشرق العربي وغربه، ومؤكدة على أن الحياة توجد لنفسها أسباباً، وتكون النخيل أكثر العلامات وضوحاً على حيوية الحياة.



أرامكو السعودية

حداً "مزاجياً" في علاقتها بأخواتها النخيل. إنها كائن اجتماعيٌّ، تفضّل أن تنشأ ضمن مجموعات. في الوقت نفسه لا تنمو جيداً حين تقل المسافة بينها وبين النخلة الأخرى عن خمسة أمتار، بحيث لا يسقط ظلّ نخلة على ظل نخلة أخرى..!

هذه الرغبة الاستقلالية لا تشمل "بناتها" الفسائل اللاتي لهنّ متطلبات من نوع آخر. وهناك قائمة شروط يعرفها المزارعون عند فصل الفسيلة عن النخلة الأمّ لغرض الغرس في مكان آخر. إنهم يفضلون أواخر الصيف لهذه المهمة، ويتخذون احتياطات دقيقة ويُكرمون النخلة وفسائلها عند هذه العملية التكاثرية..!

ثلاث طرق للتكاثر

الفسائل الصغيرة تنمو متصلة بنخلة أم، وتتخذ من آباط السعف رحماً. وفي عامها الثالث يمكن فصلها، ومن ثمّ تُغرس في مكان آخر. وهذه إحدى طرق التكاثر. وهناك طريقة أخرى أكثر سهولة. فبذرة النخلة هي النواة الموجودة في حشوة الرطبة أو التمرة. وهي لا تعني - لمن يتناول التمر - أكثر من نفاية يتخلص منها. غير أن الأمر لا يحتاج إلا إلى دفن هذه النفاية في عمق 2 سنتمتر لتبدأ نخلة جديدةٌ حياتها من هذا العمق الضئيل. هذا النوع من التكاثر يُسمّى "النشو"، وهو غير مفضّل لدى المزارعين لاحتمال أن يكون "النشو" ذكراً، وإذا جاءت أنثى فلن تكون نسخة من أمها. والعرب يعرفون ذكر النخلة بـ "الفحّال" وهو ينتج اللقاح..!!

الطريقة الأخيرة في الإكثار جاءت بها المختبرات ومراكز الأبحاث الحديثة، إنها طريقة الزراعة النسيجية، وتتم عادة في وسط غذائي صناعي، وبالتالي لا يمكن تطبيقها إلا عبر مشاريع إكثار متطورة تقنياً. وقد عرف العالم العربي هذه التقنية منذ بداية السبعينيات الميلادية من القرن العشرين، وشهدت تقدماً حقيقياً في مصر والعراق والمغرب والسعودية والكويت والإمارات. وتقوم كثير من مشاريع إكثار النخيل الحديثة على هذه التقنية.

تُؤتي أُكلها..!

وتثمر النخلة مرة واحدة كل صيف، ويبلغ متوسط إنتاج النخلة الواحدة 50 كلجم. ويُعتبر ثمر النخلة ناضجاً في أي من المراحل الثلاث: مرحلة الرُّطَب البِسْر، الرطب الناضج، والتَّمْر الناضج. ويمكن تناول أي منها، لكن بعض أصنافها يُفضل بسراً سلوقاً (مطبوخاً)، وبعضها يفضل رطباً، وبعضها جودته تكمن في كونه تمراً جافاً، أو رطباً.

ويختلف شكل الثمرة ولونها وحجمها وطعمها ونكهتها تبعاً لصنف الثمرة. فهناك الأحمر والأصفر والأخضر والبنيّ والبرتقاليّ. ومن حيث الشكل هناك: الأسطواني، والكروي، والبيضاوي المستطيل، والبيضاوي المنعكس، والمحدّب المستطيل، والكروي المسطّح القطبين. ومثلما تختلف الألوان والأشكال، تتفاوت الأحجام بين ثمرة يقترب حجمها من حجم كرة الطاولة، وأخرى لا يتجاوز حجمها ثمرة الزيتون..!

ولا يتحدد صنف الرطب باللون وحده، ولا الحجم، ولا الشكل، بل عبر كل ذلك مجتمعاً إضافة إلى موعد النضج وكذلك الطعم والنكهة. وهذا يعني أن هناك سلسلة من السمات الخاصة بكل صنف من الأصناف.

على سبيل المثال صنف "الغر" (الغرّة) له موطنان: الأحساء والقطيف، ولون رطبة هذا الصنف أصفر، وشكلها بيضاوي مستطيل، وحجمها متوسط. وهذه الصفات تنطبق تماماً على صنف آخر موطنه القطيف؛ هو "الحلاّو الأبيض"، باستثناء أن هذا الأخير لونه يجمع بين البرتقالي والوردي. وهذا الفرق البسيط واحدٌ من فروق كثيرة جداً بين الصنفين، فـ "الغر" ينضج في أول الموسم،

أسرة أحسائية من أب وأبنائه من الكبار والصغار في موسم صرام الرطب

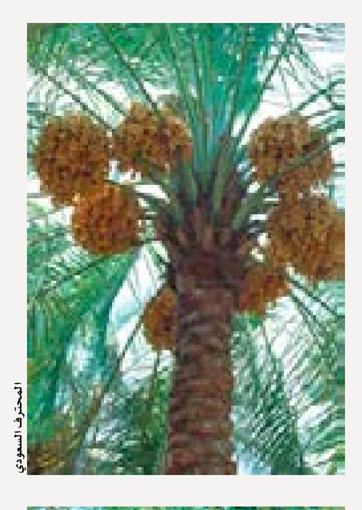
شهر يوليو، في حين لا ينضج "الحلاّوْ الأبيض" إلا في أواخر أغسطس..!

ولا يتوقف الأمر عند هذا الحدّ، فنخلة "الغر" تختلف كثيراً عن نخلة "الحلاّو الأبيض". الأولى لها جذع متوسط محيطه 180 سم، والثانية 155 سم، وطول سعفة "الغر" يتجاوز 4 أمتار، لكنه في "الحلاّوْ الأبيض" لا يتجاوز 3.75م. "الغر" تنتج 13 عذقاً في المتوسط، مقابل 11 عذقاً لدى نخلة "الحلاّوْ الأبيض"..! وهناك المزيد: فعدد الشوك في السعفة الكاملة النمو لدى "الغر" 21، لكن هذا العدد يقفز في سعفة "الحلاّو الأبيض" إلى 26 شوكة..!!

الإشارات الشكلية الأولية قد تنبئ عن فروق حقيقية بين صنفين متشابهين، كما تتساوى الجودة بين الأصناف، وتختلف المواصفات أيضاً فمثلاً تمرة "دقلة نور" تعيش في المغرب العربي، وهي تعادل جودة "السكري" في القصيم السعودية، و "زغلول" المصرية، و"الخلاص" في الأحساء. ولكن لا يجمع بينها جامع لا في الشكل، ولا الحجم..!

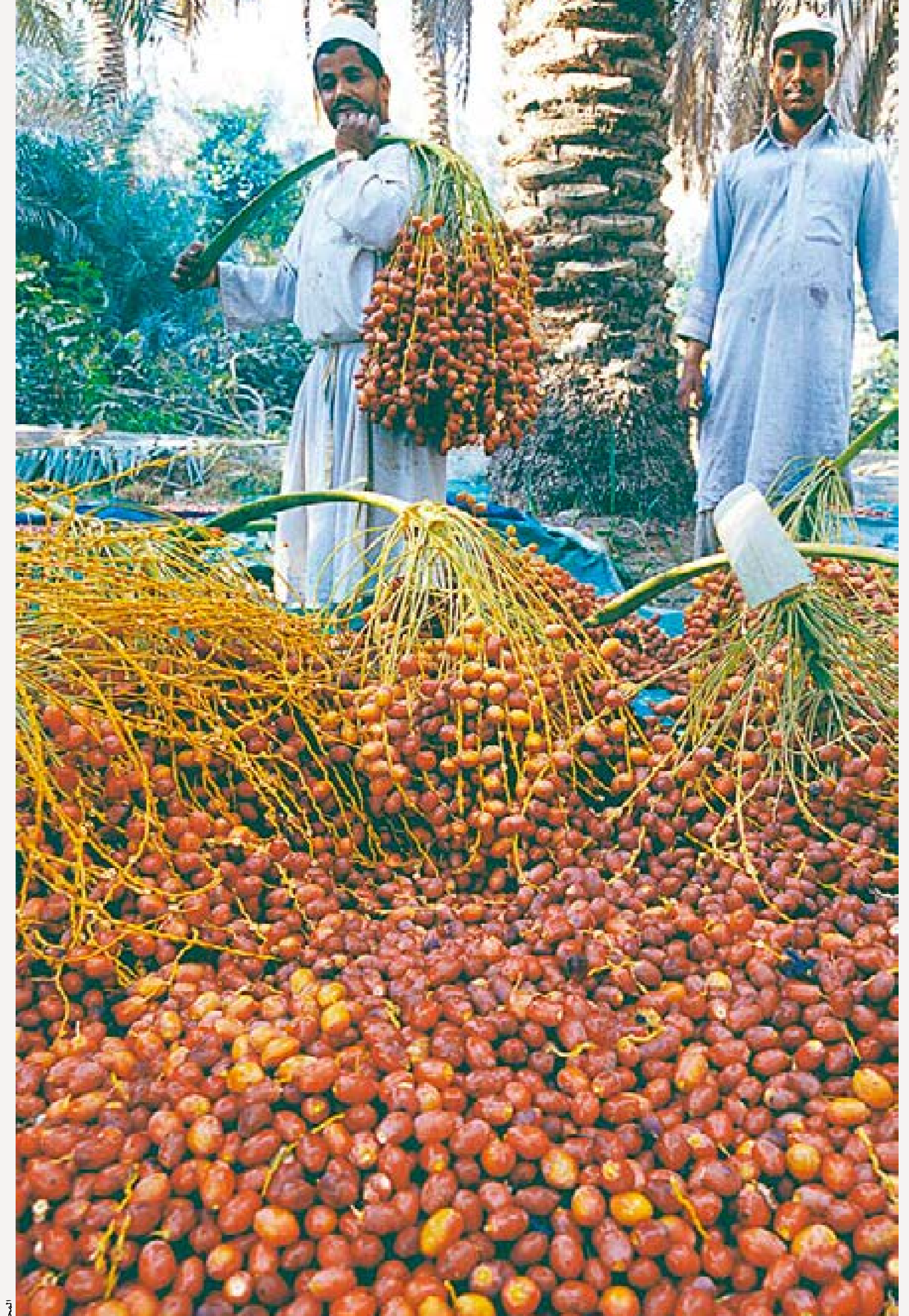
يُخرط البسر ويجمع في أكوام مكوناً كتلة لونية هائلة تمهيداً لسلقه

ينتقل الرطب على شجرة النخيل من لون إلى لون، يبدأ جميعها بالأخضر النضر لتصل إلى مختلف الألوان.









بلاد النخل والخيل

لم يتمكن الباحثون حتى اليوم من تحديد مسقط رأس النخلة. فبعضهم ذهب إلى بلاد ما بين النهرين وحضارة بابل، ومعظمهم تطلع إلى شبه الجزيرة العربيّة وخاصة إلى شرقها، ومن هؤلاء عالم النخيل الإيطالي إدواردو بَكاري الذي يعتبر منطقة الخليج العربي موطناً أصلياً لنخلة التمر. وهناك نظريات تسعى إلى مزيد من الدقة، فتحدد جزيرة صغيرة في البحرين اسمها "هارقان" أو "حارقان". وتعزز هذه الترجيحات الكتابات المسمارية التي تتحدث عن تصدير تمور من ديلمون إلى العراق، وديلمون في التاريخ القديم هي بلاد البحرين التي امتدت من جنوبي العراق حتى حدود عمان.

المؤكد أن زراعة نخيل التمر كانت معروفة منذ سبعة آلاف سنة عند كل الحضارات التي قامت في الجزيرة العربية وبلاد ما بين النهرين وما جاورها. ومنذ ذلك الحين وحتى اليوم كانت النخلة حاضرة دائماً، لا في البساتين والواحات فحسب، بل في ثقافات الشعوب واقتصادياتها وحضاراتها ككل.

الشواهد الأثرية ليست قليلة. منها العملات الفينيقية والإغريقية التي وصلتنا من الساحل الشرقي للمتوسط، والتي نقشت عليها صورة النخلة.

ومن مصر الفرعونية وصلتنا نخلة صغيرة كاملة عثر عليها في أحد مقابر سقارة وتعود إلى الألف الثالث قبل الميلاد. كما عثر الباحثون مؤخراً على مومياء فرعونية في مقبرة الزريقات ملفوفة في حصير من سعف النخيل.

ومن بلاد ما بين النهرين وصلتنا آثار المعابد والقصور التي شكل النخيل جزءاً رئيساً منها، إضافة إلى التيجان الملكية التي حملت نقش النخلة.

غير أن أهم ما وصلنا في هذا المجال مجموعة القوانين المسماة "شريعة حمورابي" التي تضمنت ثلاث مواد تتعلق بشراء النخيل وبيعه وتلقيحه، إضافة إلى مادة عقابية خاصة بالاعتداء على النخيل، تحدد غرامة فضية على كل من تسول له نفسه اقتلاع نخلة.

وضعت مجموعة القوانين هذه قبل نحو 3800 سنة من عصرنا. وعلى امتداد آلاف السنين، حافظت النخلة على موقعها في حياة الشعوب التي عرفت زراعتها وازدهارها. وبسبب تعدد أوجه الاستفادة منها، حافظت الشعوب عليها حفاظها على أغلى ما تملك، وعملت على إكثارها من دون انقطاع. ولكن أين؟

تسمى المناطق الجغرافية الصالحة لزراعة نخيل التمر بـ "حزام النخيل". ويمتد هذا الحزام من



تيجان أعمدة فرعونية مزينة برسوم النخيل

كوربيس

النقود الفينيقية والإغريقية وثقت اعتزاز الحضارات القديمة بالنخيل والخيل. وبعض الدول العربية جعلت للنخيل موقعاً مميزاً في تصاميم عملاتها الورقية والمعدنية.

المحترف السعودي



عملة قطرية

عملة بحرينية

عملة عراقية

عشرة ريالات سعودية

باكستان شرقاً ثم إيران والجزيرة العربية برمتها فالأردن وساحل بلاد الشام والساحل الإفريقي كله وصولاً إلى موريتانيا غرباً، ويضاف إلى هذه الخريطة السودان والصومال جنوباً.

وبسبب القيمة الغالية لهذه الشجرة، توسعت رقعة حزام النخيل في القرن العشرين الميلادي. إذ بدأت الولايات المتحدة الأمريكية بزراعته قبل خمسين سنة تقريباً. ونجحت في جعله منتجاً زراعياً مجدياً. كما أن ناميبيا مددت هذا الحزام جنوباً عندما أدخلت إليها زراعة نخيل التمر منذ عام 1995م.

نخيل اليوم

في العالم اليوم أكثر من 104 ملايين نخلة، تنتج ما يزيد على 2.7 مليون طن من التمور المختلفة سنوياً، وهو رقم يؤكد الأهمية البالغة لهذه الشجرة على صعيد المسألة الغذائية في العالم بأسره.

بقي أن نشير إلى أن أكبر غابات النخل وواحاته في العالم وأجود أنواعه لا تزال حيث ازدهرت زراعته منذ آلاف السنين: في العراق حيث يبلغ عددها أكثر من ثلاثين مليون نخلة يتركز العدد الأكبر منها في شط العرب. وتحتل المملكة العربيّة السعودية المرتبة الثانية عالمياً بفضل 23 مليون نخله تتوزع على مناطقها الشرقية والوسطى والغربيّة. ولكن هذه الأرقام لا تعكس حقيقة الإنتاج، فبسبب الاضطرابات التي عرفها العراق تدنى فيه مستوى الإنتاج في السنوات الأخيرة لتحتل المملكة المرتبة الأولى عالمياً بإنتاج يصل إلى نحو 850 ألف طن سنوياً. واقتصار المنافسة على المراكز الأولى زراعة وإنتاجاً ما بين المملكة والعراق، يؤكد أن النخلة كانت ولا تزال شجرة عربية الهوية. يتأكد ذلك من اعتزازنا بها، واحلال صورتها على نقودنا الحديثة. تماماً كما كانت على العملات الفينيقية والإغريقية في غابر الأزمان.

جدران وأعمدة وزخارف السعفة الذهبيّة

مثلما كانت النخلة من مواد البناء بجذعها وسعفها، كانت أيضاً ذات حضور جمالي من خلال الزخرف المستوحى منها ليزين هذا البناء. فللنخلة شكل فريد في أناقته يقوم على بساطة التكوين وتجرده شبه الهندسي المتمثل في جذع اسطواني طويل يحمل في رأسه كتلة شبه كروية من السعف. وعندما نضيف التكرار الذي نلحظه في العناصر التي تؤلف كل سعفة على حدة وتلك التي تغطي جذع النخلة أيضاً، نعرف مدى قابلية هذه الشجرة لأن تكون نبعاً لا ينضب لفن الزخرفة، هذا الفن الذي يقوم عموماً على قابلية عنصر واحد للتكرار كي يغطي مساحة كبيرة.

تراوحت الزخارف النخلية في فن العمارة بين رسم كامل الشجرة أو أجزاء منها، لا سيما السعف ذات الانحناءة الطبيعية التي تجمع الليونة والانسياب إلى الانضباط الذي يعبر عنه إيقاع الورق الذي يشكلها.

وانتشرت الزخارف النخلية بطبيعة الحال في المناطق الغنية بزراعة النخيل. ففي مصر الفرعونية جاورت السعف أزهار اللوتس في تيجان الأعمدة الحجرية الضخمة التي لا تزال قائمة حتى يومنا اذا في الأقصر. بعضها حافظ في زخرفته على الخوص، وبعضها تحول إلى شكل هندسي شبه مجرد من كل شيء ما عدا انحناءة طرف السعفة إلى الخارج.

أما في المباني النجدية فغالباً ما نجد النخل مرسوماً أو منحوتاً بالكامل على الأبواب الخشبية التقليدية، وأحياناً يتكرر الرسم الواحد للنخلة الكاملة عدة مرات. وفي البيوت النجدية الطينية نجد المثلثات المتكررة على سبيل المثال تحتذي في تراكمها شكل النخلة. إذ تستند العناصر الزخرفية المعمارية



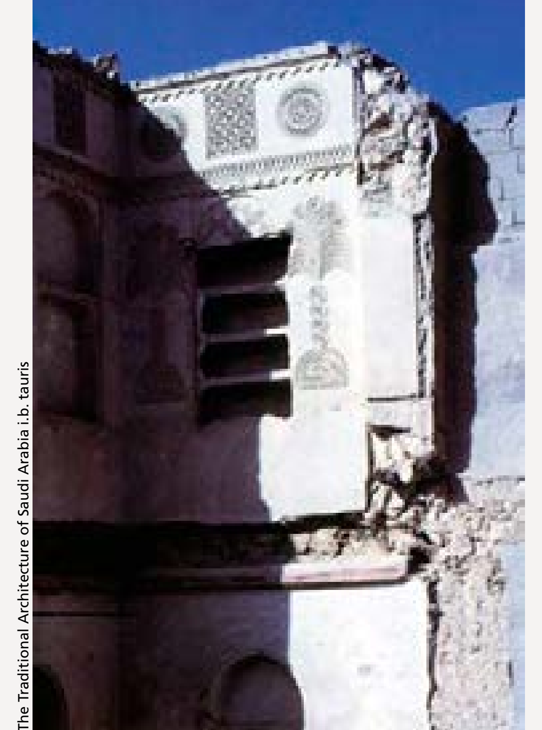
صورة قديمة من أرشيف القافلة لقرية القارة في الأحساء.. جزيرة في بحر من النخيل

أرامكو السعودية



زخارف نخلية على معمار مدينة صبيا في منطقة جازان

المحترف السعودي

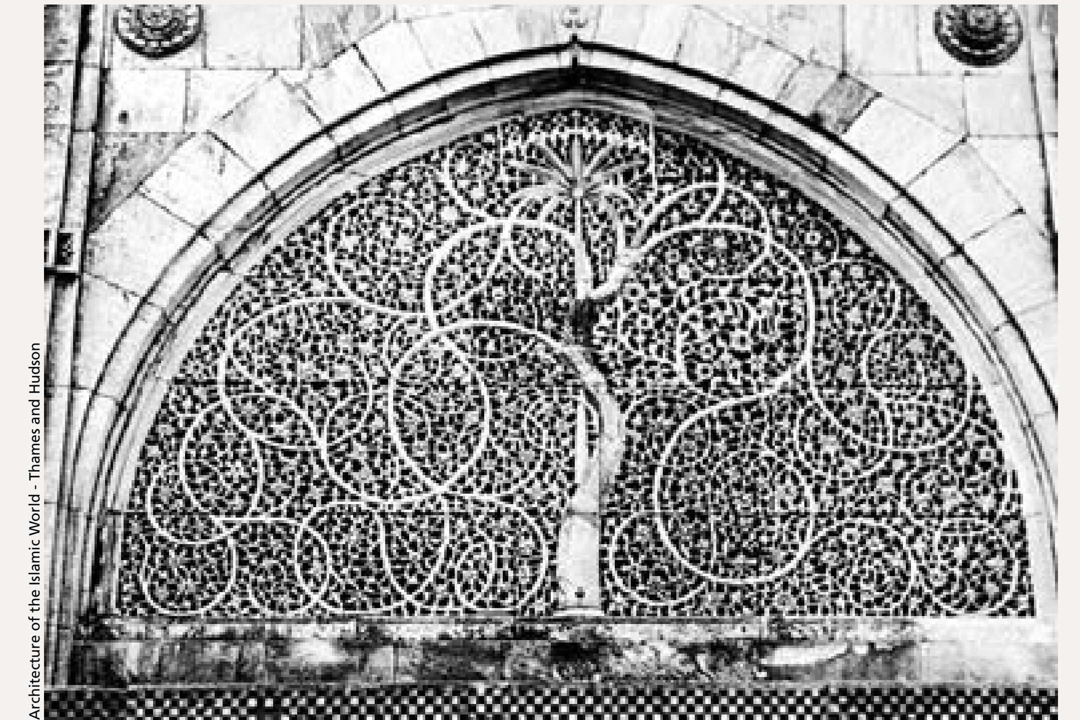


The Traditional Architecture of Saudi Arabia i.b. tauris

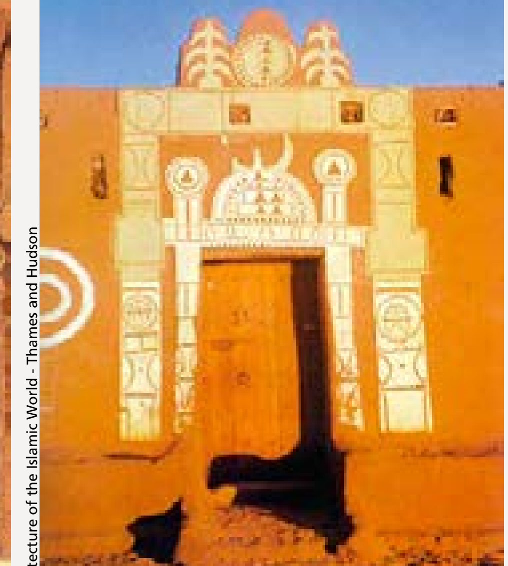
إلى تفاصيل النخلة بصورة غير مباشرة، في نقوش الجدران والواجهات والأركان والأبواب وحتى الأثاث.

وفي العمارة الإسلامية يلاحظ أن الأعمدة المزخرفة الموزعة على امتداد المباني، تحمل تيجاناً مزخرفة، فتبدو مجتمعة كغابة نخيل.

واللافت أن العرب هم وحدهم الذين لم يكتفوا بزخرفة التيجان، بل غالباً ما عمدوا إلى زخرفة الأعمدة نفسها بأشكال هندسية متكررة. ألا يمكن رد ذلك إلى استيحاء الكَرَب المتداخل على جذوع النخيل؟ وأكثر من ذلك، يجد بعض المهتمين بعلم الجمال، صلة قربى متينة بين شكل النخلة ككل، ومبدأ البناء القائم على أعمدة تحمل في أعلاها أقواساً وعقوداً وقباباً، وهو نمط بناء نشأ على ساحل المتوسط وبقي محصوراً فيه لقرون طويلة، قبل أن يعم العالم بأسره في القرون الخمسة الأخيرة.



Architecture of the Islamic World - Thames and Hudson



Architecture of the Islamic World - Thames and Hudson



المحترف السعودي



المحترف السعودي

التزيين برسوم النخيل أول ما يقفز لمخيلة الفنان الشعبي.. في الأبواب والواجهات.. وليس بعيداً عنه المعماري المحترف!!

شعار المملكة العربية السعودية



اختارت المملكة العربية السعودية النخلة بين سيفين في تصميم شعارها الوطني، منذ عهد المؤسس الملك عبدالعزيز آل سعود -رحمه الله- وترمز النخلة، في الشعار السعودي، إلى الخير والنماء في حين يرمز السيفان إلى القوة والمنعة. وتتميز المملكة بوجود النخلة في جميع مناطقها الإدارية، كما أن إنتاجها يمثّل قيمة عربية، حيث يعتبر التمر أول طعام الضيف، وعادة ما تكون القهوة رديفاً لهذا الكرم.

وحتى ما قبل اكتشاف النفط كانت التمور أهم منتج اقتصادي إبان نشأة الدولة السعودية وتوحيدها، وبعدما تدفق النفط وشملت خيراته جميع جوانب التنمية؛ احتفظت المملكة بالنخلة في شعارها وأكّدت احترام هذه الشجرة المباركة.

وقد اختارت الكثير من المؤسسات الحكومية النخلة في شعارها أيضاً، كالخطوط الجوية العربية السعوية، وجامعة الملك سعود، وغيرهما من مؤسسات الدولة.







جنة من نخيل

في القرآن الكريم 23 موضعاً كانت النخلة جزءاً من مضامينها، أو إشارة من إشاراتها. ويرى بعض المفسّرين أن الآية (24) من سورة إبراهيم ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاء﴾ كانت تشير، في هذا التشبيه، إلى النخلة.

وقد تعددت الصور التي برزت فيها النخلة. فقد وصفت سورة الرحمن الأرض: ﴿فِيهَا فَاكِهَةٌ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ﴾، ثم وصفت الجنة: ﴿فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ﴾ (الآيتان: (11 و 68).

ووردت صفة الجنة مقترنة بوجود النخل في العديد من الآيات، كما في الآية (4) من سورة الرعد: ﴿وَفِي الأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاء وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾.

وتضمّنت الآيات القرآنية صوراً جمالية لوجود النخيل والزروع. كما في الآية (10) من سورة (ق): ﴿وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ﴾. وشدّد القرآن الكريم على الجانب الغذائي في النخيل وثمارها، وهذا ما تكشف عنه بوضوح قصة السيّدة مريم (عليها السلام): ﴿فَأَجَاءهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا (23) فَنَادَاهَا مِن تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا (24) وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا (25) فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا﴾ (سورة مريم).

ووُجدت النخلة في النار، أيضاً، من خلال تشبيه قرآني صوّرته سورة المرسلات (آية 32)، ﴿إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ﴾، وقد وردت القَصَر - بتحريك الصاد - في إحدى القراءات، وقَصَر النخل هو ما غلُظ من أسفله. وفي تشبيه آخر كانت النخلة جزءاً من صور تشير إلى الموت والفناء مثلما عبرت عنها سورة القمر في قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ (19) تَنزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ﴾. ويرتسم مشهد الخواء والموت في صورة أخرى من سورة الحاقة: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ (6) سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾.

وفي قصة فرعون جاء على لسانه متوعداً السحرة الذين آمنوا بدين موسى عليه السلام: ﴿فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى﴾، طه آية (71).



المحترف السعودي

الغذاء.. الدواء

أُعجب الإنسان بالطعم السكّري اللذيذ في ثمار النخيل، وأحب ألوان أصنافها. وتناولها بِسْراً ورُطَباً وتمراً. وقد لا يكون الإنسان القديم قد عرف بشكل علميٍّ قدرة السكريات المركّزة في التمر على مقاومة البكتريا، ولكنه . بالتأكيد . لاحظ أن التمر يحفظ نفسه بنفسه من التلف إذا حظي بظروف تخزين بسيطة، فاعتاد على تخزينه ليتناوله طيلة العام.

وفرة الرطب والتمر فاقت حصرهما في غذاءٍ أوليٍّ بهذين الشكلين، ففتّق الإنسان القديم حيله لتنويع منتجات ثمار النخيل. وكان "السَّلُوق" أحد الأشكال الثانوية من الثمار، وهو يُعدُّ من خلال سلق البِسر ونشره في الشمس وتعليبه. ويبقى السلوق صالحاً للأكل حتى بعد عام، معتمداً على جفافه وتركيز سكّرياته. الدِّبْس (أو عسل التمر) مُنتجٌ ثانوي آخر أمّنته وفرة التمر. ويتم استخلاصه من أصناف خاصة. كما عرف الإنسان، أيضاً، كيف يستخرج الخلّ، والشاي والقهوة من التمر..!

ولكن هل انحصر المأكول من النخلة في الرطب والتمر ومشتقاتهما..؟

المدهش هو أن النخلة لم تكن سخية بعطاء ثمارها فحسب؛ بل إن سخاءها امتدّ إلى آخر لحظة من حياتها. فحين تسقط النخلة، أو تُسقط، لسبب من الأسباب يعمد المزارعون إلى استخراج "جُمّارها" فيأكلونه. وتُعرف هذه العملية في منطقة الخليج العربي بـ "التجذيب"، والجُمّار المأكول يُسمّى "الجذَبّ".

في المطبخ.. والمصنع.. والمختبر..!

وقد دخلت ثمار النخيل المطبخ العربيّ منذ القدم، فوفرت عدداً من مقادير الأطعمة للمرأة العربية التي ابتكرت وطورت العديد من الوجبات التي يدخل التمر أوالدبس في إعدادها. مثل: "الممروس"، و"عصيدة الدبس"، و"العفوُّسة" و "اللُّقيمات"، و"المعمول" و"الكُلَيجة"، و"الدليكة"، والخبز الأصفر، وغيرها من الوجبات.

وفي العصر الحديث يؤمّن التمر موادّ أولية للعديد من الصناعات الغذائية، كالسكر السائل، والحلويات والمعجنات، وصناعة الألبان، وصناعة التخليل، وزيوت النوى، وأغذية الأطفال، فضلاً عن الأعلاف الحيوانية. وتطاولت الصناعة الحديثة على الرطب في مرحلة (الخَلال)؛ ليتم إنتاج ما يُعرف بمسحوق الخلال الذي يعتبر مادة غذائية غنية. كما وجدت المختبرات في التمر ميداناً لاستخراج الكحول الطبي والصناعي. كما تُستخلص منه الأحماض الأمينية، والبروتينات، وعناصر غذائية تدخل في مركبات الأغذية والأدوية.

مادة متكاملة

والفضل يعود، في ذلك، إلى غنى التمر بالعناصر التي جعلت منه مادة غذائية متكاملة تقريباً، وتتركّز السكريات، فيه، بنسب تتراوح ما بين 70 و 75% من المادة الجافة لتؤمّن السكروز والفركتوز والجلوكوز. إلى جانب السكريات هناك قائمة متنوعة من الأحماض الأمينية، والفيتامينات، والبروتينات، والحديد والبوتاسيوم والنحاس والكبريت والمنجنيز والكالسيوم والفسفور والكلورين والماغنسيوم.

هذا الغنى يجعل من التمر مادة دوائية أيضاً. وفقر التمر إلى المواد الدهنية يناسب الساعين إلى النحافة، في حين يحتاجه الذين يعانون فقر الدم لاحتوائه على نسبة عالية من الحديد. ويقوّي الاستمرار في تناوله العظام والأسنان لاحتوائه على الفسفور والكالسيوم. وألياف التمر السليلوزية تساعد على حركة الأمعاء الاستدارية الطبيعية. كما أن التمر يعادل حموضة المعدة بسبب غناه بالأملاح القلوية.

وفائدة التمر للأم ورضيعها واضحة جداً، خاصة في فترة النفاس، فهو منبّه لحركة الرحم وانقباضاته بعد الولادة، كما أنه مهم لتكوين حليب الرضاعة وتعويض الأم ما ينقصها بسبب الولادة، بفضل احتوائه على الحديد والكالسيوم وفيتامين (أ).

أدوية حبوب اللقاح..!!

واكتسبت حبوب لقاح النخيل سمعة جدية في بعض العلاجات عند الأطباء العرب القدماء وفي العلم الحديث أيضاً. فالأطباء العرب قالوا إنه "يقوّي المعدة ويجففها، ويسكن ثائرة الدم، وينفع المحرورين، وينفع من ضيق النفس، والسعال البلغمي، وإذا أضيف إليه العسل قوي الجسم عامة والعمل الجنسي خاصة"..! ووضعه الرازي إلى جانب الجُمّار وقال عنهما: "ينفعان المحرورين ويسكنان ثائرة الدم". وأفتى داوود الأنطاكي في أمر لقاح النخيل فقال: "ينفع إذا صُفّي وخلا عن المرارة من التهاب العطش والحميات، والإسهال والنزيف ونفث الدم".

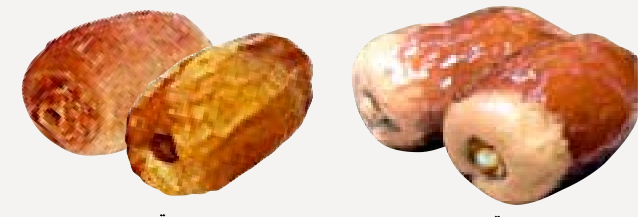
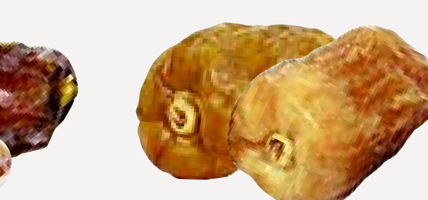
وحين دخلت حبوب اللقاح المختبرات الحديثة وُجد أنها تحتوي على 17% من سكر القصب و 22% من البروتين، و54% من الكالسيوم وفيتامينات ج، ب6 والفوسفور والحديد. كما يحتوي على هورمون الآيسترون. أما الطب الحديث فقد وجده في مقدمة المقوّيات للجسم لكثرة المواد الدهنية فيه، كما أن هورمون الآيسترون ينشط المبيض وينظم دورة الطمث، ويساعد على تكوين البويضة.

أصناف التمور

لكل صنف من التمر خصائص تميّزه عن الصنف الآخر، ليس في الحجم والشكل واللون فحسب، بل أيضاً في المذاق والنكهة. فضلاً عن ذلك، فإن هناك أصنافاً من التمور تُحسب جودتها على المنطقة التي تُزرع فيها، بحيث لو تمت زراعة الصنف نفسه في منطقة أخرى لما وصلت الجودة إلى الدرجة التي تصل إليها في المنطقة الأصل.. "عجوة" المدينة تكاد تكون جودتها خاصة بالمدينة المنورة، والـ "زغلول" تمتاز بجودته النخيل المصرية، والـ "زاهدي" العراقي كذلك. تنطبق الظاهرة على "خلاص" الأحساء، و"سكري" القصيم، و"خنيزي" القطيف، وغيرها من الأصناف.

ويقترب عدد أصناف التمور من ٥٠٠ نوع على مستوى العالم. وفي الوطن العربي هناك أصناف من التمور تُعتبر المفضلة، ومنها: العنبرة، الخضيري، البرني، الصقعي، دقلة نور، الصفري، المنيفي، المكتومي، مبروم، الرزيز، الروثانة، نبوت سيف، نبتة علي، ساري، الغر، الماجي، البكيرات، الحجوب، الشيشي، الحلاّو، البرحي، الصبو... وغيرها وغيرها من الأصناف..

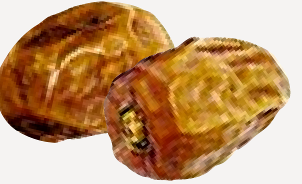
لكل تمرة خصوصيتها في الطعم والنكهة والمضغ؛ فضلاً عن الشكل واللون والحجم.. والتمايز الذي يفرِّق بين تمرة وأخرى في قرابة 500 صنف هو ما يجعل من صنف سمة من سمات إنتاج منطقة من المناطق، وبالتالي يصنع أشبه بالتحزبات والتفاخر بنوعية عند هذا الإقليم أو ذاك.. الخلاص في الأحساء مصدر اعتزاز لدى سكانها، والسكري في القصيم والعجوة في المدينة المنورة وهلمّ جراً..

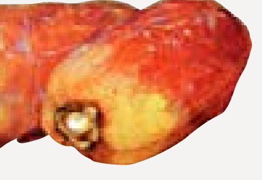















صقعي

قسب

نبتة راشد

الصفري

الخلاص

مبروم

صفاوي

ام الكبار

نبتة علي

مكتومي

عجوة المدينة

روثانة

عنبري

سلج

رشوديه

دقله نور

خضري

السكري

المحترف السعودي

شاي النخيل.. قهوة التمر..!!

يُعدّ شاي النخيل من قطع من أغلفة اللقاح، حيث تُغلى القطع بالماء، وحين يتحول لونه إلى البنيّ المائل للحمرة يُضاف إليه السكر، ويُحتسى كما يُحتسى الشاي العادي.

وفي مملكة البحرين لا تزال صناعة ماء "القروف" مستمرة، وهي عملية استخلاص عصارة غلاف اللقاح عن طريق التبخير. وتحتفظ هذه العصارة بنكهة عَطرة تُضاف إلى الشاي العادي، أو حتى إلى ماءَ الشرب، كما يُعدّ منه عصير لذيذ، يشبه عصير الهيل المغلي المحلّى.

أما قهوة التمر فتُعدّ من نوى التمر الغني بالأحماض بعد غسله وتجفيفه في الشمس، ثم حمسه وطحنه، كما تُحمّس وتُطحن القهوة. ويتم إعدادها، تماماً، كطريقة إعداد القهوة العربية، وقد يُضاف إليها الهيل من أجل النكهة.

أول الإفطار تمر..!

لا تخلو مائدة رمضانية عربية من وجبات يكون التمر، أو أحد مشتقاته، ضمن مكوّناتها الرئيسة.وقد أكد العلم الحديث أهمية وجود التمر في مائدة الإفطار. ففي نهاية الصوم يهبط مستوى تركيز الجلوكوز والأنسولين من دم الوريد البابي الكبدي، وهذا بدوره يضطر الجسم إلى تعويض الناقص عن طريق خلايا الكبد والأنسجة الطرفية كخلايا العضلات، وخلايا الأعصاب.

لذلك فإمداد الجسم السريع بالجلوكوز في هذا الوقت - عبر التمر مثلاً - له فوائد كثيرة؛ إذ يرتفع تركيزه بسرعة في دم الوريد البابي الكبدي فور امتصاصه، ويدخل إلى خلايا الكبد أولاً ثم خلايا المخ، والدم، والجهاز العصبي والعضلي، وجميع الأنسجة الأخرى المهيأة لتكون السكريات غذاءها الأمثل والأيْسَر للحصول على الطاقة. وبذلك يتوقف تأكسد الأحماض الدهنية، وتزول أعراض الضعف العام والاضطراب البسيط في الجهاز العصبي، لتأكسد كميات كبيرة من الدهون، كما يُوقف تناول الجلوكوز عملية تصنيع الجلوكوز في الكبد، فيتوقف هدم الأحماض الأمينية وبالتالي يحفظ بروتين الجسم.



المحترف السعودي

من المهد إلى ...

وثّق سترابو لسكان العراق القديم أن النخلة "كانت تجهزهم بجميع حاجاتهم ماعدا الحبوب". و"جميع حاجاتهم" التي أشار إليها المؤرخ القديم تعني أن النخلة كانت مادة حياة دخلت في العديد من خطوط الإنتاج في المجتمع، في العراق وغير العراق. وهناك تعبير آخر انطلق على علاقة الإنسان العربي بالنخلة هو أنها كانت رفيقته "من المهد إلى اللحد"، حيث أمّنت احتياجاته من المأكل والملبس والمسكن، وشاركته حتى قبره بعد موته..!

من المهد..!

بعد أن يغفو الرضيع في حجر أمه؛ فإن المكان الملائم لنومه عادةً ما يكون سريراً مصنوعاً من عصيّ السعف. وحين يحتاج إلى طعام غير حليب أمه فإن تمرة ملفوفة في منديل، أو خرقة، على هيئة حلمة قنينة الرضاعة هي أول ما يُلقم به في حال غياب الأم، أو انشغالها.

ينمو الصغير، وتنمو معه احتياجاته، فتوفر له النخلة بيئة صالحة للعب والمرح، فضلاً عن قائمة طويلة من الألعاب التي تحفّز النشاط الحركي والذهني.

قد يختار إحدى ألعاب "الاختباء" و"التنكر"؛ فيوفّر بستان النخيل مواقعَ وفيرة تستوعب جميع مراحل اللعبة. أو يحلم بالفروسية فيعتلي صهوة جريدة ويركض، حاملاً سيفاً من عصا، أو رمحاً من جريدة أخرى، أو قوساً من عرجون قديم..! وكلّ ذلك يُصنع يدوياً وبواسطة الطفل اللاعب نفسه..!

وقد يفضّل "الأرجوحة"، فيوصل نخلتين متجاورتين بحبل مصنوع من ليف النخيل. وقد يتوق إلى لعبة صوتية، فيعمد إلى عرجون أخضر ويقتطع منه قطعة لا تتجاوز طولها 30 سم، ثم يفلقها حتى المنتصف إلى ثلاث شرائح متعادلة، ويثني شريحتين منها. ولم يبق عليه إلا أن يهزها يميناً ويساراً لتصدر أصواتاً رتيبة..!

وقد يطلبُ لعبة أكثر تركيباً، فيصنع عصيين: قصيرة (20 سم) وطويلة (60 - 70 سم)، ويشترك مع آخرين في لعبة يسميها بعض سكان الخليج "قبّ وقلينّ". هذه اللعبة تتكون من طرفين متنافسين أحدهما يضرب العصا الصغيرة بالكبيرة لتنطلق بعيداً، وعلى الطرف الآخر تلقفها ومن ثم رميها إلى الطرف الأول، ويجب في هذه الحالة أن تسقط في دائرة الطرف الأول المرسومة سلفاً، فإن لم تسقط؛ فإن الطرف الأول سيلحق بالثاني جهداً جهيداً في الركض وفق حساب خاص..!

الألعاب الطفولية كثيرة، بعضها بسيط، وبعضها مركب. وما يجمع بينها هو أن للنخلة، فيها، عصاً، أو عرجوناً، أو شمروخاً، أو سعفة، أو حتى جذعاً.. وأحياناً تكون النخلة برمتها لعبة، وبالذات في رياضة سباق التسلق..!

وفي "الكتّاب"، أيضاً، بعض أجزاء النخلة حاضرة للتعليم. وفي مرحلة تعلّم القرآن الكريم يحتاج الصغير إلى "خوصة" صلبة ليتتبع كلمات السور بواسطتها بدلاً من استخدام إصبعه، حيث لا يُسمح له بمسّ كلمات المصحف مباشرة، ما لم يكن على طهارة. وحين ينتقل إلى مرحلة تعلّم الكتابة؛ فإن قلمه "شوكة" نخيل يغمسها في حبر من الطين. ودفتره "كَرَبة" عريضة..!

الطفل الذي يلعب في أجواء النخلة، ويعاقب بجزء منها، ويتناول إنتاجها، لا تنحصر صلته بها عبر هذه الوسائل الثلاث، فهناك أيضاً المزيد. لا بدّ أنه سيكون فرداً من أسرة تتحلق، في كل وجبة، حول "سفرة" مصنوعة من "خوص". هذه السفرة جزءٌ من "مفروشات" المنزل المصنوعة من النخيل: فهناك الأسِرّة، والكراسي، والحُصُر، و"الخصاف"، وهناك "القفف" و"الزنابيل" و"السلال" لحفظ الأطعمة والأواني والملابس. وفي مطبخ المنزل تحترق مخلفات النخيل وقوداً للطهي والشواء، ويصلح الليف والسعف، أيضاً، للتدفئة في مشهد شتائي تجلس فيه الأسرة حول "سجْرة ضوّ" يتطاير منها الدخان..!

منازل ريفية

وماذا عن المنزل نفسه..؟

البيوت الريفية هي بيوت نخلية خالصة مائة في المائة. وكثيراً ما يكون البيت في زاوية من زوايا البستان، أو وسطه. وتتكون هذه النوعية من البيوت، عادة، من وحدات صغيرة لوظائف محددة:

1 - القرقعانة (أو الطقطقة) لعبة صوتية مصنوعة من العذوق.
2 - الدوخلة أو (السعفة): سلة تزرع ببعض النبات وهي إحدى ألعاب العيد.
3 - الفرارة: لعبة بسيطة من الخوص الأخضر.

تصوير عبدرب الرسول الغرياني



العديد من الصناعات اليدوية الشعبية قائمة على أجزاء من النخلة

البَرَسْتَج: بناء من السعف والجريد لاستقبال الضيوف

المحترف السعودي

- فهناك سور المنزل القائم على تجاور السعف وتراصه، أو الجريد. وهو يحيط بالمنزل محدّداً مساحته، وموقعه من منازل الجيران.

- وهناك العشة: التي تتخذ شكل الكوخ، وتُبنى من "الجذوع" و"السعف" اليابس، و"الجريد"، و"السمّة" التي تشبه الحصير في حياكته، لكنها أكبر منه بكثير. وتؤدي العشة وظيفة غرفة النوم، أو مجلس الضيوف، أو حتى مخزن المؤونة.

- وهناك العريش: الذي قد يتصل بالعشة، وهو مظلة منزلية تطل على باحة المنزل، وتقوم مقام الصالة، أو مجلس الضيوف، أو مكان تنفيذ الأعمال اليدوية، مثل الحياكة، و"السف"، وغير ذلك. وقد يكون مطبخاً. ولكنه، في الغالب، يُستخدم للنوم في ليالي الصيف القائظة.

- وهناك البَرَسْتَجْ أو البرستي: وهو كوخٌ كبير، يُصنع من جريد النخل، ويُعدّ لأغراض الضيافة، وتجتمع فيه الأسر الكبيرة.

ولا تخلو البيوت الطينية، في القرى والحواضر، من مخلفات النخيل. فهناك الأعمدة والأسقف، على الأقل، ناهيك عن المفروشات وملحقات المنازل، وسراج الإضاءة الذي تُحاط فتيلته بكرة شمعية من التمر..!

خطوط إنتاج متشابكة..!

ومثلما أمّنت النخلة المأكل والمسكن؛ أمّنت الوظائف والحرف والأعمال التجارية، وهذا كله جعل من النخلة سلعة في جميع الاتجاهات. وبما أنها شجرة متطلبة في العناية؛ فقد أوجدت لنفسها عمالة ماهرة تختص بشؤون ريّها وتغذيتها، وتنظيفها، وتلقيحها، وجنْي ثمارها وبيعه، ثم صرام المتبقي منه. وبعد الصرام تحتاج إلى من يعتني بالتمر بنثره في الهواء الطلق أياماً، ثم جمعه، وتعبئته في "قلال"، وتخزينه، ثم أخيراً تسويقه..!

وأوجدت مخلّفات النخلة، أيضاً، حرفيين يقومون بأعمال "إعادة التدوير"؛ فظهر "القفّاصون" الذين يصنعون الأسِرّة والكراسي وكُوَش العرائس وأقفاص الطيور وغير ذلك من الصناعات القائمة على العصيّ. وظهر "المُسجّنون" المهرة المختصون بإعداد الجذوع إعداداً دقيقاً لاستخدامها في أسقف المنازل والقبور والجسور.

وظهر صانعو الحبال، والقفف والزنابيل والسلال والمراوح اليدوية، وغيرهم من خطوط الإنتاج التي أوجدت طبقة من التجار والمسوّقين، والوسطاء، فضلاً عن طبقة المالكين المتصلين بعلاقات عمل متشابكة ومستمرة مع مستأجرين وحرفيين، وكلهم من أبناء المجتمع.

إنها بيئة نخيل مشبعة بالعمل والإنتاج، وما إن يشتدّ عود الصغير، حتى يجد نفسه جزءاً من أسرة كلها تعمل لصالح النخلة بشكل خاص والزراعة بشكل عام، بمن فيها النساء اللاتي ينهضن بمسئوليات المنزل كوظيفة رئيسة تُضاف إليها أعمال إنتاجية أخرى في الحقل وفي البيت. وكثيراً ما توكل إلى المرأة أعمال التي يغلب عليها طابع الحياكة.

وكانت ثروة النخيل تقاس بوحدة مبتكرة من النخلة أيضاً. فالبستان لا تُحدد مساحته بالأمتار أو الياردات، بل بـ "المغارس". فيقال: "البستان الفلاني فيه 500 مغرس"، أو يقال ينتج "300 قلة من الخلاص، و 150 أخرى من الخنيزي". وقد انسحبت وحدة المغارس على قياس مساحات المنازل أيضاً، فيقال مساحة البيت الفلاني "تسع مغارس عرضاً، وخمس طولاً"..!

إلى اللحد..!

والمعنى: كل شيء يشير إلى النخلة..!! فعلى مدى العمر هناك نخيل، وهناك أعمال، وهناك احتياجات. وحين يُصاب المرء بجرح ما؛ فإن العلاج الشعبي سينثر رماد "الخوص" على جرحه لإيقاف النزيف وتعجيل الشفاء. وقد يُلزم بنثر نشارة تُستخرج من عصا منخورة..! وفي حال تعرضه لكسر أو رضّ؛ فإن التمر المعجون بالزبدة الساخنة سيكون مرهماً مسكّناً لآلامه، وهو الدواء نفسه الذي سيستخدمه الذي يعاني من آلام المفاصل..!

وقد يكون من المبالغة أن نقول: إنه سيحتاج إلى عصا يتوكأ عليها حين يشيخ، فعصيّ النخيل ليست نموذجاً جيداً لهذه المهمة.. ولكن، بالتأكيد، ستكون النخلة إلى جانبه بعد أن يتوفّاه الله. ففي بعض مناطق الخليج، يُلَفّ الميّت في حصير بعد تكفينه، أثناء حمله على النعش إلى قبره. وبعد أن يُسجّى الميت في القبر يُسقف بفلق من جذوع النخل، ثم يُفرش عليها الحصير الذي لُفّ فيه، ثم يُهال عليه التراب، ويوضع، عند رأسه وقدميه، جذوع تقوم مقام الشاهد على قبره..!



كرسي من الجريد الأخضر

المحترف السعودي

نشأتِ بأرض.. الشعر

ليس غريباً أن تملأ النخلة نصوص الشاعر العربيّ بعد أن ملأت حياته، ودخلت في ثقافة يومه، وتغلغلت في وعيه. وفضلاً عن الوصفيات التي اعتنى بها الشعراء العرب في شأن النخلة، والحديث عنها؛ فإن قيمتها في الشعر القديم، تميزت بالتفرد والخصوصية.

لقد كان الشاعر العربيّ يستعير من ثقافته الخاصة بالنخل صورة أو مشهداً أو حالة، ويشبه بها ما يريد ومن يريد.

وإذا كان امرؤ القيس، وهو أهم الشعراء الجاهليين، قد شبه شعر حبيبته بفرع النخلة المتداخل؛ فإن غيره ذهب إلى ما هو أبعد.. يقول امرؤ القيس:

وفرع يزين المتن أسود فاحم
أثيث كقنو النخلة المتعثكلِ



كانت النخلة صنو الإنسان العربيّ والصورة المقابلة له في الطبيعة، وهذا ما نلمسه في شعر عبدالرحمن الداخل (صقر قريش) الذي وجد في نخلة غريبة في بلاد الأندلس شبيهاً له في الغربة والنأي عن الأهل، حيث قال:

تبدّت لنا بين الرصافة نخلة
تناءت بأرض الغرب عن بلد النخلِ
فقلت: شبيهي في التغرب والنوى
وطول التنائي عن بنيّ وعن أهلي
نشأتِ بأرض أنت فيها غريبةٌ
فمثلك في الإقصاء والمنتأى مثلي

تشابه وتناظر

وصور التشابه بين ما يراه الإنسان في حياته وتجاربه ومشاعره وبين النخلة وثمارها وأجزائها قد انعكس في الصورة الشعرية منذ القدم. والحطيئة، هذا الهجّاء المشهور، وجد في حلاوة التمر جزئية من جزئيات الصورة حين أراد المدح فقال:

وأحلى من التمر الجنيّ وعنده
بسالة نفس إن أريد بسالها

أما ابن الروميّ فقد التفت إلى ما تمثله النخلة من عطاء وكرم، وإلى ما تبدو عليه من علوّ وشموخ، فمزج هاتين السمتين في مدح إحدى شخصيات شعره:

سما فوق من يسمو وجاد بسيبه
فزايل والمعروف منه مخالطُ
هو النخلة الطولى أبت أن تنالها
يدان ولكنْ ينْعها متساقطُ

ولدى دعبل الخزاعيّ صورة مأساوية لنكبة البرامكة عبّر عنها مستفيداً من النخلة، كقيمة من القيم، إنه يقول:

ألم تر صرف الدهر في آل برمكٍ
وفي ابن نهيكٍ والقرون التي تخلو
لقد غرسوا غرس النخيل تمكّنا
وما حصدوا إلا كما حُصد البقلُ

وفي معنى مشابه يقول الأبيوردي:

وأطمعْتَ في أعراضنا كلّ كاشحٍ
يجرّعه الغيظ السِّمام المثمّلا
وراءك إني لست أغرس نخلةً
لأجنيَ منها حين تثمر حنظلا

وجاء الفرزدق بمعنى قريب من هذا كثيراً، حين عاتب فقال:

فهل أنت إلا نخلة غير أنني
أراها لغيري ظلّها وصرامُها

وفي بعض تفاصيل تكوين النخلة ما أغرى الشعراء بالاستخدام، مثل إحاطة الليف والسعف برأس النخلة، يقول النابغة الشيباني في وصف معركة:

وقد أحاطت بها أبطال ذي لجب
كما أحاط برأس النخلة الليفُ

ويقول، أيضاً، مادحاً وهاجياً:

ألست أبينَ منهم غير أنهمُ
هم اللئام إذا ما استشرفوا عرفوا
وقد تكنّفهم لؤمٌ أحاط بهم
كما أحاط برأس النخلة السعفُ

واهتم شاعر آخر هو العشاري بمشهد الطول في النخيل، لكنه - حين يصف ممدوحيه - فإن ينعطف نحو معنى آخر.. يقول:

بواسقُ جادت بالثمار فأينعت
ثمار الهدى والعلم والفضل لا التمرِ

أما الصنوبري؛ فيقارن بين "التمر" و "الحشَف" اللذين تنتجهما النخلة، وهي مقارنة بين الجيد والرديء، حيث يقول:

تصفو خلائق أيام الزمان بكمْ
إذ الخلائق فيها التمرُ والحشفُ

حكم ومفاخر

وظهرت الحكمة والفخر في الشعر عبر النخلة، إذ يقول ابن رشيق القيرواني:

وطالب حاجة بعيداً
منالها من يدي مرامِهْ
عرّض بالاقتضاء فيها
وما انقضى منتهى كلامِهْ
كغارسٍ في الثرى نواةً
ليأكل التمر في مقامِهْ

ويقول صفي الدين الحلي:

لديّ تصحّ ثمار الوفاء
لصبريَ عند انقلاب الهوى
وينبت عندي نخيل الوداد
لأنك عندي دفنت النوى

ويقول أبو العلاء المعري:

كم غُرست نخلة بأرض
فلم يقدرْ لها بسوقْ
لا يفرحنْ بالحياة غرٌّ
فإنها مَهلكاً تسوق

المعري استخدم المثل العربي الشهير في موضوع التمر "كجالب التمر إلى هجر"، فقال:

ومن أهمّ بظلم فهو عندهمُ
كجالب التمر مغترّاً إلى هجَرِ

الشاعر الحديث

ومثلما استلهم الشاعر العربي القديم من النخلة العديد من الصور والإيحاءات، فإن الشاعر في العصر الحديث حاول تقليده أيضاً، فكتب الوصف والحكمة والمدح والهجاء، وسائر الموضوعات الشعرية مستخدماً إيحاءات وإشارات النخلة. لكن وجود النخلة في الشعر الحديث اشبه ما يكون بانفجار رمزي لا يمكن احتواء مداليله بسهولة وتصنيف إشاراته.. ولذلك سنقتصر على نماذج يسيرة ذات إشارات جمالية من الشعر الحديث..

أما الرصافي فيستلهم من ثقافته الريفية ما يناسب مضامينه، وفي هذا السياق يقول:

إذا النخلة العيطاء أصبح طلعها
ضعيفاً فليس اللوم عندي على الطلع
ولكن على الجذع الذي هو نابتٌ
بمنبت سوء فالنقيصة في الجذع

أما عبدالرزاق عبدالوحد فيؤاخي نخيل بغداد:

كبير على بغداد أني أعافها
وأني على أمني لديها أخافها
كبير عليها بعد ما شاب مفرقي
وجفت عروق القلب حتى شغافها
تتبعت للسبعين شطآن نهرها
وأمواجه في الليل كيف ارتجافها
وآخيت فيها النخل طلعاً فمُبْسراً
إلى التمر والأغذاق زاهٍ قطافها

انقلبت الصورة في موضوع النخيل، في الشعر العربي الحديث، ولم تعد وصفية حسية، بل تطورت إلى رمز يشير بإيحاءاته إلى العديد من المضامين الشعرية.. إنها أحياناً وطنٌ، وأحياناً أخرى حياة، وغير هذا وذاك من الإشارات الرمزية.. يقول مظفر النوّاب:

فقد كنت عند نخيل العراق
وإن كان حلماً
وكان العراق على مهره عارياً
مثلما ولدته السماءْ
وكان على عتبات العراق الفضاء
وبين ضلوعي فضاء به نجمة
لست أدري بماذا تُضاء..!

أما الشاعر السعودي محمد الثبيتي؛ فإنه يؤنسن النخيل في صورة شعرية مدهشة:

يوشك الماء أن يتخثر في رئة النهر:
هذا التراب يمزق وجهي
وهذا النخيل يمدّ إليّ يدهْ
يوشك النهر أن يتقيأ أجوبة الماء
من قال إن النهار له ضفتان
وأن الرمال لها أوردهْ



النخيل في المكتبة

اهتم العربُ بالتأليف في موضوعات النخيل ومنتجاتها. وهذا الاهتمام يُردّ إلى كون النخلة مادة اقتصادية رئيسة، وهو ما أهّلها لأن تصنع، في المجتمع العربي، ثقافة اقتصادية اعترف بها أدباء ولغويون منذ القدم. وأبو عمرو الشيباني ربما سبق غيره حين وضع كتاباً في النخلة. ثم تبعه الأصمعي بكتاب مماثل، وانضمّ إليهما ابن الأعرابي عبر كتاب (صفة النخل)، ثم أبو حاتم السجستاني، والزبير بن بكّار، وأمية المدني، وغيرهم. وفي العصر الحديث تعدّدت المصنفات المعنية بالنخيل ومنتجاتها، وأغلب ما ألّف حديثاً يندرج ضمن الأبحاث العلمية، والدراسات الاقتصادية، أو الأعمال التوثيقية.

كتاب النخل

وضعه أبو حاتم سهل بن عثمان السجستاني

معجم النخيل

تأليف عبدالهادي الفكيكي. صدر في بيروت عام 1998م، في 121 صفحة.

النخيل والتمور وآفاتهما

يقع في 576 صفحة تأليف الدكتور علي عبدالحسين. صدر عام 1985م.

النخيل وأشباه النخيل

يقع في 340 صفحة، تأليف مصطفى بدر.

النخيل في المملكة العربية السعودية

صدر عن كلية الزراعة بجامعة الملك فيصل.

نخيل المنطقة الشرقية

يقع في 238 صفحة من القطع الكبير، تأليف الدكتور جاسم الأنصاري.

سوسة النخيل الحمراء

صدر عن وزارة الزراعة السعودية عام 1423هـ/ 2002م. ويقع في 174 صفحة ملونة.

نخيل التمر في الإنترنت

إصدار صغير في 20 صفحة أصدرته جامعة الملك سعود، ضمن مطبوعات اللقاء الدولي لنخيل التمر الذي نظمته في القصيم قبل شهرين.

القافلة
مجلة ثقافية تصدر كل شهرين
عن أرامكو السعودية
نوفمبر - ديسمبر 2003
المجلد 52 العدد 5

